

مستفيض

ظهيرية

ساختنة

جدا

القصة الحقيقية لقتل السيد عبد الحميد الخولي

ماذا..لو

يأتي على المؤرخين وقت ما يغريهم فيه التساؤل: «ماذا لو..؟» ماذا لو كانت كليوباترا ملتوية الأنف؟.. ماذا لو أن قيصر لم يعبر نهر الروبيكون؟ ماذا لو أن الإمام علي بن أبي طالب لم يقع في فخ التوسط بعد معركة صفين؟ وتاريخ تحرير العراق من صدام حسين، الذي هو غير مدون حتى الآن، وعندما يحدث ذلك فلا شك في أنه سيثير التساؤل ولمرات عديدة «ماذا لو..؟»: ماذا لو ان صدام قرر ترك العراق قبل الغزو الذي قاده الولايات المتحدة؟ ماذا لو أن الفرنسيين لم يشقوا الأمم المتحدة، مشجعين بالتالي صدام على المضي في تحديه حتى النهاية؟.. وإحدى حالات «ماذا لو..» المثيرة للاهتمام تتعلق بعبد المجيد موسوي الخوئي الذي تبقى جريمة قتله في النجف قبل ساعات من سقوط نظام البعث مثيرة للجدل والنقاش

الساخنين. فهناك العديد ممن يعتقدون انه لو لم يقتل، لأدى دورا حيويا في إحلال المصالحة الوطنية في عراق ما بعد صدام. ذلك ان مقامه ابنا وخلفا لآية الله العظمى الحاج سيد أبو القاسم موسوي الخوئي، مرجع التقليد وأعلم علماء الشيعة لأكثر من ثلاثين عاما، يقدم لعبد المجيد الشرعية في السعي الى إمامة الشيعة. فرغم انه لم يتجاوز سن الواحدة والأربعين وقت اغتياله، فقد تمتع بخبرة طويلة اكتسبها من إدارة «مؤسسة الخوئي» ومن اتصالاته السياسية والدبلوماسية في عدد من كبرى عواصم العالم. وعام 2003، وقت مقتله، كانت له قنوات مفتوحة الى السواد الأعظم من القوى الدولية التي يمكن ان تؤدي أدوارا مهمة ومفيدة في العراق. وكانت فيه خصلتان نادرتان: الأولى هي سحره الشخصي الذي لا يقاوم والذي سهل عليه الأمور حتى في أصعب المفاوضات على الإطلاق، والثانية شجاعته التي كثيرا ما تجاوزت حدود الجرأة والإقدام.

كانت هذه الخصلة الثانية هي التي قادتته الى العودة الى العراق في نيسان 2003 قبيل سقوط نظام البعثيين، وهو يعلم انه يقوم بمغامرة كبرى. فعائلته وجدت الأمرين من سياسة صدام القاتلة تجاه زعماء الشيعة الدينيين. فقد كان

الاغتيال مصير المئات من أئمتهم الذين تربط القربى العديد منهم بعبد المجيد، وكان السجن أو النفي مصير عدد آخر أكبر. أذن، عاد عبد المجيد الى العراق وهو يعلم ان وقوعه في يد النظام يعني الموت المحتم.

لكنه كان يعلم أيضا ضرورة دخوله العراق قبل سقوط نظامها. وكان قد أطلعني على نيته هذه قبل أسبوعين من سفره. وقد ساعدته على ترجمة مقال، إلى الانجليزية، رحب فيه بتحرير العراق (نشر في «الشرق الأوسط» و«ناشونال ريفيو» إضافة الى عدد آخر من الصحف). وفي اليوم السابق لاغتياله، اتصل بي هاتفيا ليخبرني بوصوله الى النجف، ووعد بالاتصال مجددا اليوم التالي بعد «ترتيب الأشياء» مع «الحوزة العلمية»، ولعله كان يقصد آية الله العظمى على محمد حسيني السيستاني على وجه التحديد.

المكالمة الهاتفية الموعودة لم تأت أبدا، إذ اغتيل عبد المجيد على أيدي الدهماء في النجف. فجاء مقتله ضربة موجعة لآمال الوحدة الشيعية كأساس للمصالحة الوطنية في عراق ما بعد البعث. وبدون أي مبالغة، يمكن القول إن الكثير من العنف كان يمكن تلافيه وإن الكثير من الدماء كان يمكن أن تحقن لو أن عبد المجيد ظل على قيد الحياة.

قصة الاغتيال هذه سردت في عدد لا يحصى من المقالات والتقارير على صفحات الجرائد. لكنها لم تسرد بشكل يأسر الأبواب كما وردت في كتاب معد فياض. فالمؤلف، كراو للأحداث، يتمتع بما لا يتوفر للكثيرين غيره. ذلك انه اصطحب الخوئي طوال رحلته التي بدأت في لندن وانتهت في النجف. وعليه فإن ما يقدمه لنا هنا هو رواية شاهد عيان من الطراز الأول. أضف الى ذلك ما يتمتع به من قدرة صحافية عالية على الرؤية والمراقبة. وحتى في قمة المأساة، لا ينسى فياض التفاصيل الدقيقة الخاصة.. ألوان الأشياء.. تعبير خاص على وجه ما.. ويمضي ليروي لنا أحداث ذلك اليوم الشديد الحرارة – المشمس بعد أيام من المطر - بتلاحق سريع مثير فكأننا نقرأ رواية بوليسية. ورغم أننا نعلم ما حدث سلفاً، تظل أعيننا مسلطة على صفحات الكتاب بحب استطلاع يتعاظم مع التالي منها.

من قتل عبد المجيد الخوئي؟

هذا السؤال طرح ونوقش في متاهة الإجراءات القضائية العراقية على مدى السنوات الثلاث الماضية. على أن رواية فياض توضح بجلاء ان مرتكبي الجريمة قريبون من مقتدى الصدر الإمام – السياسي الصغير الشأن الذي راح من وقتها يؤدي دورا متعاظما في لعبة السلطة الجديدة في

العراق. والمؤكد هو أن الصدر، الذي تربطه صلات القربى الوثيقة بالخوئي، رفض أن يفتح بابه لعبد المجيد الجريح، وهو ما سمح لمهاجميه بإتمام فعلتهم الذميمة. وكتاب فياض هو صرخة من الأعماق من أجل العدالة، حتى يستطيع القضاء العراقي أن يبين لنا ما حدث في النجف في ذلك اليوم الشديد الحرارة.

وفي نقطة ما في هذا الكتاب المتلاحق الأحداث، ينقل لنا فياض عن ابن أخي الخوئي قوله: «هل يلزم لنا، نحن الشيعة، الاستمرار في قتل أئمتنا فقط من أجل الحزن عليهم»؟

وصحيح أن العديد من كبار قادة الشيعة قتلوا منذ اغتيال عبد المجيد. لكن الجريمة التي شهدنا ذلك اليوم الشديد الحرارة في النجف تكتسب معنى خاصا على المستويين الإنساني والسياسي.

ويضيف الكاتب ملحقا في آخر الكتاب ضمّنه مجموعة من الحوارات مع عبد المجيد الخوئي ملقيا مزيدا من الضوء على الرجل وأفكاره. وفي أحد هذه الحوارات يقول الخوئي إن ثلاثة أشياء في حياتنا نحن البشر بيد الله وحده: الزواج، والرزق، والأجل.

وكون الخوئي عاش حياة قصيرة فقد يكون لأسباب خارج
حدود فهمنا. ولكن، في الوقت الراهن، لدينا هذا الكتاب
التمين الذي يتيح لنا ان نعيش ظروف ذلك الموت المأساوي
من جديد.

لندن – أيلول 2006

لماذا...؟

هذه الـ"لماذا" هي واحدة من جملة أدوات الاستفهام والسؤال التي دفعتني لانجاز هذا الكتاب الذي استغرق من وقتي، مشدودا ومسترخيا، ثلاث سنوات. منذ ان فجعت بجريمة مقتل أخي وصديقي الاعز السيد عبد المجيد الخوئي ظهيرة العاشر من نيسان 2003 في مدينة النجف، حيث كنت معه، والاسئلة تنهال علي، بعد ساعة واحدة أو اقل من الاعلان عن مقتله وحتى هذه اللحظة، كان علي أن اجيب عن ملايين الاسئلة سواء من اذاعات وخطات تلفزيون فضائية وصحافة مكتوبة.. أسئلة تلد اسئلة عن: من قتل الخوئي؟ لماذا؟ كيف؟ متى؟ أين؟ و و و، حتى يصل محتوى هذه الاسئلة الى التفاصيل التي تخرجني امام نفسي لقسوتها وقسوة الاجابة عنها خاصة عندما تتعلق بتفاصيل تفاصيل القتل.

عندما عدت الى شقتي الصغيرة في اطراف لندن بعد رحلة مرعبة وشاقة الى مدينة النجف، وبعد خمسة ايام من مقتل الخوئي، كنت أرى كل ليلة السيد عبد المجيد الخوئي يجلس فوق مقعد وفير في صالون الشقة وهو مبتسما بينما

الدماء الطازجة والتي ما تزال ساخنة ولماعة باحمرارها تلون لحيته التي صارت بيضاء تماما.

كنت أعيش تلك الاحداث الصعبة والقاسية كل ليلة،بتفاصيلها واصواتها وروائح اجساد الناس الموجودين ضمن المشاهد الدامية.لم يكن الامر،وما يزال، سهلا بالنسبة لي،انه الاصطراع الذي يفتعل في داخلي رغم عني او بارادتي.

احتجت لكي اتطبع مع الحدث استشارة واحد من افضل الاستشاريين النفسانيين الالمان،وكان قد شارك بمساعدة بقايا ضحايا النازية الذين يعانون من مناظر الموت والتعذيب منذ الحرب العالمية الثانية. بعد ستة اشهر متتالية قال لي الدكتور الألماني والذي اصبح صديقا لي "كل ما استطع قوله هو اني لم اصادف شخصا مثلك عاش مثل هذه الاحداث مباشرة وبقي متوازنا حتى اليوم،لقد انتصرت على اشياء فضيعة كثيرة ويجب ان تنتصر على ما تبقى".

وبعد ان تمعن في النظر الى عيني قال "هناك حقيقة واحدة وهي انك كنت جزءا من هذا النزال الدموي وعليك ان تؤمن بهذه النتيجة،وما فعلناه هو ان نتعاون سووية على ان نتطبع مع الحدث لا ان ننساه،فلو نسيته اليوم سيعود اليك غدا أكثر ضخامة وقد يؤدي الى نتائج مرعبة".

كان وما يزال الآخرون يسألوني في التفاصيل دون الانتباه الى مدى العذاب الذي يسببونه لي وانا احكي لهم عن هذه الحادثة الجل.حاولت التخلص منها عندما ادليت باحاديث تلفزيونية واذاعية او عندما كتبت بعض فصولها لصحيفة"الشرق الاوسط".لكنني صرت اكتشف ان الحادثة ما تزال تنام وتنهض معي ملتصقة بي اكثر من ظلي.

ثم قررت كتابة هذا الكتاب الذي اذكر فيه الحقائق كاملة مثلما شاهدتها لعني اتطبع مع الحدث تماما فلا يعود يؤثر بي،من جهة،وكي اتخلص من اسئلة الآخرين وذلك من خلال قرائتهم محتويات هذا الكتاب،من جهة ثانية. وليتأكد القارئ بان كل ما وارد هنا هو عين الحقيقة التي عشتها بتفاصيلها اذ لا مصلحة لي ان أزيد او اقلل او اتهم او ابرئ من خلال الاحداث التي يتوفر عليها هذا الكتاب الذي حرصت على ان ازوده بملحق يؤكد كل ما جاء فيه ويقود القارئ الى يقين مفاده:من قتل الخوئي.

لا يسعني هنا الا ان اشكر عائلتي التي عانت طوال فترة وجودي في
النجف، وشكر خاص للكاتب الصديق عبد الرحمن الراشد رئيس تحرير
صحيفة "الشرق الاوسط" والزميل الصحافي عثمان ميرغني نائب رئيس
تحرير "الشرق الاوسط" والكاتب الايراني الزميل أمير طاهري لقراءته مسودة
الكتاب وكتابة التقديم له، والزميل سامي يعقوب الذي تحمل اخطائي الاملائية
والنحوية وصححها، والاخ حازم الشعلان وزير الدفاع الاسبق لتقديمه
معلومات مهمة اغنت هذا الكتاب وللقاضي الشجاع رائد جوشي.

لندن- فبراير- شباط 2007

الى روح الشهيد السيد عبد المجيد الخوئي
إمام المحبة والتسامح
والى روح الشهيد الشاب السيد ماهر الياسري
الذي ضحى بحياته من اجلنا
والى روح السيد حيدر الرفيعي
ضحية الشجاعة
من اجلكم ومن اجل الحقيقة كما عرفتها
اقدم هذا الكتاب

طوال حياتي كنت أخشى مشهدين، رؤية أولئك المدومين شنقا ومعلقين بالحبال تهزهم نبضات متشبثة، بلا طائل، بالحياة. ومشهد ذلك الذي يُقطع رأسه بالسيف تعزيرا.. فبينما يكون الشخص الذي سيقطع رأسه معصوب العينين، جاثما على ركبتيه، وهو يستمع لقرار إعدامه، يفاجئه الجراد من الخلف ليهبط بسيفه على رقبتة فتتفصل مثلما خيارة طازجة، فيما يتدحرج الرأس بعيدا عن الجسد تصدر عنه كلمات غير مفهومة.. هل لي أن اضيف المزيد من المشاهد التي تقشعر لها طاقة الخوف والارتعاش في روعي؟ حسنا، هناك المشاهد التي اعتدناها، فيما بعد، خلال احتفالات الإعدام الجماعية رميا بالرصاص على إيقاع الهتاف للسيد الرئيس القائد.

كنت صبيا عندما شاهدت لأول مرة في حياتي جثث بعض الاشخاص معلقة في ساحة (ام البروم) في مركز مدينة البصرة، حدث ذلك في بداية السبعينات عندما افتتح البعثيون مشاهد القتل العلنية بإعدام من تم اتهامهم بالتجسس. كانت جثتان لجارين لنا بين الجثث التي علقت في هذه الساحة التي كانت مقبرة في العهود السابقة، والتي ايضا خلدها الشاعر بدر شاكر السياب في قصيدة تحمل اسمها (ام البروم)، الاول كان اسمه جمال ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره وقتذاك، كانت جثته معلقة مثل قطعة قماش حمراء، وتحول لون وجهه الى الاصفر الباهت، وتدلى لسانه بشكل غريب، بينما امه كانت تنادي من بين الجموع امرأة أياه بالترجل لاحتضانه.

والثاني، صباح حاييم، كان من يهود العراق، وبيتهم كان ملاصقا لبيتنا، لم يكن معه سوى أمه العجوز الطيبة التي كانت تحوز محبة سكان الحارة كلها، وخاصة النساء، وبينما كانت جثة صباح، الشاب الهادئ الذي لم يتدخل في شؤون احد من الجيران، تتدلى، لملت أمه حقيبة ملابسها ورحلت بصحبة أحد اقاربها الى مكان مجهول. فيما بعد حضرتُ مرغما حفلات مأساوية للقتل، او الاعدامات الجماعية، كانت تنفذها فرق الإعدام في جبهات القتال بين الجيشين العراقي والايرواني. بل ان هذه الحفلات الدموية كانت تمتد الى الاحياء الشعبية في المدن العراقية، وقريبا من بيوت المعدومين «ليكونوا عبرة لغيرهم من الخونة» حسب البيانات الصاخبة التي كانت تتلى على الملأ الهاتف بحياة الرئيس القاتل، عفوا، القائد. وبلا أدنى احساس إنساني كان البعثيون، او الذين يكلفون بتسليم جثة المعدوم الى عائلته، يطالبونها بثمان الرصاصات التي اخترقت جسد ابنهم مع التشديد بعدم إقامة مراسم العزاء.

في صيف عام 1985 صدرت تعليمات تقضي بطرد مدرسة ثانوية وزميلتيها من الحزب والوظيفة، وكان السبب ان الاولى ابدت مشاعر الحزن وارتدت ثياب الحداد السوداء، كما هو متبع في العراق، لإعدام ولديها (الخائنين) وزميلة لها وشتت الى الحزب بالزميلتين الاخرين عندما سمعتهما تقولان لها «البقاء في حياتك.»

خلال سنوات الحرب العراقية الايروانية كان يقام اكثر من مهرجان للقتل الجماعي، الاول هو ذلك المشهد الاعتيادي الذي تدور احداثه في ميادين القتال بين الجيشين العراقي والايرواني والذي تستخدم فيه كل صنوف الاسلحة والمخترعات الحديثة للقتل والابادة، وعادة ما تكون نتائج هذه الجولات من الذبح المجاني المئات من جثث الجنود العراقيين والايروانيين،

وعندما تبلغ هذه المشاهد ذروتها وترسل بالحشود البشرية الإيرانية أو العراقية في مواجهات مباشرة تكون احصائيات القتلى بالآلاف من البشر.

أما مشاهد الاحتفال المتفرعة عن المنظر العام فهي عديدة، أبرزها انتشار فرق الإعدام التي كانت خاضعة لسيطرة الاستخبارات العسكرية واجهزة التنظيم البعثية وأمن الوحدات العسكرية. كان (الرفاق) البعثيون ينتشرون في ما وراء خطوط القتال وهم يضعون فوق أذرعهم شارات خضراء أو حمراء للدلالة على أنهم من مفارز فرق الإعدام التي تصطاد «المتخاذلين الفارين» من سوح الوغى والموت ليلاقوا موتهم على أيدي أبناء جلدتهم عن طريق إعدامهم فوراً ومن غير محاكمة، أو حتى سماع افاداتهم، وكان قائد فرق الإعدام لفترات طويلة هو عزة الدوري.

أذكر هنا حادثتين موثقتين حول فرق الإعدام، الأولى شهدتها بنفسني وخلال الأيام الأخيرة من مشاهد الحرب الطويلة، وبالضبط في أواسط شهر تموز عام 1988، أي قبل توقف العمليات الحربية بشهر تقريبا، حيث انتهت الحرب في الثامن من آب عام 1988، كنت مراسلا حربيا في القاطع الأوسط من جبهة القتال، وكانت ثمة معارك ختامية تدور لاحتلال مدينة صالح آباد الإيرانية المتاخمة للحدود العراقية في قاطع بدرة وجصان التابعتين لمحافظة واسط. تقدمنا أنا والمصور عصام بواسطة سيارة «لاند كروز» عسكرية كنت أقودها بنفسني، كانت درجة الحرارة في الظل قد بلغت ما فوق الخمسين درجة مئوية، وأرتال القوات العراقية تتحرك تحت أشعة الشمس المحرقة من غير أن توفر للجند عربات ماء وطعام.

وفي استرجاع تاريخي ادون هنا ان الملك البابلي نبوخذ نصر، وكان عاشقا للحروب، تقدم من هذه الدرب لمحاربة الجيش الفارسي، حدث هذا قبل خمسة آلاف سنة، مثلما تذكر المصادر التاريخية، كانت حملته قد بدأت في شهر تموز ايضا، وكانت الحرارة شديدة، حتى ان الراوي البابلي، وحسب موسوعة حضارة العراق الصادرة عن وزارة الثقافة والاعلام سنة 1985، ولا ادري ما مدى دقة هذا الراوي، قد وصف حرارة الشمس التي كانت السيوف من شدتها عندما تتلاقى خلال القتال تقدح نارا، في هذه المنطقة بالذات، في بدرة، حيث ينتصب تل أثري يعود تاريخه الى العصر البابلي دارت تلك المعركة، وها هو صدام حسين يتتبع خطى من يعتبره مثله الاعلى نبوخذ نصر ليكتب الصفحات الاخيرة من تلك الحرب التي اشتعلت بعبثية تافهة قبل ثماني سنوات من تاريخ وجودنا في تلك الرقعة، وقتذاك

كنا نحتفظ في سيارتنا بصندوق من الفلين الابيض فيه اكثر من نصف قالب من الثلج وقناني ماء وفاكهة، وفي مناسبات مثل هذه حيث تحتم القوات بالمواجهات تضيع تفاصيل كثيرة ومنها مواقع بعض المقرات الادارية للوحدات العسكرية التي تكون قد تحركت فجأة وبناء على أوامر سريعة وطائرة مما يمنع بعض الجنود الذين تاهوا في حماة هذا الخلل من الالتحاق بوحداتهم، وهكذا كنا نتوقف لنساعد هذا الجندي او ذاك للالتحاق بوحدته او ليشرب الماء البارد، بعد فترة قصيرة تجمع في سيارتنا اكثر من ثمانية جنود منتسبين لوحدات مختلفة وكانوا يخشون من الوقوع في ايدي مفارز الاعدام.

فجأة وصلنا الى مفرق لا نعرف الى اين يؤدي، والخطأ في مثل هذه المواقف قد يقودنا الى القوات الايرانية لنقع بين ايديهم كأسرى جاهزين، كانت هناك خيمة نصبت في هذا المفرق وخارجها جنديان يضع كل

منهما شارة خضراء فوق ذراعه اليمين، سألت احدهما عنم يكونا فقال متباهيا بانهما من الرفاق اعضاء مفارز الاعدام، كان الجنود الذين معنا يرتجفون خوفا خشية ان نسلمهم لجنود المفرزة، اقسمت لهم باننا لن نسلمهم الا لوحداتهم مع اخذ تعهد بعدم معاقبتهم، حيث كان الضباط يكونون بعض الاحترام لنا لاننا كنا نظهرهم على شاشات التلفزيون او على صفحات جريدة (القادسية) العسكرية. فجأة لمحني الجندي الآخر واقرب لتحيتي فعرفته، كان جنديا احتياطيا وهو موظف في وكالة الانباء العراقية، سألته عما يفعله هو وزميله هنا.. قال: عندنا ثلاثة جنود متخاذلين ومنتظر المزيد لإعدامهم، سألت باستغراب: إعدام من؟ الجنود؟ بأمر من؟ قال بأمر من الرفيق المسؤول الحزبي للفوج، فجأة فقدت السيطرة على نفسي ورحت اشتم (الرفيق) واوبخه كونه موظفا في وزارة الاعلام ويستخف بحياة هؤلاء المساكين، تركت السيارة ودخلت الى الخيمة لأجد فيها ثلاثة جنود وقد ربطت ايديهم الى الخلف وتدلّت السننتهم من العطش، اعتقدوا اني الرفيق المسؤول الذي سيأمر بإعدامهم فراحوا يتوسلون بانهم اضاعوا الطريق الى وحداتهم وليسوا بمتخاذلين، رافقني المصور لفتح ايديهم ، قلنا لهم ان يطمئنوا لاننا سنساعدهم، لم يصدقوا كلامنا في البداية حتى اقتدناهم الى السيارة وحشرناهم فيها فراحوا يشربون الماء كما الدجاج العطشى. كل هذا حدث وسط تهديد (الرفيقين) باطلاق النار علينا اذا لم نترك لهم الجنود الثلاثة، قلت لهم إذا كنتم رجالاً فاطلقوا النار علينا، لم اقل ذلك بدافع بطولي مني بل كنت متأكدا انهم لن يقدموا على عمل كهذا ولن يتجرأوا بإطلاق النار على سيارة عسكرية (لاند كروز) تابعة للتوجيه السياسي. اخذنا الجنود الى المقرات (الخدمات) الادارية الخلفية لمعالجة اوضاعهم، وبينما كنت اشرح لضابط برتبة رائد، كان معوقا، اصيب بجرح في ساقه

في احدى المعارك، وعلى هذا الاساس فهو محظوظ في نظر زملائه كونه لا يخدم في الجبهات المتقدمة، ملابسات العثور على الجنود سألني ضابط آخر برتبة ملازم ثان، وعلى وجهه ترتسم كل علامات الحقد: لماذا لم تسلموهم لفرق الاعدام لتتخلصوا منهم، كان يتحدث وكأنه يقول لماذا لم تتخلصوا من هذه الحيوانات الضالة وليس عن بشر. تأكدت عند ذاك ان غالبية لا يستهان بها من شبابنا قضوا على ايدي (رفاقهم) وبرصاص عراقي من اجل اشباع غريزة القتل المجانية.

الحادثة الثانية رواها لي ضابط احتياط، وللأسف كان يكتب الشعر وعمل في صحيفة «القادسية» فيما بعد، كنا نجلس في اتحاد الادباء ونحن نناقش ضرورة توقيع رسالة موجهة للرئيس باسم الادباء العراقيين للإعفاء عن اديب عراقي كان جنديا (ح.م) واتهم بالهروب من الجيش ويواجه عقوبة الاعدام. بينما كان الاديب العراقي يوسف نمر زياب وبتشجيع من (اديب) آخر يدعى عبد المنعم حمندي، كان بعضنا يلقيه «حمدوخ»، يمرر علينا رسالة اخرى يدعو فيها الرئيس وباسم الادباء العراقيين إعدام هذا الاديب المتخاذل «حتى لا يكون وصمة في تاريخ الادباء العراقيين»، وقد رفض غالبيتنا وضع توقيعه على هذه الرسالة بالرغم من التهديد المبطن والمعلن الذي وجهه لنا نمر زياب.

تساءلت كيف يمكن لأديب المطالبة بإعدام انسان؟! مهما يكن هذا الانسان ادبيا او غير متعلم، نعرفه او لا نعرفه؟ وهنا ابتسم صاحبنا الضابط واجابني متسائلا: تستغرب إعدام شخص وفي الجبهات يعدم كل يوم العشرات؟ وبعد ان ثمل قص علينا الحكاية الغريبة التالية، قال: كنت مسؤولا لمفرزة اعدام في القاطع الجنوبي، وبعد معارك ديزفول الشهيرة القى جنود المفرزة، وكانوا كلهم من الرفاق البعثيين، القبض على ما يقرب من ستة جنود (متخاذلين) حيث اصر النائب ضابط (رقيب) وهو

المسؤول الحزبي والامني للمفرزة على اعدامهم فورا «كي يكونوا عبرة
لغيرهم ولا تتكسر الجبهة فنخسر الحرب». كان الوقت ظهرا وكنت اشعر
بالتعب فقررت اخذ قيلولتي وقلت لنائب الضابط: دعنا نؤجل اعدامهم
الى ما بعد الظهر، فربما يتغير مزاجنا ونقرر الاعفاء عنهم.
يستمر الضابط الشاعر في حديثه قائلاً: صحت على بكاء وعويل
امرأتين، لا ادري كيف وصلتا الينا، خرجت لأرى امراة عجوزا ومعها
ابنتها الشابة تنتحبان لان ابنهما من بين الجنود الذين سيتم اعدامهم،
قبلت المرأة العجوز يدي وقالت ان ولدها الوحيد بين الذين سيتم
اعدامهم، وهذه شقيقته وطلبت مني العفو عنه وعن الاخرين، متوسلة لان
اعتبرهم مثل اخوتي، وان ابنها قد عاد لوحده توا من اجازته الشهرية
فقد ضل الطريق الى وحدته التي انتقلت في ظل ظروف القتال ولم
يتخاذل، طلبت احضار ابنها وكان فتى في التاسعة عشرة من عمره،
نحيلا، متعبا ذا وجه شاحب يدل على اصابته بفقر الدم، سألته عن سبب
نحوه فقال بانه تعب ولم ينم منذ يومين لبحثه عن وحدته التي تفرقت
بسبب الهجوم الايراني ولا احد يدري اين صار الأمر او بقية الضباط
والجنود، اشعرني هذا الجندي بالمرارة واليأس، سألته: ماذا تقول الان
اذا قررت إعدامك؟ اجاب بلهجة يائسة: وما الفرق بين اعدامي او بقائي
حيا، فنحن في الجبهة نموت مائة مرة يوميا. لا ادري من اين استجمع
هذه الشجاعة ليواجهني بهذا الاسلوب، قلت له: تتحدث معي هكذا
وحياتك بيدي، اجاب على الفور: حياتي بيد الله تعالى وليست بيدك،
كنت قد فقدت السيطرة على اعصابي، وما زاد النار اشتعالا النائب
الضابط الذي كان يقف الى جانبي وهو يقول: وتريد العفو عن هؤلاء؟
انهم لا يستحقون الحياة وهم خونة للقادسية وللسيد الرئيس.. فما كان
مني إلا ان أمر بإعدامه فورا وعلى مرأى من امه وشقيقته وبقية الجنود

(المتخاذلين) لالقي لهم محاضرة في معنى الاخلاص للوطن وللرئيس القائد، فناديت بهم: هل هذا مفهوم؟ فلم يرد احد، كررت سؤالي وانا أهدق في عيونهم، كانوا يوجهون نظراتهم لي بقوة من غير ان يردوا، ولو قالوا نعم مفهوم لكنت عفوت عنهم لكنني امام اصرارهم على الصمت امرت بإعدامهم جميعا ودخلت الى غرفتي لأواصل نومي.

احتفالات القتل الجماعية هذه كانت تحدث في العلن، وعلى مرأى من حشد من الجنود والضباط، وكانت هذه المشاهد المروعة تدفع ببعض الجنود الى التخلص من (شرف الخدمة العسكرية) بأسلوب النصف انتحار وليس الانتحار الكامل، وهو اسلوب اخترعه الجنود العراقيون تحت شعار الحاجة ام الاختراع. والنصف انتحار هذا يعني البحث عن إعاقة تعفي المعوق من الخدمة العسكرية في الجيش العراقي، فكان بعض الشباب والفتية يتعمدون فعل إعاقة بأجسادهم قبيل استدعائهم للخدمة العسكرية، كبتتر بعض اصابع اليد اليمنى بواسطة منشار الخشب الكهربائي، كما كان بعض المعوقين اصلا، امثال من له عوق في ساقه منذ الولادة، او ضعيفي البصر، بل وحتى الذين لا يتمتعون بقدرات عقلية طبيعية، مثار حسد الاخرين، كون هؤلاء لا يخدمون في الجيش حسب قوانين التجنيد العراقية، ومع ذلك تم تسويق غالبية هؤلاء للخدمة العسكرية تحت باب (سالم وغير مسلح) اي انه لا يخدم في جبهات القتال بل يتم وضعهم في المقرات الادارية للوحدات العسكرية.

اما هؤلاء الجنود الذين كانوا ينتحرون نصفيا، او الشروع بالانتحار، فكانوا يتعمدون الدوس على لغم بتار (اللغم الذي يبتر الساق فقط) اذ كانوا في جبهات القتال يميزون بين اللغم البتار او القاتل، فتبتر الساق التي ضغط بواسطتها على اللغم، او يرمي كف يده اليمنى برصاصة تشل عمل الكف ويسجل الحادث كإصابة خلال المعركة، وبذلك يعفى من

الخدمة العسكرية، لكن القيادة العراقية، وبعد ان اكتشفت ان اعدادا غير قليلة من الجنود العراقيين كانوا يصابون بألغام بتارة او برصاصات في اليد اليمنى، وتحققت من ان هؤلاء الجنود انما يتعمدون فعل ذلك، للخلاص من قسوة الحرب، عمدت لإصدار قانون يعاقب بموجبه مفتعل هذه الحالات التي سميت بـ(ايذاء النفس)، فضلا عن الاخرين الذين كانوا يصابون بنوبات عقلية او عصبية نتيجة الظروف القاسية التي لم يتمكنوا من تحملها في جبهات القتال، ومع ذلك كانت اللجان الطبية العسكرية تصر على ابقائهم في الخدمة العسكرية.

واذكر ان صديقا لي (.....) وكان خريج كلية الادارة والاقتصاد ومجنداً برتبة ضابط احتياط مشاة، راجع الشعبة النفسية في مستشفى الرشيد العسكري كونه يعاني من كآبة سوداوية بسبب ما كان يشاهده من مأسٍ في جبهات القتال، فرد عليه الطبيب المختص بأنه سوي للغاية، فمن الطبيعي ان يعاني المجند في جبهات القتال من هذه الحالات، لكنه من غير الطبيعي ان يكون الانسان سويا في مثل هذه الظروف وان لا يعاني من حالات الكآبة، ورفض التوصية بنقله من جبهات القتال الى مواقع خلفية، لكن هذا الضابط الشاب انتحر في منطقة السن الصخري في قاطع سومار وسجل انتحاره (شهادة) لعدم حرمان عائلته من الامتيازات المادية التي كانت تمنح لـ(الشهيد).

ذات يوم شتائي في أواخر شهر كانون الاول من عام 1996 حيث كان العالم كله سيحتفل بعد خمسة ايام بحلول العام الجديد وصلت الى مقر الفيلق الاول الخاص، الذي كان يقوده الفريق الركن اسماعيل تايه النعيمي، برقية من احدى الوحدات القريبة من خطوط القتال تفيد بان مجموعة من جنود صنف المخابرات وسائقي العجلات (السيارات) سيقومون بغارة على موقع ايراني متقدم وان مثل هذه العملية تحتاج

الى توثيق كون القائمين بالغارة هم جنود غير مقاتلين تطوعوا للقيام بالمهمة كي يبرهنوا انهم من الأشداء وانهم ليسوا جنباء يتحصنون وراء بدلاتهم وسياراتهم.

اوصلتني سيارة الواز العسكرية قريبا من المنطقة التي تعسكر فيها تلك الوحدة حيث لم يستطع السائق الاقتراب من الموقع بسبب ضوء القمر الذي قد ينعكس على زجاج السيارة فيرصدها الايرانيون ثم يقصفونها، وهذا غالبا ما كان يحدث. تركني في منطقة تبعد حوالي عشر او خمس عشر دقيقة مشيا بعدما وصف لي جيدا الطريق الى تل صخري تتخذه هذه الوحدة مقرا لها. كنت اضع خطواتي على ممشى ضيق داسته اقدام الجنود قبلي، فالخطأ في مثل هذه الظروف قد يوقعني في حقل ألغام، عندما وصلت كان هناك جندي يقف بكامل استعداده وتجهيزاته مثل تمثال، سألته عن أمر الوحدة فلم يُجبني، كررت عليه سؤالي، لكنه بقي صامتا حتى ادركني جندي آخر ليخبرني ان هذا الجندي لا يسمع ولا يتكلم! استغربت بقاءه كحارس في الموقع، لكن أمر الوحدة شرح لي معاناة هذا الجندي الذي كان قد فقد شقيقه في نفس المكان الذي يقف فيه نتيجة القصف المدفعي اذ كان الشقيقان يخدمان في ذات الوحدة وكان عليه ان يرافق التابوت الذي يحمل جثة شقيقه الاصغر الى بيتهم في العمارة، ومنذ ذلك الوقت صار الجميع يفاجأون بوجوده هنا بين فترة واخرى. هو لا يتحدث، لا يسمع، لا يشعر بأي شيء، وكلما اعادوه الى عائلته، او ادخلوه المستشفى يهرب الى حيث هذه الوحدة.

لقد شجع (الرئيس القائد) حفلات القسوة البيئية او العائلية دافعا الاب لقتل ولده البكر ليمنح الاب اعلى وانبل وسام عراقي، وسام الرافدين من الدرجة الاولى وامتيازات مادية، لان الاب (المخلص) قتل ابنه (الخائن) بسبب عدم التحاقه بالخدمة العسكرية، وهذا ما شجع بعد فترة قصيرة

أحد الأباء في مدينة الثورة على قتل ابنه العائد من جبهة القتال ليلاً طمعاً في الامتيازات المادية التي كانت تمنح لعائلة (الشهيد)، والقصة التي كنت قد نشرتها بنفسني في اواسط الثمانينات في صحيفة «القادسية» تتلخص في ان احدى العوائل في مدينة الثورة بلغت باستشهاد ابنها، وبالفعل تسلمت التابوت الذي كان يفترض ان يضم جثة الابن، والتعليمات كانت تحرم على اي كان فتح التابوت بل يتم دفن الشهيد مع تابوته مباشرة، وتسلم الاب الامتيازات المادية للشهيد وهي عبارة عن قطعة ارض سكنية، ومنحة مادية لبناء دار سكنية، وسيارة حديثة، ومبلغ من المال، وراتب شهري مجزٍ، الى جانب درع الشهادة الذي يمنح لعائلة الشهيد امتيازات اخرى.

بعد أقل من اربعين يوماً، عاد الشهيد ليلاً بعد ان كان قد اصيب بجرح في رأسه بمعارك (نهر جاسم) في قاطع البصرة، وفوجئ اصداقائه الذين كانوا يسهرون في مقهى الحي بعودته، فأخبرهم بإيجاز بانه كان مصاباً وفاقداً للوعي في مستشفى البصرة العسكري، وشاهد بأم عينه اللافطة السوداء التي تعزي بوفاته، وكانت ما تزال مثبتة على ركن في الرقاق المؤدي الى بيتهم، وما ان دخل البيت، حيث كان والده يتابع برامج التلفزيون فيما امه واخواته نيام فوق سطح الدار صيفا، وبعد ان قص على والده حكايته، باغته الاب بضربة فأس في رأسه ودفنه في بالوعة البيت كي لا يحرم من الامتيازات المادية التي كان قد حصل عليها. في اليوم التالي ابلغ اصداقائه الشرطة عن اختفاء الشهيد العائد، بعد ان اصر الاب على كذب ادعاءاتهم، وبعد تفتيش بالوعة تم العثور على جثة الابن. ونجد ان مثل هذه القصص الشاذة قد تكررت هنا وهناك من مدن العراق من اجل نيل رضى «الرئيس القائد» وامتيازاته المادية.

بعد سنوات قليلة من انتهاء احتفالات او مهرجانات القتل الجماعي
المعلن عزز النجل الاكبر للرئيس القائد مشاهد الدم المسفوك منذ ايام
السومريين وحتى اليوم، بقطع رؤوس النساء والصبايا الحسان، وسط
الاحياء السكنية في المدن التي كانت غارقة بالظلم الجماعي، تحت حجة
حمايته للعفة، وازهاق ارواح «العاهرات»، باعتباره وصيا على عفاف
العراقيات، اللواتي اغتصب منهن من شاء ومن طالتها يداها.
حتى اليوم اتجنب بشدة مواجهة مشهد دجاجة او خروف يذبح، وكنت
استغرب من زملائي الجنود في جبهات القتال الذين لم يمانعوا من ان
يتجولوا بين مئات من جثث الجنود العراقيين والاييرانيين، وهم يأكلون
قطعا من خبز الجيش الاسمر ليسكتوا جوعهم عقب معارك كانت تمتد
لايام طويلة، بينما كانت تصيبني نوبات من الغثيان والتقيؤ وازمات ليلية
حادة اشاهد خلالها جحافل من القتلى المقطوعي الرؤس والايادي
تمشي في طوابير نحو اتجاه مجهول في الظلام. فكيف لي اليوم ان
اكون في حماة هذا الانفصال الدموي؟ وكنت اتساءل في داخلي عن
الطاقة الخفية التي تدفع بهم لاستسهال عملية نحرنا.
ولكن استرجاعا سريعا للتاريخ المعاصر لاحتفالات القتل الجماعية
المشاعة في شوارعنا، التي كان «بابا صدام» يشرك فيها اطفال
المدارس الذين كانوا يبدأون يومهم الدراسي على ايقاع اصوات
الرصاص المنطلق من رشاشة الكلاشنيكوف كل صباح، يلخص لي ولكم
سيكولوجية سعادة القاتل لحظة الجريمة.
اتذكر انني كنت أمر بأزقة في الاحياء الشعبية في بغداد، فيفاجئني
مواء قطة صغيرة، او جرو ينبح باعلى طاقته الصوتية مستنجدا لانقاذ
حياته التي صارت رهن ايدي مجموعة من الاطفال الذين شدوا حبلا
حول رقبة القطة، او الكلب، وهم يجرجروه (يسحلوه) ليموت مشنوقا ببطء

هاتفين بأعلى اصواتهم (هيه.. هيه.. سحلناه) او يحرقون ذيله وهو حي.
ترى هل لنا ان ندرس سيكولوجية (السحل) ايضا؟ وسعادة (الجماهير)
المحتفلة بسحب (سحل) جثة القتل وتقطيعها في الشوارع؟
واتساءل عن تلك السعادة الدموية التي انبعثت في نفوس الجماهير
وهي (تسحل) جثث الامير عبد الإله، الذي كان وصيا على عرش العراق،
والباشا نوري السعيد، رئيس الوزراء الاكثر شهرة في العهد الملكي وفي
تاريخ العراق السياسي، ونجده صباح، إبان الإطاحة بالحكم الملكي في
الرابع عشر من تموز عام 1958، لتحيلها فيما بعد الى قطع متناثرة.
ولم تكتفِ الجماهير الثورية بذلك إذ سحلت حتى التماثيل البرونزية للملك
فيصل الاول والجنرال البريطاني مود وألقت بها في نهر دجلة في مشهد
لا يختلف كثيرا عن مشاهد سحل تماثيل صدام حسين يوم التاسع من
نيسان عام 2003، وقبل ايام قليلة من خروج الآلاف لملاقاته في حي
الاعظمية وسط رصافة بغداد والهدف له «بالروح.. بالدم.. نفيديك يا
صدام.»

مشاهد السحل هذه صارت جزءا من التاريخ السياسي و(النضالي)
للعراقيين، كما ان حشود الغوغاء في النجف دشنت عصر حرقتها بسحل
جثة السيد عبد المجيد الخوئي في العاشر من نيسان عام 2003، لتعبر
عن دمويتها وطاقة الشر الكامنة فيها.

ان اسلوب الاحتفالات الجماعية في القتل ليس جديدا على التاريخ
المعاصر للانسانية، وهو ليس امتيازا عربيا او عراقيا، بل امتياز
انساني، فالانكليز كانوا يهتفون سعادة خلال مشاهد إحراق من يتهم
بخروجه عن طوع كنيستهم. والفرنسيون كانوا يذهبون بكامل اناقتهم
ليحتفلوا امام المقاصل مستمتعين بمنظر الشفرة الحادة المنزقة بسرعة
ليتدحرج بعدها الرأس في سلة اصطبغت بالدم. ومحاكم التفتيش في

روما كانت هي الاخرى، وباسم الرب، تقيم احتفالاتها الجماعية لإزهاق ارواح معارضي افكار القساوسة الظلامية بطرق مبتكرة. وفي اسواق المدن الفارسية كانت الجموع من الناس تشارك طوعا بقتل من يتهم بالزندقة حتى وان كان اتهامه جاء نتيجة إنشاده قصيدة او طرح فكرة علمية، تماما على غرار محاكم التفتيش. وقبل كل هذا علينا استذكار المشهد الاحتفالي لسكان القدس وهم ينهالون بالضرب على جسد السيد المسيح وهو يجرجر صليبه صعودا الى الجلجلة ليصلب هناك. وفي تاريخنا تبرز تلك القصة المأساوية حين شارك اكثر من سبعين الف جندي لقتل الامام الحسين ومعه اقل من سبعين مقاتلا من ابناؤه وعائلته واصحابه، والتمثيل بأجسادهم، لتبتدئ بعدها مباشرة مراسم الاحتفال بسبي النساء والاطفال من كربلاء وحتى دمشق.

الصفحة التالية التي تلي احتفالات القتل الجماعية هذه، هي الشعور بالندم والبكاء والتطهير، هذه هي التراجيديا بأقصى ذروتها النبيلة. قتلوا السيد المسيح ثم عبدوه باعتباره ابن الرب، ونحروا الإمام الحسين ثم خرجوا في مواكب عزاء (يلطمون) ويشجّون رؤسهم بالسكاكين و(القامات)، ويمزقون ظهورهم بالسلاسل الحديدية.. أليست هذه هي التراجيديا في أبهى صورها؟

ترى هل سيتذكرون السيد عبد المجيد الخوئي، ذلك الإمام الشاب، إمام المحبة، والتضحية، الذي نحروه في منتصف نهار ساخن جدا، عند قبر جده الامام علي، ثم أخذوا يبكون ويضربون على صدورهم ندماً وحرناً؟ وهل ما زال تاريخنا بحاجة الى المزيد من الضحايا الذين نذبحهم لنبكي عليهم؟ هل نحن بحاجة الى دماء هؤلاء الشرفاء لتطهر ذنوبنا؟.

ظهيرة ساخنة.. جدا

كانت نظرات عينيه راسخة، تبدو وكأنها مستقرة هناك في نقطة مجهولة بالنسبة لي، نقطة لا يعرف مكانها إلا هو. نظرات توحى بأن صاحبها كان يستشعر مقتله بعد لحظات بطريقة تراجيدية تحت اشعة شمس ساخنة.

ما زلت اتذكر كل تفاصيل تلك الاحداث، وكيف لي ان انساها، و«من يستطيع ان يوقف النزيف في ذاكرة المحكوم بالإعدام قبل الموت؟» *»
اتذكر تلك الوجوه الحادة ذات النظرات الزائغة، والاصوات الزاعقة
المنادية بموتنا، ولمعان السكاكين والسيوف تحت اشعة الشمس. ما زال
صدى تلك الاصوات يتردد في اذني، واكاد اشم روائح الاجساد المتعركة
بفعل اللهاث، والخوف ايضا. تلك الصور او المشاهد، التي اخشى ان
تبقى لاصقة في ذاكرتي، تنبض ككوابيس ليلية مفزعة، فمن عاش
اللحظات الاخيرة قبيل اعدامه، ونجا بالمصادفة ليس له ان ينسى تلك
التفاصيل الفلمية، التي ستتجسد مشاهدا في ما بعد لتتجذر في
الذاكرة.

كان اللون الاسود يغلف المكان، واجهات الاسواق والبيوت موشحة
بقماش اسود يمتد لمئات الامتار. وجوه الناس تبدو بلون التراب الذي
يغسل المدينة صباح مساء بفعل العواصف التي لا تنقطع خلال الصيف
الساخن. وجوه لن تتردد عن البكاء، وهم يتحلقون رجالا ونساء حول منبر
القارئ وهو يتلو قصة مقتل الامام الحسين قبل ما يناهز من الف
واربعمائة عام.

ما يزيد عن اربعة عشر قرنا والقصة تتردد وتتفاعل تفاصيلها، بل
وتتضخم، والقارئ (الملا) لا يفتأ باحثا عن القصائد والتفاصيل التي
تزيد من شحنات الحزن والبكاء، يصف الاحداث وكأنه شاهد الاثبات او
الشاهد العيان الوحيد الذي كان يراقب الموقف عن قرب من غير ان
يسأل، أو يجرؤ على سؤال اي من المستمعين المنتشرين بلذة الحزن
والبكاء عن زبدة الحقيقة في هذه القصة التي تتلى منذ قرون بالعربية
والفارسية بأنماط واساليب مختلفة وعن الاضافات التي تزيد من

مأساويتها، وكلما امعن القارئ بضخ شحنات حزينة أكثر تأثيراً صار هو المميز بين أمثاله.

مكبرات الصوت تبعث بشحنات الالم وتحرض على النحيب مستذكرة قصة مشاهد المقتل الدامي، تلك المشاهد التي ستتكرر بعد لحظات هنا، مدشنين ما يفهمونه من عصر الحرية التي اختلقت بالسادية والانتقام المجاني. كيف لهؤلاء الرجال ان يجمعوا بين نقيضين متباعدين في آن واحد؟ بين البكاء وذرف الدموع، والضرب على الصدور حزنا وندما على حادثة مقتل امامهم قبل ما يقرب من اربعة عشر قرنا، وبين ان يستعيدوا تنفيذ الحادثة بأيديهم؟ بين الرقة ورهافة الاحاسيس واللين الذي يبعث بكل هذا الشجن والبكاء والدموع، وبين القسوة المطلقة في ذات المشهد؟. بالتأكيد لم تكن هذه الاسئلة لتتردد على ذهني ونحن تحت وابل من الرصاص الذي انهمر علينا كمطر في غير موسمه. لم اكن لأقارن بين الحنين الذي يولده الحزن الدافئ، وبين القسوة الصحراوية الجافة لحظة تقييد ايدينا وصفنا امام الجدار في انتظار تنفيذ الاعدام، لم تخطر على ذهني صورة الجفاف الذي يعقب المطر في الصحراء.

حدث كل هذا في النجف، في ذات محيط المنطقة الجغرافية التي قتل على مقربة منها، في مدينة الكوفة، الإمام علي، ابن عم الرسول محمد (ص)، والمدفون هنا في هذا المرقد، الاكثر قدسية لدى المسلمين العراقيين، الشيعة خاصة، وعلى مبعدة عشرات الاميال، في مدينة كربلاء قتل ابنه الحسين.

وفي سياق ذات الاسترجاع التاريخي اذكر ان في محيط هذه المدينة، (في الكوفة) كان الامام الحسين قد بعث قبل اربعة عشر قرنا برسوله، مسلم بن عقيل، في مهمة نسميها - بلغة اليوم - دبلوماسية، فصلى خلفه اكثر من سبعين الف مسلم دليلا على تأييدهم لمهمته، لكنهم، في اليوم

التالي غدروا به وقذفوا بجسده من السطح العالي لقلعة الحاكم بعد ان قطعوا رأسه بحد السيف.

قبل ثلاثة ايام من الاحتفال الدامي الذي هُيئ لقتلنا، كان الخوئي يقود سيارته وانا جالس بجواره، في جولة في مدينة النجف. كان اكثر من سعيد، وعواطفه ماثرة، حتى انه ربت مرتين على ساقي وهو يردد «نحن في النجف، نحن في النجف» وكأنه يريد ان يؤكد لنفسه بأنه ليس في حلم يقظة، وسرعان ما بادرني «عليك ان تتذكر اننا اول من دخل مدينة عراقية»، النجف.

قبل ان نصل الى ساحة ثورة العشرين كانت هناك حشود تتفرق تواء، لم يستطع الخوئي ان يقود سيارته بسهولة حيث كانت هناك اشلاء تمثال تشظى قبل وصولنا بعشرين دقيقة، اشلاء نحاسية تناثرت على الاسفلت، كان هذا تمثالا لصدام حسين على هيئة فارس يمتطي فرسه الجامح مثلما الريح، وكان ذلك اول تمثال لصدام حسين يتم تفجيره من قبل القوات الاميركية، في اول مدينة عراقية يتم تحريرها تماما، النجف. وكنا اول مجموعة عراقية تدخل الى الاراضي العراقية قبل تحريرها من سيطرة النظام و«فدائيي صدام»، وكنت أول صحفي عراقي يدخل من المنفى الى العراق لانقل لـ«الشرق الاوسط» تفاصيل هذه الرحلة من خلال تقارير يومية، وبذلك كانت «الشرق الاوسط» اول صحيفة عربية تصدر في الخارج تغطي أحداث الحرب من الداخل.

كانت جموع الناس غير متأكدة، قلقة، متشككة، لما يجري حولها، يسألوننا بدقة «هل انتهى صدام بالفعل؟» وعندما كنا نوكد لهم ذلك كانوا يجيبون، وكأنهم اتفقوا على صيغة السؤال والاجابة، «لكنهم قالوا لنا ذلك عام 1991 ثم تركونا ليزبحنا صدام، من يضمن لنا ان

الاميركان لن يتركونا لقوات صدام مرة ثانية؟».. كانوا محقين في ذلك، فكل عائلة فقدت اكثر من ثلاثة من ابنائها خلال انتفاضة آذار 1991 تركت السيارة لأصور اشلاء صدام النحاسية وفرسه، سألت بعض الرجال: لماذا لا تزيحون الاشلاء من الشارع؟ خذوه، هذا نحاس سينفَعكم. كانوا لا يريدون التورط بعملية تفجير التمثال، فربما سيعود صدام ونظامه وهناك من سيخبر عنهم. قال احد الشباب إن فتوى صدرت تحرّم مس اموال الدولة وهذا النحاس ملك للدولة.. ولكن عن اي دولة يتحدث هذا الشاب الورع؟.

امتدت جولتنا حتى الكوفة، درنا حول مسكن الامام ابو القاسم الخوئي، والده، توقف السيد عبد المجيد قليلا وهو يتأمل البيت الذي امضى فيه ردا من الزمن، ربما كانت تتسلل من ذاكرته الاصوات والحيوات التي كانت تنبض في هذا البيت الذي كان شاغل الناس لسنوات طويلة كونه منزل اهم واكبر مرجع ديني للشيعة في العالم، ابو القاسم الخوئي، الذي كان يحمل ألقابا اخرى مثل «استاذ الاساتذة» و«زعيم الطائفة».. خلف هذا السور، ذي اللون البني الكالح، حديقة، قال الخوئي: كان السيد الوالد يحرص على ان يربي فيها الدجاج، وفي هذا البيت كانت تقوم واحدة من اهم واكبر المكتبات العلمية والدينية. ايقنت ان روحه وبصره قد تجاوزا أسوار البيت، وراح يفتش بين غرفه وممراته بحثا عما يكون قد فلت من قبضة الماضي. التف حول السيارة بعض المارة الذين صوبوا نظراتهم نحونا كما يفعل القناص الماهر، وما ان شعر الخوئي بوجودهم حتى انقض، كمن يجفل من حلم بهي، فسارع بتشغيل المحرك لترك المكان.

عكفنا عائدين الى النجف التي لم تعد منفصلة في حدودها عن الكوفة، بل ان العمران ربط بينهما، وعندما مررنا بمسجد مسلم بن عقيل

استذكرت قصة مقتله، فخطر على بالي ان اسال الخوئي سؤالا، لا ادري لِمَ ظل يدور في رأسي، أطلقت السؤال كمن يريد ان يتخلص منه: من الذي سيضمن ان هؤلاء لن يلقوا بأجسادنا من فوق اي سطح هنا ؟

كنا نمر مسرعين برجال يتشحون بالدشاديش السوداء، ويصوبون اعينهم في وجوهنا مثل الدبق، لاحظ هو تلك النظرات الغريبة، التي كانت تضر ما لا يبشر بالخير، قال مبررا «انهم مستغربون، سيارة فارهة جديدة وسط مدينة تزدهم بالسيارات القديمة والعربات التي تجرها الحمير، وجهك وملابسك يجعلانك تبدو غريبا عن الولاية، ومن الطبيعي ان يوجهون لنا مثل هذه النظرات». كان هو يرتدي، مثلهم، دشداشة سوداء ويلف رأسه وجزءا كبيرا من وجهه بكوفية خضراء. اعدت سؤالي، الذي اراد ان يتجاهله عن قصد، من غير ان اخشى بأن يفهم ذلك كأنه تحريض على اهل ولايته، ذلك لاننا كنا في مركب واحد، ومصيرنا ذاته، ولاننا تعودنا ان لا يشك احدنا بنيات الآخر، مرت فترة صمت قبل ان يجيب عن سؤالي، ولا ادري ان كان قد فكر بالاجابة او انه اراد ان يطرد الفكرة الوسواسية من ذهنه، وقال «لماذا يفعلون ذلك بي وانا جنّت من اجلهم»؟ هل كان يسأل نفسه ام يحاول الاجابة على سؤالي؟ قلت: مثلما فعلوا بمسلم بن عقيل، ومن ثم الامام الحسين، الم يأت مسلم بن عقيل نزولا عند رغبتهم، وتبعه الحسين، لتحقيق مطالبهم وانقاذهم؟ قال «الزمن تغير، والناس تغيرت، وهؤلاء ليسوا هم من غدر بمسلم او قتل الامام الحسين، انهم اهلنا وعلينا ان نعمل على مساعدتهم مهما كلف الامر». عندما لمست ذلك الاصرار الاكيد في لهجته توقفت عن طرح اسئلتني وأجلّتها الى مناسبة اخرى. وكانت المناسبة قد جاءت، لكن ازيز الرصاص وتسارع الاحداث، لم يتيحا لنا مناقشة الامر ثانية. لكنني كنت على يقين من انه تذكر في تلك الدقائق

الدرجة، التي انتصرت فيها فوضى الغوغاء والرعاع، على منطق الايمان والدين والعقل المسالم.. كلما فلتت نظراتنا من الرصاص الماطر في فضاء الغرفة، كنت اقرأ في عينيه اعترافا بصدقية اسئلتني وربما ندما مشوبا بشعور بتحمل مسؤولية ارواحنا المرهونة الان لقبضة القتلة.

احداث هذه القصة ابتدأت عند الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الخميس المصادف العاشر من نيسان للعام 2003. امطرونا بزخات من الرصاص الساخن، كان الرصاص اللماع يرتطم بالجدار والارضية الرخامية، فيقذح شرارا، ثم يعود بهدوء ليصيب جسد احدنا فنشعر بحرارته وهو ينطفئ في جلودنا.

كنت هناك.. لقد وثقوا يدي خلف ظهري، في المرة الاولى اوقفونا عند الجدار لاعدامنا، ما زلت استمع لصوت عتلة التهيو للاطلاق في رشاشة الكلاشنيكوف تسحب من مأمناها، ولم يتبق سوى الضغط بدم بارد على الزناد، بينما كان احدهم ينادي: اقتلوهم.. اقتلوهم ماذا تنتظرون؟ قبل ان تتغير خططهم. لن انسى وجه ذلك الذي نادى اولا بقتلنا محرضا

الاخرين، كان يرتدي دشداشة سوداء وقد رفع طرفها الامامي الى حزامه الجلدي، عيناه كانتا تفيضان شرا وإصرارا غير مبرر على القتل من غير ان يعرف من هم هؤلاء الذين ينادي بقتلهم.

ربما يتهيا لكم ان ما جرى لم يستغرق سوى لحظات، ولكنه بالنسبة لي كان زمنا يعادل كل سنوات حياتي، منذ ان حبلت بي امي، وانتظرت اطلالتي للدنيا، وبكل الثواني التي ربنتني وارضعنتني وقلقت علي وحتى لحظة موتها وانا بعيد عنها، ثم حتى آخر لحظة، تلك التي اقف فيها امام الجدار في انتظار ان يضغط احدهم على زناد سلاحه ليحيلنا الى جثث هامدة، من غير ان نعرف اسمه، او نحفظ شكل وجهه، بل من غير ان يعرف هو اسماءنا، او يحفظ اشكال وجوهنا واللوان ملابسنا، وروائح

اجسادنا، ومن غير ان يطلع على تواريننا الشخصية ويحصي ذنوبنا وفعالنا الطيبة.

في تلك اللحظات الزمنية، التي قد تبدو لكم قصيرة للغاية، سرقوا سنوات عمري، وصادروا تعب امي، وحرص ابي على أن يربيني كآدمي صالح، والغوا وجود عائلتي وحببية عمري واسماء ولدي وابنتي، وتجاهلوا ذكرياتي مع اخي واخواتي واصدقائي، واللحظات العجيبة التي عشتها مع عشيقاتي، ومزقوا كل القصص والقصائد التي كتبتها بنزق عاطفتي، ومحووا ذاكرتي، واخذوا ظلي. فهل هذا زمن قصير للغاية؟

تساءلت وقتذاك، هل جننا، نحن المائتين هنا بمواجهة حشد الاشخاص المزدحمين بحيرة حولنا، بالطائرة الخاصة القادمة من واشنطن، مرورا بمطار غاتويك في اطراف لندن، وتحملنا كل عذابات هذه الرحلة الى وطن كنا نعرفه، ولملاقة شعب، كنا منه، لنواجه هذا المصير العبثي؟ هل ستصدقوني اذا قلت لكم إنني اشفقت بحزن على هؤلاء لانهم سيتحملون ذنوب دمننا، ويطهروننا من عذابات القيامة لينالوها هم وحدهم؟

نعم انا عدت من الموت لأتلو بصدق شهادتي بينما الاسئلة تستفزني، والاستنتاجات تستيقظ مثل وحش ينهش في ذهني، استعداد بهدوء المشاهد بكل تفاصيلها واستذكر دور كل واحد منا، فانتبه الى ان اكثر من شخص كان معنا وترك المكان مبكرا على أمل ان يطلب النجدة لنا، او يفعل ما بوسعه لإنقاذنا، لكن ايا منهم لم يعد، ولم يسع إلا للهروب من مصير كان مرسوما لنا. واتساءل، ايضا، هل سيتحرر هؤلاء من عقدة الذنب بعد ان قادهم خوفهم للتحرر من ذلك المصير؟ ام علي ان استسلم للاعتقاد الشعبي الذي يقول «هذا هو قدركم وعليكم ان تؤمنوا به؟»

كانت الساعة التاسعة صباحا عندما تهيأنا للصعود الى (الجلجلة)، كان
النهار مشمسا على العكس من الايام الثلاثة الماضية التي غطت المدينة
برداء من التراب الاحمر، كنت اتأمل وجه عبد المجيد الخوئي الطافح
بالسعادة والفرح وهو يمضي الى اكتشافه الاخير مستذكرا وصف
جبران خليل جبران ليسوع ابن الانسان «فأشرق وجهه كأنه الذهب
المحترق، وبسط ذراعيه وقال لنا: انظروا إلى الارض في ثوبها
السندسي وتأملوا كيف طرزت السواقي اهدابه بالفضة اللامعة. حقا ان
الارض جميلة، وكل ما عليها جميل. ولكن، وراء كل ما تنظرون ملكوت
سأحكمه وأسود فيه، فإذا شئتم ورغبتم من قلوبكم فأنتم ايضا ستذهبون
إليه معي وتحكمون معي. إن وجهي ووجوهكم لن تتقنن فيه، ولن تحمل
يدنا سيفا ولا صولجانا، وسيحبنا رعايانا وسيعيشون بسلام من غير ان
يعرفوا خوفا منا»**

* عبد الوهاب البياتي

** يسوع ابن الإنسان - جبران خليل جبران

عراق..يا عراق

كان العراق قريبا مني، بعيدا عني، كانت لا تفصلني عن بغداد، مدينتي التي ولدت وترعرعت فيها سوى ساعات عشر بواسطة السيارة من عمان. شاشة الفضائية العراقية (الرسمية في عهد صدام) تنقل احاديث صدام حسين لقواده حاثا اياهم تعليم الجنود كيف يغسلون اياديهم بعد استخدام التواليت، مستمعا لاحاديث مكرورة عن بطولاتهم في قادية صدام (الحرب العراقية الايرانية)، كان القائد منتشيا، وهو يمنح متحدثيه كل الرضا بمفردته المشهورة (عفية)، بينما شاشات العالم كله كانت مشغولة بنقل تفاصيل نقل آلاف الاطنان من المعدات العسكرية من اميركا وبريطانيا واستراليا، وآلاف المقاتلين الذين كانوا يتوافدون الى الكويت لخوض حرب اخيرة ضد صدام، حرب تحرير العراق، والبعض من الصحافيين العرب كانوا يظهرون على شاشات الفضائيات العربية منتشين، كصدام، بالنتائج والدروس التي سيلقنها «بطل التحرير القومي» للاميركان، ومتهمين ايانا بالعمالة لاننا كنا في انتظار ساعة الصفر التي ستنقذ العراق من صدام. لم يبق صحفي، كبيرا كان او

متواضعا في موهبته، إلا وتحول في تلك الايام الى محلل سياسي وعسكري في الشأن العراقي، وكانت بعض المحطات التلفزيونية تستبعد، عن عمد، الصحفيين العراقيين الذين في الخارج كي لا يتحدثوا عن الاحداث بواقعها الواضح مما يزعج المواطن العربي الذي غسلت دماغه ابواق فارغة.

في نهاية شهر شباط من العام 2003 ، حيث كانت انباء الحشود العسكرية الاميركية والبريطانية في منطقة الخليج تؤكد ان الرئيس بوش اتخذ قراره ببدء العمليات العسكرية لتحرير العراق وإزاحة صدام حسين، كان غالبية من الصحفيين والمحللين السياسيين لا يقرأون الاحداث بصورة واضحة فيتصورون ان كل هذه الارتال العسكرية هي مجرد تهديد ليس إلا! بينما كنا نحن نسمع هدير محركات الدبابات والمدرعات التي كانت تتحرك عن قرب.

كنت ابحت عن طريقة أدخل فيها الى العراق لاهداف كثيرة، قد تكون التغطية الصحفية ضمنها لكنها ليست كل شيء بالنسبة لي، فدخول العراق بعد عقد من السنوات، ومعايشة حدث رحيل او ازاحة صدام حسين من الداخل، الى جانب اني لم اكن لاتحمل مراقبة الاحداث من خلال شاشات التلفزيون ، كل هذه الامور كانت تدفعني لكون هناك، في الداخل، وليس في أي مكان آخر. كان العراق قريبا مني وبعيدا عني، ففي الحسابات الجغرافية والعاطفية كان اقرب ما يكون، وفي الحسابات المنطقية والسياسية كان بعيدا.. بعيدا جدا. كيف لي ان اصله وانا المطلوب هناك لاكثر من جهاز امني؟ لم ارتكب اية تهمة سوى انتمائي للعراق الذي كتبت فاضحا جروحه التي كان يعتملها النظام في جسده.

كنت وقتذاك في عمان امضي اجازتي مع عائلتي حين اتصل بي هاتفيا عبد المجيد الخوئي، الامين العام لمؤسسة الامام الخوئي، ليفاجئني بانه في عمان ويريد مقابلتي.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، نهاية شباط، كنا نقف معا، الخوئي وأنا، عند النافذة العريضة للجناح (605) في فندق (الفور سيزن) في الدوار الخامس بعمان الغربية، نتأمل تساقط الثلج مثل نتف من القطن، ومعه يتحول كل شيء الى بياض ماحيا كل التفاصيل اللونية للطبيعة، كان في الغرفة المجاورة فوزي الموسوي الذي كان مقربا من الخوئي. فاجأني الخوئي بسؤاله لي فيما اذا كنت ارغب بالسفر معه الى العراق. كنت، في الايام التي سبقت اتصاله المفاجئ بي، دائم الاتصال معه، باعتباره الصديق الاكثر قربا لي، فكنت افاجا بهاتفه النقال المغلق في غالب الاحيان، فاترك له رسائل صوتية كان يرد عليها فيما بعد، مرة من واشنطن، واخرى من ديترويت، ومرة من طهران او قم، او من الكويت او البحرين. ولم اكن لأسأله كعادتي عن سبب تنقلاته وجولاته المكوكية الكثيرة، سوى اننا كنا نتحدث عن آخر اخبار الوضع العراقي وتطورات الموقف.

كان سبب وجود الخوئي المفاجئ في عمان هو حضوره ندوة نظمها الأمير حسن بن طلال الذي تربطه به علاقة وثيقة، بل ان الامير حسن، والملك الحسين من قبله، كان يناديه بـ(ابن عمي)، وكان غالبا ما يلتقي بالخوئي في بيته في لندن، اضافة الى اللقاءات الرسمية التي كانت تتم في المؤسسة.

اخذت سؤاله، كالعادة، موضع الجد واجبت: نعم، قبل ان اساله: كيف؟ قال: «منذ اشهر وانا اشتغل على هذا الموضوع، رحلاتي خلال الفترة الماضية هنا وهناك كلها بسبب هذه الرحلة. ثم روى لي كيف امضى

ثلاثة ايام متتالية متنقلا من طائرة لآخرى لإنجاح ما خطط له، ألا وهو جمع عدد من شيوخ العشائر والوجهاء العراقيين المقيمين في الخارج، والمنحدرين من مدن ومحافظات وسط وجنوب العراق، ليدخلوا معه الى العراق من اجل اغاثة ومساعدة الناس هناك. وبالفعل كان هناك اكثر من مائتي عراقي يريدون الذهاب معه لكنه قسمهم على شكل مجموعات حيث تكونت المجموعة الاولى من خمسة وعشرين شخصا.

لم يشرح الخوئي طريقة الدخول الى العراق، فقد كانت الخطط تتغير دائما، بل ان هذه الرحلة كانت قد تأجلت مرات عدة، وكادت ان تلغى بسبب ان الرياح كانت تأتي بما لم تشتهه السفن في احيان كثيرة. تعودت خلال علاقتي مع الخوئي ان لا أساله عن التفاصيل، فهو لا يطرح أي مشروع قبل دراسته وانضاجه، وكنت متأكدا من انه يعني ما يقول، كما ان الحياة علمته الا يكشف الكثير من تفاصيل عمله.

عصر اليوم التالي، وبعد ان تناولنا وجبة الغداء في جناحه بالفندق، اعد علي السؤال فيما اذا كنت ارغب بمرافقته الى العراق؟ قلت له: «لقد اجبتك بالامس، نعم سأكون معك». قال: «عليك ان تفكر جيدا، اسأل عائلتك، فكر بالامر لانها ليست سفرة اعتيادية، فربما تكلفنا حياتنا». قلت: «انا معك مهما حدث». كان يعرف جيدا انني ساقول له نعم، انا معك، بل انه كان يريدني ان اكون معه.

ونحن نحتسي الشاي، ومعنا الموسوي، طلب مني الخوئي الاسراع في العودة الى لندن استعدادا للرحلة الى العراق، واتفقنا على ان اكون هناك بعد يومين، وغادر هو في اليوم التالي بالرغم من تلال الثلوج التي قطعت حركة المواصلات في عمان الغربية، بينما اجلت الثلوج موعد سفري لاكثر من اربعة ايام الى لندن في الثاني من آذار.

عدت الى لندن واتصلت بالخوئي الذي ابلغني ان موعد الرحلة قريب جدا، وطلب مني وضع مخطط مفصل لما يمكن ان نقوم به في هذه الرحلة، وكيف سنتوجه إعلاميا للعراقيين لدعوتهم إلى فتح صفحة جديدة من العلاقات الاجتماعية وعدم الاقتتال وتكرار اخطاء تجربة انتفاضة آذار 1991. وبالفعل التقينا في المؤسسة صباح اليوم التالي وناقشنا معا المخططات والخطابات الاعلامية التي وضعتها والتي كانت ستطبع او تذاع في الاذاعات المحلية وكلها تدعو على التسامح والتعاون والمحبة. بعد ثلاثة ايام، أي في السابع من آذار بُلغت من قبل الخوئي بان اكون جاهزا للسفر خلال ثمان واربعين ساعة. هل لي ان اشرح درجة انفعالي لهذا الخبر؟ وبالفعل هيأت حقيبتتي التي كان يفترض ان تكون صغيرة، كما هيأت الكمبيوتر النقال (لاب توب) وآلة تصوير ديجتال صغيرة، وكان الاتفاق ان تجري الامور بصورة سرية للغاية حتى نصل الى العراق. لكن تبليغا لاحقا في نهار اليوم التالي افسد سعادتي، إذ كان علينا ان نجتمع مساء ذلك اليوم في تمام الخامسة مساء في مؤسسة الخوئي، وهذا يعني ان هناك أمرا قد تغير بصدد موعد السفر. اجتمعنا في المؤسسة، وكانت هذه هي المرة الاولى التي التقى بها مع بقية المجموعة التي ستنتقل من لندن. كنا ثلاثة عشر شخصا، وعرفت ان هناك اثني عشر آخرين سوف يلتحقون بنا من الولايات المتحدة عندما يحين موعد السفر. ابلغنا الخوئي بأن موعد السفر قد تأجل، وانه لا يعرف الموعد الجديد، وطلب منا وضع الخطط والتصورات التي يمكن ان تنفذنا في الداخل.

كنت اقرأ في لهجته كلاما آخر غير الذي قاله في الاجتماع، فبالرغم من انه بدا متماسكا ويوحي للجميع بأن المشروع ما يزال قيد التحقيق إلا انني شعرت بانه قد ألغى وانه ليست هناك اية رحلة الى العراق.

انتهى الاجتماع، دخلت مع الخوئي الى مكتبه واغلقنا خلفنا الباب، فسألته: «هل الغي المشروع»؟ فاجاب: «لقد تم الغاء الرحلة، وليس المشروع الذي امضيت من اجله اكثر من اربعة اشهر لم ارتح خلالها ولم التقى بعائلتي بسبب كثرة رحلاتي هنا وهناك، لقد انفقت حتى الان ما يقرب من ثلثمائة وخمسين الف دولار من حسابي الخاص ولن اسمح لأحد بتدمير هذا المشروع.»

كان من المفترض ان تصل فجر اليوم التالي طائرة خاصة من واشنطن، وعلى متنها الاثني عشر عراقيا الذين كانوا ضمن المجموعة، كي تنقلنا الى قاعدة عسكرية في الكويت، ومن هناك ندخل برا الى مدينة البصرة. كنت قد عرفت هذه التفاصيل من الخوئي مباشرة بعد الاجتماع، لكن احد اطراف المعارضة العراقية، الدكتور أ.ج.، قام بتحريض السلطات الكويتية للوقوف ضد هذا المشروع الذي - حسب زعمه - «سيجلب للكويتيين مشاكل هم في غنى عنها.»

صمت الخوئي وكان محتدا في داخله، وقال: «اولاد الحلال لا يعملون ولا يقدمون شيئا للعراقيين، ولا يدعون غيرهم يعمل» وكان يعني الجهة العراقية المعارضة التي حاولت افشال المشروع، ثم اضاف قائلاً: «هل يعتقدون ان لي اهدافا سياسية منافسة لهم من وراء هذا المشروع؟ والله لا هدف لي سوى مساعدة اهلنا في الداخل.. مشروعني الاساسي هو نجاح هذه المؤسسة، ولهم ان يوفقوا سياسيا في الداخل، ولكن يبدو ان عملنا سوف يفضح تقاعسهم عن القيام بأية خدمة للعراقيين.»

ابلق الخوئي المجموعة التي كانت تنتظر في واشنطن بتأجيل موعد الرحلة، حيث كان يتوجب عليهم التوجه تلك الليلة الى المطار للمجيء الى لندن، وكان هذا الخبر قد اصابهم بخيبة امل، لكن الخوئي طمأنهم بان

المشروع سيتحقق قريباً وعليهم البقاء في واشنطن في انتظار الموعد الجديد.

كنت على يقين من ان الرحلة ستتحقق وذلك لإصرار الخوئي على تنفيذها بالرغم من انها قد الغيت تماما وتم حفظ اوراقها في الارشيف، ولانه كان يتحدث بثقة عالية، بل بعناد كبير، من يعرفه عن قرب يعرف مدى عناده واصراره على تنفيذ ما يفكر به، ولكن هذا العناد ليس مفيدا دائما .

كنا، الخوئي وانا، ما نزال في مكتبه ولم يدخل علينا اي شخص، اتصل من هاتفه الجوال بشخص ما وراح يناديه بمفردة «شيخي» و«سموكم»، كان منفعلا للغاية، تصورت انه كان يتحدث مع احد اعضاء العائلة الحاكمة في الكويت لكنني غيرت رأبي عندما قال «شيخي، تصوروا انهم اذا لم يسمحوا لنا بالدخول الى بلدنا من خلال اراضيهم فسوف يتوقف كل شيء». كان المتحدث في الطرف الآخر يطمئنه ويقترح عليه الحلول، وكنت اشعر بالدم يجري في عروق الخوئي بصورة طبيعية، وهو يهدأ تدريجيا، ثم يبتسم اخيرا، وقبل ان يغلق هاتفه الجوال قال: «شكرا شيخي سأكون عندكم غدا ان شاء الله» اجرى بعدها مكالمة تحدث فيها باللغة الانجليزية، عرفت بسهولة انها مع الجانب الاميركي، شرح لهم ملابسات اللحظات الاخيرة، ورفض ان تقوم الادارة الاميركية بالضغط على الكويتيين لاستمرار العمل وفق الخطة، وقال لهم «هناك باب آخر سأخبركم بالتفاصيل لاحقا.»

عندما اغلق هاتفه نظر الي مبتسما وقال «اذا اغلق في وجهنا باب فإن الله تعالى سيفتح ألف باب». عرفت بعدها انه كان يتحدث مع ملك البحرين الذي طلب منه مقابلته للانطلاق من الاراضي البحرينية الى العراق.

قرر الخوئي السفر فجر اليوم التالي على متن ذات الطائرة القادمة من واشنطن، التي كانت ستقلنا الى الكويت، وقال: «سأذهب لأصح ما افسده غيري، هذه الرحلة يجب ان تتم، واذا رفض الكويتيون دخولنا الى وطننا عبر اراضيهم فهناك ان شاء الله الف باب ندخل من خلاله» وغادر الخوئي فجر اليوم التالي.

عدت الى شقتي في اطراف لندن وانا اشعر في تلك الليلة بنوع من خيبة الامل، تأملت حقيقتي التي هيأتها للسفر وانا اقول لنفسي: «لو كانت الامور قد سارت حسب ما خطط لها لكنا الان في طريقنا الى العراق. والعراقيون يفهمون هذه المشاعر جيدا، ذلك انني تركت العراق قبل ثلاثة عشر عاما، وهذه اول فرصة تنهياً لي للعودة الى بلدي وخدمة ابناء شعبي من غير شعارات او خطابات او قعقعة اعلامية فارغة، لكن كل شيء بات الان مؤجلاً.»

رن هاتفي الجوال وكان المتصل الشريف علي بن الحسين، الذي اكن له الاحترام، سألني معاتبا «هل ستغادر الى العراق من غير ان تقول وداعاً؟» استغربت السؤال، فانا لم أخبر الشريف علي بالرغم من العلاقة الطيبة التي تربطني به بموضوع السفر ولا بمشروع الخوئي، فكيف عرف؟ اجبته: «عن اية سفرة تتحدث سعادة الشريف؟» قال: «سفرتكم مع السيد عبد المجيد الخوئي، يفترض ان تكون الآن في المطار»، اجبت: «انا في البيت وليست هناك اية سفرة للعراق»، قال: «يبدو ان الجماعة سافروا وتركوك» ثم توادعنا وانتهت المكالمة. كانت معلومات الشريف علي صحيحة تماما حول الموعد الاول للسفرة، ولكن بدا ان الذي اخبره بالموعد، حسين الفايز، لم يخبره بتأجيلها.

قبل الحديث حول من كان يقف وراء هذه الرحلة، ساتحدث عن وقف ضدها اولاً. كانت هناك جهة عراقية شيعية معارضة هي التي حاولت

افشال مساعي الخوئي في هذا المشروع خشية تنامي نفوذه السلمي بين شيعة العراق في الخارج والداخل، فالمعروف عن الخوئي انه لم تكن لديه أي طموحات سياسية في العراق سوى المشاريع الخيرية. كما ان ايران وقفت وبقوة ضد نجاح هذه الرحلة الى العراق، وهذا ما اوضحته الاخبار التي بثها الاعلام الايراني وقتذاك من خلال قناة «المنار» الفضائية التلفزيونية، فعندما كان الخوئي في لندن ذكرت وسائل الاعلام الايرانية أن القوات الحكومية العراقية هاجمت (قوات) الخوئي في البصرة وقتلت ثلاثمائة منهم وحاصرت الاخرين، وان الخوئي ما يزال حيا مع بقية المحاصرين حيث لم تستطع القوات البريطانية مساعدته. وكانت هذه الوسائل تؤكد في الانباء التي تبثها ان الخوئي في العراق مبعوثٌ عن الخارجية البريطانية. عندما سمعت ذلك الخبر سألته مازحا عبر الهاتف: «هل نحن ضمن المحاصرين أم مع المقتولين؟» فضحك وقال: «اطمئن أنت في لندن، وهذا يعني أنك ضمن المحاصرين معي.»

كانت هناك شخصيات عراقية معارضة، في اوروبا وايران، لم تكن هي الاخرى تتمنى نجاح رحلتنا الى العراق لاسباب تتعلق بفشل ادائهم المعارض ضد نظام صدام حسين، ولم يكونوا راغبين برؤية آخرين يقدمون شيئا ولو بسيطا للعراقيين في الداخل، وكان يغيضهم ايضا ان يصل قبلهم الى العراق أي شخص آخر، كانت مهمة هؤلاء هي التشويش علينا هنا وهناك.

بالرغم من ان الخوئي كان قد طلب منا العمل بتكتم إلا اننا كنا نفاجا بأخر أخبار الرحلة، التي كنا نتداولها في اجتماعاتنا، تتردد في مساء ذات اليوم او اليوم الثاني على السنة الاخرين في المقاهي، ووصل الامر حد ان اصدقاء لنا، مقيمين في سوريا او الاردن او اوروبا، كانوا

يتصلون بنا وهم يستفسرون عن صحة هذه الانباء، وعن موعد سفرنا الى العراق، بل كنا نقرأ تفاصيل خيالية عن الرحلة التي لم تكن قد تمت وقتذاك على صفحات بعض المواقع العراقية (الانترنت).
اما من كان قد دعم هذا المشروع، وحسبما كان يردد الخوئي، فان هناك شخصية عربية مسؤولة هي التي دعمت هذا المشروع الإغاثي الانساني، من حيث تقديم التسهيلات فيما يتعلق بالاتصالات والحركة من غير ان تقدم الدعم المادي الذي كان الخوئي قد تعهد به. ثم ان هناك نقطتين حصل حولهما الكثير من اللغط والتشويش، ولا بد من ايضاحهما، الاولى هي حقيقة الدعم الاميركي او البريطاني في إنجاز رحلتنا، والثانية تتعلق بالدعم المادي الذي قدم من قبل الادارة الاميركية لهذا المشروع.

لقد تحدث البعض واصفا الخوئي، ونحن الذين معه جميعا، بـ«العملاء» لدى الادارة الاميركية او البريطانية، وعلى حد الوصف الإيراني فإن الخوئي ذهب «مبعوثاً للنجف عن الخارجية البريطانية!». فقد سربت وسائل الاعلام الإيرانية خبراً مفاده أن آية الله السيد السيستاني، المرجع الشيعي الاعلى، رفض استقبال السيد عبد المجيد الخوئي، «المبعوث عن وزارة الخارجية البريطانية»، هذا قبل ان يغادر لندن. كما ان جهات رسمية إيرانية تعمدت وقتذاك اعادة طبع صورة الخوئي وهو برفقة توني بلير، رئيس الحكومة البريطانية، لدى زيارة الاخير لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية في لندن، وكانت تلك اول زيارة يقوم بها رئيس حكومة بريطانيا لمركز اسلامي ويتحدث من خلال منبرها عن الإسلام والسلام، وهو ما أثار حسد الكثير من المراكز الاسلامية، الشيعية والسنية، في بريطانيا. كانت الجهة الإيرانية التي اعادت طبع صورة الخوئي وهو يتمشى، مبتسماً، مع بلير مودعا اياه عند باب المؤسسة، قد ارفقتها

بتعليق كتب باللغة الفارسية يقول: «الخوئي عميل بريطانيا»، وكان واضحاً ان تلك الجهة الايرانية كانت تنتقم من آية الله، المرجع الديني الأشهر السيد «أبو القاسم الخوئي»، الذي لم يكن يؤيد سياسة الجمهورية الاسلامية الايرانية وخاصة طروحات السيد الخميني حول ولاية الفقيه، فجاءت الحملة ضد السيد عبد المجيد بمثابة الانتقام من الاب والابن، في آن واحد، لا سيما ان عبد المجيد الخوئي لم يكن على وفاق مع السياسة الايرانية بل وقف ضدها وضد تدخلها في الشأن العراقي.

كان الدور الاميركي يتلخص بتسهيل عملية دخولنا الى العراق، وبوساطة من الشخصية العربية التي دعمت مشروعنا، وكان ذلك امراً طبيعياً، فكيف لنا ان ندخل الى العراق والحرب تدور رحاها، والحدود مغلقة من كل الجهات؟ حتى وسائل الإعلام الغربية ومنظمات الاغاثة والعون الدولية كان عليها ان تحصل على موافقة قوات التحالف (الاميركية والبريطانية) مسبقاً لتكون في الداخل.

وأسأل اليوم أولئك الذين انتقدوا دعم الادارة الاميركية، ومساعدتها لنا بالدخول الى العراق، عمّن دعمهم هم وسهلّ لهم عملية دخولهم بعدنا الى الاراضي العراقية؟ وعمّن وفر لهم الحماية للتحرك هناك؟ وعمّن قلدهم مناصب قيادية في العراق؟ ألم يعتمدوا كلياً على القوات الاميركية للوصول الى الاراضي العراقية؟ ألم تكن الادارة الاميركية هي التي أقعدتهم فوق كراسي من ذهب وفضة؟

أعترف ان القوات الاميركية ساعدتنا كثيراً من اجل الوصول الى العراق بسلام، فقد كانوا يعرفون حجم الجهود التي كان سيبدلها الخوئي ومجموعته من اجل استقرار الاوضاع في المدن الشيعية، وكان ذلك لصالحهم وصالح العراقيين في الداخل في آن واحد. كما ان الادارة

لاميركية كانت على يقين من ان هذه المجموعة لا تشكل حزبا معارضا وليست لها اهداف سياسية في الداخل، وبذلك لن تثير لهم إشكالات امنية هم في غنى عنها.

أما موضوع الدعم المادي، فطالما أكد الخوئي، لي شخصيا، وأمام الآخرين من أعضاء المجموعة، أنه هو من تحمل تكاليف هذه الرحلة ومن حسابه الشخصي، وأفاجأ اليوم بمن يسألني إن كان الخوئي قد تسلم ثلاثة او عشرة، وحتى ثلاثة عشر مليون دولار، من الاميركان، لدى دخولنا العراق؟ واجد أن من الامانة ان اكتب الحقيقة التي اعرفها، فقد كنت من الملازمين للخوئي في تلك الرحلة، كنا ننام تحت خيمة او سقف غرفة واحدة، وكان يتحدث لي عن كل شيء، وقد اكد لي أكثر من مرة انه تحمل تكاليف هذه الرحلة من حسابه الخاص، ولم نر أية ملايين من الدولارات. فأين كان يخبئها ونحن ننام في الصحراء مرة، وفي معسكرات هي عبارة عن خيام عادية مرة اخرى؟ ومبلغ عشرة، او ثلاثة ملايين دولار، نقداً، كان بحاجة الى من يحمله له او يخزنه او يخبئه! وحقيبة ملابس الخوئي كانت بين حقائبنا مفتوحة باستمرار، وكان كل من يطلب منه علبة سكاثر او أي شيء اخر يقول له: «افتح حقيبتني وخذ ما تريد»، ولم نسمع بموضوع الملايين من الدولارات إلا في لندن، وهو جزء من حملة منظمة أطلقتها بعض الاصوات المريضة لتشويه المشروع او سمعة الخوئي. أما ما تسرب من انباء فيما بعد قالت إن الادارة الاميركية كانت قد رصدت ثلاثة عشر مليون دولار لهذا المشروع فذلك محض افتراء، والدليل ان بعض الاشخاص من مجموعتنا وجدوا فرصتهم للمزايدة وإظهار نواياهم الحقيقية للاستفادة من الرحلة وتنصيب انفسهم بموقع الخوئي، بعد مقتله، حيث طلبوا من الاميركان في النجف البقاء والاستمرار في العمل بأهداف جديدة، وطمعا في

اموال كانوا يعتقدون بوجودها، فما كان من الاميركان إلا الاعتذار قائلين: «إن هذا هو مشروع الخوئي وهو من تكلف به، وبالصرف عليه، وليس عندنا الامكانيات المادية لاستمراره، فمن يريد البقاء لخدمة بلده وشعبه فذلك شأنه، لكننا لا نتحمل اية تكاليف، ربما سنساعده ببعض الامكانيات المادية البسيطة عندما نتأكد من نجاح عمله» فرفض هؤلاء البقاء تحت حجة ان استمرارهم في العمل يحتاج الى اموال طائلة. ثم اني اتصلت هاتفيا من لندن ب(ديفيد)، الذي كان يرافقنا من الادارة الاميركية في الرحلة، بعد اشاعة اخبار الملايين من الدولارات، وكان ديفيد الذي لقبناه بـ«ابو علي» وقتذاك في مطار بغداد، وسألته عن الانباء التي تتحدث عن الثلاثة عشر مليون دولار التي كانت مرصودة لرحلتنا الى العراق، ضحك وقال: «لا اعتقد ان وقتنا يسمح الآن بالمزاح» قلت له: «انا لا امزح واحتاج لمعلوماتك عن هذا الموضوع كي أنشرها في جريدة «الشرق الاوسط»..» فأكد انه لم يسلم الخوئي اية اموال، «ولو كانت هناك اية اموال من الادارة الاميركية مخصصة لهذا المشروع لكنت انا اول من يعرف بها وبتفاصيلها، ولكانت قد وصلت عن طريقي، فنحن اوقفنا المشروع لعدم وجود ميزانية له من الخزينة الاميركية، وتعرف انت اننا لم نستطع تعويضك عن الخمسة الاف دولار التي سرقت منك خلال حادث مقتل الخوئي».. واختتم حديثه بسخرية مرة قائلاً «ارجوك اذا عثرت على اي مليون دولار من الاموال الاميركية اخبرني.»

نعود الى الخوئي الذي كان قد عاد من رحلته، بعد ثلاثة ايام، مستبشرا بنجاح مساعيه، اتصل بي فور عودته واخبرني ان كل شيء على ما يرام واننا في انتظار موعد قريب آخر للدخول الى العراق. كنا، نحن مجموعة بريطانیا، او لندن، نجتمع مساء كل يوم مع الخوئي في المؤسسة للتباحث في الافكار والمقترحات والسليبيات والمشاكل التي يمكن ان

تواجهنا في الداخل. وكانت المجموعة قد قسمت حسب المدن التي ينحدر منها كل شخص، وكان كل افراد المجموعة من الشيعة باستثنائي، فقد كنت السنني الوحيد بينهم، وغالبا ما كان الخوئي يذكرهم بذلك، ويقول لهم ان المستشار الاعلامي لهذا المشروع هو سنني، وعلمت ان أكثر من واحد قد عاتب الخوئي على اختياره لسنني بينهم، فما كان من الخوئي إلا ان يقول علنا «ان مشروعنا ينصب حول دعوة العراقيين الى التسامح وإلغاء التفكير الطائفي وانتم تلوموني لانني اخترت سنيا بيننا، فكيف سنتعامل في الداخل مع السنة او المسيحيين او الصابئة؟».»

كان هناك من يتحدث بلغة منطقية عن الصعوبات التي يمكن ان تواجهنا وكيفية معالجتها، وكان في المقابل من يببالغ في الحديث المشحون بالعواطف وانه سيذهب ليقود كذا عشيرة من غير ان يترك اي هامش للخطأ او للخوف، مطالباً بمستلزمات لانجاح مشروعه، مئات آلاف الدولارات ليوزعها على الناس، سيارات حديثة، فريق حماية ورواتب، هواتف ثريا، وكان الخوئي لا يعد بشيء، بل على العكس كان يقول «علينا ان نتصرف بامكانيات بسيطة». الاغرب من ذلك كان هناك من يحول لهجته الى الهتاف بانه مع الخوئي حتى الموت وانه يفديه بحياته، وكما كانت هذه اللهجة تخرج الخوئي وتدفعه الى الطلب منهم ان لا يكرروها وانه مجرد شخص مثلهم والكل في ذات المستوى.

ذات مساء طلب الشيخ حازم الشعلان من الخوئي ان يشكل حركة او حزبا سياسيا ليكون لنا دور سياسي في العراق بعد تحريره من نظام صدام، والبعض طالب بمنصب حكومي كان يراه انه من حقه، لكن الخوئي رفض ذلك بشدة وقال «انا ذاهب في مشروع اغاثي ولا علاقة لي بالسياسة ومن يريد ان يعمل في السياسة فله ذلك ولكن ليس معي، مشروعني في العراق محدد، سأبقى هناك ليس اكثر من تسعين يوما

واعود الى عملي في المؤسسة». لكننا فوجئنا بعد ثلاثة ايام من اجتماعاتنا بانهم كتبوا وثيقة مبايعة وعهد للخوئي وبانهم سيبقون معه حتى الموت وسيضحون بحياتهم من أجله، وحملت الوثيقة تواقيعهم. كنت اجلس الى جانب الخوئي عندما وصلتة الوثيقة، قرأها بامعان ثم طواها ووضعها في جيبه، بعد الاجتماع دخلنا، هو وانا، الى مكتبه وقال «تعرف هذه الوثيقة ذكرتني بما كان العراقيون يقدموه لصدام من بيعات مكتوبة بالدم، انا لست صدام ولا اريد ان اشتغل بهذه الطريقة، كل ما احتاجه هو ان يخلصوا في خدمتهم لأهلهم» سألته: «هل تعتقد انهم سيخلصون لك او لمهتهم؟» تأمل قبل ان يجيب «لا استطيع ان اجزم في ذلك الان». لكن الاحداث كشفت عن الحقيقة فيما بعد، إذ لم يتبق مع الخوئي في اللحظات الصعبة عندما بدأ الهجوم الغوغائي علينا سوى اثنين، وتبخر الباقون بطريقة عجيبة.

بدأت العمليات العسكرية ضد العراق، وكنت اشعر كانني محبوس هنا في قمقم، كلما سألت الخوئي عن موعد رحلتنا يجيب «قريبا ان شاء الله»، ولا ادري ان كان هو يعرف بالموعد الجديد ام لا . وعرفت ان هناك مجموعة اخرى ضمن مشروعنا كانت قد تسللت الى العراق من مدن الجوار ومزودة بهواتف ترتبط بالاقمار الصناعية، وكان هؤلاء يرفدون الخوئي بأخر التطورات في داخل العراق، وخاصة في مدن الوسط والجنوب.

المسافات اقرب مما كنا نعتقد

في الساعة الواحدة من ظهر يوم السادس والعشرين من آذار تبلغت بان موعد السفر بعد اثنتي عشرة ساعة من الان، اي عند منتصف الليل، كان هذا التبليغ بمثابة المفتاح الذي سيفتح بوابة العراق المغلقة امامنا. لكن تبليغا لاحقا جاء عبر هاتفي الجوال في تمام الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة من مساء ذات اليوم، وكنت حينها اشترى حذاء رياضيا يساعديني في مهمتي المقبلة، من احد محلات شارع اكسفورد وسط لندن، يعلمني بان الرحلة قد تأجلت مرة اخرى من غير ذكر اية تفاصيل عن اسباب التأجيل او ذكر الموعد الجديد للرحلة. شعرت بالانقباض، فالموعد الاول كان قد تأجل لما يقرب من ثلاثة اسابيع، وها هي الرحلة تتأجل مرة اخرى لموعد غير محدد. شعرت ان موجة دافقة من الدم قد ضغطت على رأسي، تحول الشارع الصاخب المزدهم بالمتسوقين والمارة الى علبة وانا محاصر في داخلها. هاتفت الخوئي لاستفسر عن حقيقة الامر، وكانت نبراتي تفصح استيائي بالرغم من محاولتي لان ابدو طبيعيا في الحديث معه، لكن رهافته وحساسيته جعلته يكتشف ما بداخلي من قلق على موعد الرحلة، فبادرني قائلاً «انت ابن حلال، انا بصدد الاتصال بك الان لأسئلك عن اسم الجهاز المخبراتي الذي كان صدام قد انشأه بعد انقلاب تموز 1968» فاجبته على الفور بانه جهاز «حنين»، شكرني وقال «بالمناسبة موعد الرحلة تأجل لأربع وعشرين ساعة، الموعد الجديد سيكون منتصف ليلة الغد ان شاء الله» وكان كمن سكب الماء على الحرائق التي بدأت تشتعل في داخلي، ابتسمت وقلت: «شكرا». عندها عاد شارع

اكسفورد الى اتساعه الحقيقي، وشعرت انني اتحرر من العلبة الضيقة التي كانت قد قيدتني قبل قليل.

كان هناك اثني عشر عراقيا يرتشفون الشاي في منزل الخوئي شمال لندن قبل ان التحق بهم بعد منتصف ليلة السابع والعشرين من آذار. صف الحقائق وأكياس زرقاء اسميتها المظلات (البارشوتات) عندما وقع نظري عليها، والاصوات المتداخلة ورائحة القهوة الممتزجة برائحة الدخان، هي اول ما استقبلني عند مدخل البيت، اما هذه الاكياس الزرقاء فقد كانت تحتوي على اسيرة نوم سفريّة، ربما سنحتاج اليها مستقبلا، وقد احتجناها بشدة فيما بعد، حيث لم يترك الخوئي اية تفاصيل ومهما كانت صغيرة الا وفكر بها.

لم يكن أي منا يعرف الوجهة التي سنذهب اليها، فكل ما نعرفه هو اننا سندخل الى البصرة عن طريق الكويت، لكننا فوجئنا في تلك الليلة بان طريقنا الى العراق قد تغيرت خارطته. وعندما سأل احد اعضاء المجموعة عن الطريق الذي سنصل خلاله الى بلدنا، اجاب الخوئي «هذه التفاصيل غير مهمة، نحن نريد الوصول الى بيتنا واهلنا، واذا اغلق بوجهنا باب فهناك ابواب اخرى فتحت امامنا، ولن يمنعنا احد من الوصول الى بلدنا، اتركوا التفكير بهذه التفاصيل، كيف سنذهب، وبأية طائرة، ومن أي مطار.. المهم اننا سنكون في العراق.»

امضينا الليلة، بعد ان تناولنا وجبة لا ادري ان كانت عشاء متأخراً، ام فطورا مبكرا، نتحدث ونشرب الشاي، وبعد صلاة الفجر، قرأ علينا الخوئي بعض آيات المصحف الكريم، ودعا للجميع بالتوفيق، وصعدنا الى الباص، وتوجهنا على بركة الله الى مطار «لوتن» خارج لندن. بعد وصولنا الى المطار وانتظارنا لاكثر من ساعة الطائرة التي ستأتي من واشنطن وهي تقل بقية المجموعة القادمة من الولايات المتحدة، علمنا

ان الضباب حال دون هبوطها وان علينا التوجه الى مطار «غاتويك»،
فالطائرة حطت هناك وهي في انتظارنا منذ ساعة.
حتى ذلك الوقت لم نكن نعرف الى اية جهة نحن ماضون، كان البعض
يخمن بصوت مسموع فيبتسم الخوئي من غير ان يقول شيئاً بهذا
الصدد، لقد تعلم من الدرس السابق عندما تسربت تفاصيل الرحلة قبل
بدئها، ما ادى الى فشلها وتأخير مواعدها، الان سيتأكد بانه لن يخبر اي
شخص قبل صعودنا الى الطائرة حيث لن تتبقى اية فرصة للإخبار عن
المكان الذي سنذهب اليه.

كان الضباب والازدحام شديدين عندما تركنا مطار «لوتن» ونحن نتوجه
الى مطار «غاتويك»، فالمعروف ان حركة المرور في ساعات الصباح
المبكر تكون بطيئة في لندن وما حولها، كان السيد فوزي الموسوي هو
الذي يقود الباص وكان حاذقا بالدروب القصيرة واختصار المسافات،
لكن ذلك لم يمنع من ان نتأخر في الوصول الى «غاتويك». بالطبع لم
نذهب الى صالة المطار والتفتيش وفحص الجوازات، فهذه رحلة خاصة،
توقف الباص قرب بوابة صغيرة بعيدة عن صالة المطار، كان هناك من
ينتظرنا، وقد جهزوا القهوة وبعض البسكويت لنا. بعد اجراءات سريعة
توجهنا الى الطائرة، وكانت طائرة خاصة ومترفة المقاعد (درجة اولى).
قبل ان نرتقي سلم الطائرة اخبرنا الخوئي الى الوجهة التي سنمضي
اليها.

الطريق الى دلمون

هدير محركات انواع من مختلف الطائرات ما يزال يدور في رأسي، بدءاً بهدير الطائرة الخاصة التي كانت قد اقلتنا من مطار «غاتويك»، ومروراً بطائرات الشحن العسكرية العملاقة، وليس انتهاءً بطائرات الهليكوبتر المتعددة الاغراض.

اكثر من ستة انواع من الطائرات تعاقبت على اوصولنا الى الاراضي العراقية، وربما اكون قد ارتكبت خطأ عندما اغفلت معرفة وتسجيل انواع هذه الطائرات واجيالها وامتيازاتها.. طائرات كنت قد شاهدت مثيلاتها في الافلام السينمائية الحربية او خلال الاخبار عن الحرب الاميركية على العراق، وما كنت لاتصور بأني سأصعد يوماً على متن إحداها.

كنت قد سافرت كثيرا، بالطبع، بواسطة طائرات نقل المسافرين الاعتيادية، ولن انسى انني اقممت مرارا في نوعين من طائرات الهليكوبتر التابعة لطيران الجيش العراقي خلال الحرب العراقية الايرانية عندما كانت تحتدم المعارك فأنقل فجأة كمراسل حربي، استطيع ان اميز واحدة مترفة منها وهي (الغزال) الفرنسية الصنع والتي لا تتسع إلا لأربعة اشخاص بضمنهم الطيار .

الطائرة الخاصة التي كان يفترض ان تقلنا الى ارض الوطن كانت تبدو مترفة من الخارج، وهي كذلك، كنا نتصور ان يتم نقلنا بطائرة عسكرية معتمة اللون، لكن هذه طائرة بيضاء، ليس عليها أي شعار يوحي بعائديتها لاية شركة طيران معروفة، فهي طائرة للأجرة (تكسي)، مثلما كان مدونا في داخلها وعلى لوائح الأمان وتعليمات النجاة.

كان من المقرر ان يبقى اسم المسؤول العربي الذي دعم الخوئي في مشروعه الاغاثي والانساني، واسم الدولة التي استضافتنا، والتي اتجهنا منها الى الاراضي العراقية، قيد الكتمان، بل وسريا للغاية، وان لا نذكر اسم المسؤول او تلك الدولة. وقد شدد الخوئي علينا ان لا نذكر حتى لعوائلنا ولأي من كان اننا مررنا من هنا.

هناك سألت الخوئي: «الى متى سيبقى هذا السر قيد الكتمان؟» اجاب «لا تتصرف مع هذا الموضوع بإحساس الصحفي الذي يجب ان يقول ويوثق كل شيء، اعرف انك لا بد ستبوح بهذا السر يوما ما، وسيكون لك ذلك»، سألت: «متى؟» اجاب: «عندما نعود الى لندن» وكان يعني عندما تنتهي مهمتنا، قلت: «هل هذا اتفاق؟» قال: «نعم.»

وكان اتفاق الأمين العام لمؤسسة الامام الخوئي معنا في لندن، وقبل سفرنا باسبوعين، انه ملتزم معنا بالعمل في هذا المشروع الاغاثي لثلاثة اشهر، بعدها سيعود الى عمله في المؤسسة في لندن، ومن يريد ان

يبقى في العراق فذلك شأنه، ومن يريد العودة قبل ذلك، او أي وقت يشاء فسوف يوفر له طريقا للعودة بذات الطريقة التي سافرنا بها، ولم نوقع في البداية على اية عقود او شروط، فالعمل مع الخوئي لا يحتاج الى اية عقود او ابرام اتفاقيات، كانت كلمته اهم من اي اتفاق او عقد، لكننا، وعلى متن الطائرة الخاصة التي اقلتنا من مطار «غاتويك» فوجئنا باصرار الخوئي على ان نوقع عقود العمل معه لثلاثة اشهر مع توقيع شهادات التأمين على حياتنا، وقال وقتذاك «لقد عملت ذلك لضمان حقوقكم وحياتكم وحقوق عوائلكم، فانا اليوم معكم، وغدا لا أحد يعرف، قد اموت او يحدث اي شيء لأي منكم، هذه العقود تضمن لكم الحقوق في وجودي وغيابي»، ولا ادري ماذا حل بتلك العقود اليوم، فقد وعدنا مايك، الموظف الاميركي الذي رافقنا، بانه سيزودنا بنسخ عن تلك العقود وشهادات التأمين على الحياة، لكنه للأسف لم يفعل، ولا تتوفر اي نسخ منها في مؤسسة الامام الخوئي في لندن. والادارة الاميركية وفقا لقسائم التأمين على الحياة مطالبة بتعويضات خاصة لعوائل الخوئي والياسري وابو عمار، ومن ثم حميد التميمي والشيخ صلاح بلال وأنا. كنت اتوقع من مؤسسة الامام الخوئي ان تبادر بدفع جزء من التعويضات لعائلتي الياسري وابو عمار في الاقل، ثم تدفع للتميمي وبلال ولي، خاصة اننا، التميمي وانا، فقدنا ما وزع علينا في البحرين لاحقا، خمسة آلاف دولار اميركي، لكن هذا للأسف لم يحدث. كان بيننا من له طموحات سياسية يريد تحقيقها في العراق بعد رحيل صدام، وبرزهم حازم الشعلان الذي كان واضحا في رؤيته، دقيقا في خطته، على عكس ما فعله الآخرون بإطلاق الهتافات والشعارات الكاذبة الذين لم يحققوا اي شيء. وقد طلب الشعلان من الخوئي في لندن، وبصورة مباشرة، ان يؤسس حركة سياسية ندخل باسمها الى العراق

لكن الخوئي اجابه بانه صاحب مشروع انساني لا سياسي، وهو رجل دين، والسياسة تتعارض مع الدين «إما ان اكون رجل دين او رجل سياسة، وانا اخترت الاول.»

من الظريف ان اذكر هنا اننا كنا نجلس، الخوئي وحسن بحر العلوم، اكثر الاصدقاء وفاء والتصاقا للخوئي، وانا، في مكتبه في المؤسسة قبل رحلتنا ذات مساء، وسألته عن عدد الذين تطوعوا للعمل في المشروع الاغاثي، قال «هناك الكثير من المتطوعين ولكن هل سيأتون كلهم عندما تحين ساعة الحقيقة؟» قلت: «ماذا تعني؟» اجاب: «سوف نسمع العديد من الاعتذارات»، ثم سحب ورقة وراح يدون عليها بخط يده وقال «ماذا تتوقعون صيغة الاعتذارات التي سنسمعها من الذين تطوعوا لاغراض الاستعراض الشخصي وهم يعتقدون ان المشروع لن يتحقق وبالتالي سيقولون نحن تطوعنا والمشروع لم يتحقق» قال حسن بحر العلوم بينما الخوئي يكتب: «اول عذر ان احدهم سيقول ان زوجتي ستطلب الطلاق اذا ذهبت الان للعراق»، وبدأنا باقتراح الاعتذارات التي سنسمعها فخرجنا بقائمة فاجئني بها الخوئي ونحن في النجف عندما اخرجها من حقيبته وقال «هل تتذكر هذه القائمة؟» قرأناها ثانية ونحن غير مستغربين ان تتطابق توقعاتنا مع الاعتذارات التي سمعناها فيما بعد من الاخرين، ومنها: «زوجتي هدت بطلب الطلاق اذا ذهبت الآن الى العراق»، «ابني مرض فجأة ولا يستطيع تركه»، «سادخل المستشفى الاسبوع المقبل لاجراء عملية جراحية»، «سأكون معكم في الوجة الثانية»، «عندي سفرة الى بعض الدول الاوربية...» وهكذا، حتى ان احدهم لم يتوان عن اخباري بعد عودتنا من العراق، فقال لي: «كنت اعرف ما سيجري لكم، لهذا لم أت معكم.»

نعود الى موضوع الشخصية العربية التي دعمتنا في تلك الرحلة، الان وقد عدنا الى لندن، وقد انتهى المشروع، اجد نفسي، وحسب اتفاقنا، الخوئي وانا، في حل من كتمان السر، وان لي الحق في الكشف عن اسم المسؤل العربي ودولته التي مررنا من خلالها الى العراق. البعض كان يعتقد باننا مررنا من خلال الكويت، وآخرون توقعوا الاردن، وهناك من اعتقد ان سوريا هي من سهل لنا المرور، او تركيا عبر كردستان العراق، وليس هناك بالطبع من وضع ايران على القائمة بسبب موقفها المعادي للخوئي اولا وللمشروع ثانيا.. هنا سأجيب عن كل هذه الاسئلة.

في مطار «غاتويك»، وبعد ان تم تفتيش حقائبنا في ركن من اركان المطار، وليس في اقسام مغادرة المسافرين العاديين، وقبل ان نرتقي سلم الطائرة، سبقنا الخوئي ووقف في منتصف السلم وقال «هل تريدون ان تعرفوا الى اين نحن ذاهبون؟ حسنا، الى البحرين». كان لذلك السر وقع المفاجأة على الاخرين، الذين كانوا على يقين باننا سنذهب الى الكويت باعتبارها الاقرب الى الاراضي العراقية، وان القوات الاميركية اتجهت من اراضيها نحو العراق. ثم انه ليس هناك ما كان يمنع دخولنا الى بلدنا من خلال الكويت المؤيدة للحرب والمعادية لنظام صدام. بل كنا نتوقع كل الدعم والمساعدة من الكويتيين لمشروعنا الانساني من جهة، ولاننا ضد نظام صدام من جهة ثانية.

أما انا الذي كنت على اطلاع، ومن الخوئي مباشرة، على تفاصيل الرحلة، وكنت اعرف ان تأجيل تنفيذ مشروعنا، ووصوله الى حافة الإلغاء، كان بسبب عدم موافقة السلطات الكويتية على مرورنا من خلال اراضيهم الى العراق، فقد كنت اتصور ان الخوئي، وخلال سفرته

الاخيرة والسريعة للكويت، اقنع الكويتيين بمشروعنا وانهم سمحوا لنا بالمرور عبر اراضيهم، لكنه اخبرني فيما بعد بانه كان قد اتجه الى دولة عربية اخرى لطلب المساعدة بتوفير محطة لنا نصل من خلالها الى العراق وتوقعت ان هذه الدولة هي الاردن.

وعندما اسقط بيد الخوئي وادرك ان مشروعه على حافة الانهيار بسبب عدم وجود منفذ لنا الى العراق، استعان بالشخصية العربية التي كانت قد ساعدته منذ البداية لانقاذ المشروع، وكانت هذه الشخصية الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، ملك البحرين، الذي فتح لنا اراضيه لتكون لنا الجسر الذي ينقلنا الى بلدنا.

نعم كنت اعرف اننا سنمضي الى العراق من خلال ارض عربية هي غير الكويت، لكنني لم اكن اتصور ان هذه الارض هي البحرين، لبعدها عن العراق اولاً، ولان لا طريق برياً يربط بينها وبين اية مدينة عراقية، لكن ملك البحرين كان قد رتب مع الخوئي كل شيء من اجل انجاح مشروعنا الانساني.

على متن الطائرة الخاصة استقبلنا مايك، وهو شاب اميركي، وموظف في القوات الاميركية، والمكلف بالوقوف على طلباتنا، وساكتشف فيما بعد كم هو دمث الاخلاق وصبور في تحمل طلبات البعض منا. وسيشكل مايك الصامت على الدوام الوجود الاميركي الوحيد بيننا، كما تعرفنا على زملائنا القادمين من الولايات المتحدة. اتخذنا مقاعدنا، وقبيل الساعة الواحدة ظهراً بدأت الطائرة بالاقلاع. وبينما كنت اراقب لندن وهي تتحول الى خطوط ومربعات من خلال النافذة، استسلمت للنوم، حيث لم اكن قد نمت خلال اليومين الاخيرين سوى اربع ساعات. كان لكل منا طموحه في هذه الرحلة، واذا كانت للبعض منا طموحات سياسية وجد الان الفرصة المناسبة لتحقيقها، فقد كنت شخصياً اريد

معايشة حدث التخلص من نظام صدام حسين من الداخل، ذلك النظام الذي لم نكن لنتخيل الطريقة التي سينزاح بها من فوق صدور العراقيين، وكانه قدرنا الأزلي.

حتى الحشود العسكرية الاميركية والبريطانية العملاقة كان هناك شكوك لدى غالبية من العراقيين بإمكانياتها لازاحة ذلك النظام الذي بالغ في قسوته ففاق الخيال.

قرب مقصورة قيادة الطائرة كانت هناك مقصورة اخرى احتلتها ثلاثة من الاميركان بملابس مدنية، اذ لم يكن احد يرتدي الملابس العسكرية، هؤلاء منتدبون من الادارة الاميركية، وزعوا علينا وثائق التأمين على الحياة وكل وثيقة بمبلغ مائة الف دولار وكان علينا قراءتها وكتابة اسماء الاشخاص الذين نوصي باستفادتهم منها وعناوينهم في حالة تعرضنا للقتل او للاصابة بجروح، مع وثيقة اخرى هي بمثابة عقد عمل مع السيد عبد المجيد الخوئي لثلاثة أشهر، وقد وقعنا الوثائق التي كان من المفترض ان يزودونا بنسخ منها في البحرين لكننا لم نتسلم تلك النسخ وهكذا ضاعت حقوق عوائل الخوئي وماهر الياسري وجلال الزيايدي (ابو عمار).
عندما فتحت عيني كان المساء يخيم في الخارج، ووجدت ان الخوئي استلقى على المقعد المجاور لي، اخرجت دفتر ملاحظاتي الصغير من جيبتي ودونت ما يلي «هل الوطن مجرد قصيدة في اشعار الجواهري او السياب او البياتي او مظفر النواب؟ ام هو صورة سياحية متخيلة او محفوظة في ذاكرتنا نستعيدها كلما اشتقنا اليه؟ ام هو اغنية تنساب بصوت ناظم الغزالي او كاظم الساهر او في مقامات فريدة؟ ام هو لوحة من اعمال فائق حسن او منحوتة اعتنى بها جواد سليم؟ ام انه رواية من روايات غائب طعمة فرمان او فؤاد التكرلي؟»

لا ادري لماذا افكر الان بمعنى الوطن وانا انتظر مع الاخرين موعد وصولنا اليه بعد كل هذه السنوات. الم تتحول بريطانيا التي استقبلتنا ومنحتنا الأمان الى وطن؟ الم يقل الامام علي قبل اكثر من خمسة عشر قرنا ان خير البلاد من آواك وآمنك، وان الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن؟ لم يكن يعني باي حال من الاحوال الغنى المادي بل غنى الروح والافكار.

مرت في ذهني صور فلمية عن أولئك الملايين الذين نزحوا من العراق منذ بدء فصول الذبح المجاني والدم التي دشنها الضباط الاحرار عندما اخترقوا حرمة العائلة المالكة وذبحوها صباح يوم صيفي قائن عند مدخل مسكنها في قصر الرحاب في حي الحارثية الراقي بجانب الكرخ من بغداد، فصار كل ضابط، يحلم بان يكون رئيسا، يصعد على ظهر دبابته ويتجه نحو قصر الحكم ليغير النظام بقوة السلاح من غير وضع اي اعتبار للشعب الذي يتحدثون باسمه، ويبيدونه في ساحات الاعدام والانقلابات والحروب تحت حجة رعاية المصالح الوطنية والقومية، ثم ماذا بقي لنا من وطننا العراق؟ واي وطن هذا تجردنا حكومته من الانتماء اليه وتسحب اوراقنا الثبوتية في اية لحظة تريد، وطن تتهمك شرطته السرية بالخيانة والارتداد والتجسس عندما تشتم حواسم الظلامية ميولك للتححرر من ابسط القيود، وطن حولته الانظمة الشمولية والعسكرتارية الى سجن كبير، ومن ثم نكتشف انه صار سراً مقبرة جماعية هائلة؟

مرت صور العراقيين المهاجرين عبر المضائق الجغرافية من خلال البسفور في تركيا، او الغابات السوداء التي تربط الاراضي التشيكية بالمانيا، وزوارق الموت المجاني وهي تتحطم بين امواج البحار والمحيطات مخلفة مئات من الغرقى الاطفال والنساء والرجال وهم يحلمون بالعبور الى استراليا. قصص الهجرات الجماعية التي نعجز اليوم عن تدوينها

والتي فتحت امام تجار الموت مهنة جديدة لجني الارباح على حساب مصادرة ارواح العراقيين الهاربين من جحيم وطنهم، بينما تغلق الدول العربية بوابات حدودها امام مواطنينا، فلا المشاعر القومية الزائفة التي تهرأت في الشعارات والخطابات السياسية المجانية، ولا مبادئ الدين الاسلامي التي يتقنع بها بعض المسؤولين، انقذت حشود التائهين بين خرائط المعمورة، حيث قادت خطى بعضهم الى الاراضي المتجمدة في اقاصي فنلندا، فماذا تعني العروبة اذن؟ ومتى تترجم مبادئ الدين؟ ولماذا يلومنا العرب اليوم عندما يعبر العراقيون عن افكارهم مطالبين العرب والمسلمين بعدم التدخل بالشأن العراقي؟ ولماذا لم يتدخلوا لانقاذهم من حمامات الدم طوال ما يقرب من اربعة عقود من القتل الجماعي والاضطهاد والذل المنظم، والذي كان المسؤولون العرب يصفونه بالشأن العراقي الداخلي، وها هو اليوم شأن عربي اسلامي؟.

اتساءل اليوم ونحن نعود الى وطن شوهته ممارسات بولغ في قسوتها وشعب ضغطته ماكنة الظلم الجماعي فغيرت من تقاليده ومسخت الكثير من علاماته الفارقة.. نعود بعد عقود من النفي من غير ان نعرف باية لغة سنتفاهم مع عراقيي الداخل الذين شوه صدام صياغتهم خلال خمسة وثلاثين عاما من الحروب والقسوة والحرمان.

هل سنجد اهلنا مثلما هم، مثلما تركناهم، ام ان الظلم والاضطهاد غيرا من انسانيتهم وجعلاهم يتشبهون بالظالم؟ كان غالبية الاصدقاء المقربين قد حاولوا جهدهم إثنائي عن المشاركة في هذه الرحلة من غير ان يقنعوني بالاسباب سوى القول «ليس هذا الوقت المناسب» مع اني وجدته الوقت المناسب جدا لكون هناك في العراق.

افكر اليوم واتساءل: ترى ما الذي دفع بذلك الشاب العراقي الذي ظهر على شاشات الفضائيات لحظة دخول القوات الاميركية الى بغداد لان

يهتف قائلاً «انا اليوم اصبحت اميركيا» ولم يقل اني استعدت اليوم عراقيتي، ان لم يقل عروبتتي؟.

على مدى سنوات طويلة ونحن في اوروبا، او في بعض الدول العربية، نتحدث للاصدقاء ونكتب عن قسوة نظام صدام حسين، فلا يكاد يصدقنا احد، هناك من كان يقول لنا «انتم تبالغون لانكم ضد الرجل (صدام)»، نتحدث عن سجون سرية تحت الارض فيقولون: هذا غير معقول.. ن خبرهم عن إعدامات بالمجان ومقابر جماعية تضم نساء واطفالا وشبانا، فيسخرّون من «خيالنا». وها هي الحقائق التي تتكشف اليوم والتي تفوق ما كنا نقوله حتى قبل شهر من كشف هذه الحقائق بعد هزيمة النظام السابق، واستغرب من وقاحة بعض الاعلاميين العرب الذين ما زالوا يوغلون في ايلام واهانة العراقيين عن طريق التمسك بنظام صدام بحجة وقوفهم ضد الاحتلال الاميركي والبريطاني.

ذات مرة اخبرني صدام كامل، ابن عم صدام حسين وصهره، خلال وجوده في عمان التي هرب اليها مع شقيقه حسين كامل عام 1996، بانهم اذا ما عادو الى العراق فسوف يثرمهم صدام بماكنة ثرم اللحم. كان حسين كامل وقتذاك يفكر جديا بالعودة الى العراق. اعتبرت كلام صدام كامل مبالغة، لكنه اكد لي ان هناك ماكنة لثرم البشر وهي تشبه في فكرتها ماكنة خلط الاسمنت.. عندما كتبت من عمان، وعن لسان صدام كامل عن تلك الماكنة، لصحيفة «الشرق الاوسط» التي كنت اعمل مراسلا لها من الاردن، لم يصدقني الدكتور (س. ذ) المحرر الذي كان مسؤولا عن عمل مكتب عمان، وقال لي هاتفيا «يا استاذ حرام عليك، افهم انت معارض لصدام وضد الرجل، لكن ان تكون عنده ماكنة لثرم البشر فهذا كثير، اتريد ان يضحك علينا القراء؟» ورفض نشر الموضوع.

بعد ايام من سقوط نظام صدام تم الكشف عن ماكنة لثرم البشر في دائرة الاستخبارات العسكرية في الكاظمية بجانب الكرخ من بغداد. قبل ان نهبط بأقل من عشرين دقيقة شدد علينا الخوئي بعدم إخبار الاهل او أي شخص عبر الهاتف باننا في البحرين، وقال اخبروهم اننا في الخليج وحسب اذا تطلب الامر ذلك، ويفضل ان لا نتحدثوا عن الامكنة التي سنكون فيها حتى ندخل العراق. بدأت الطائرة تهبط تدريجيا من ارتفاع خمسة وثلاثين الف قدم الى مستويات قريبة من الارض، فجأة تكشفت ومن خلال نوافذها انوارا بدت وسط ظلمة الصحراء مثل ثريا كبيرة وزاهية، تلك هي البحرين اذن، وها هو الجزء الاول من الرحلة قد اوشك على البداية.

الباب الأولى

لم نهبط في المنامة كما تخيل البعض، كما لم يهياً لنا فندق ذو خمس او اربع نجوم، بل ولا نجمة واحدة. كنا قد هبطنا في الصحراء، او هذا ما بدا لي لحظة نزولنا من الطائرة، لم تكن هناك اية بناية او منشأة تدل على وجود مدينة، كانت الصحراء تحيط بنا من كل جانب، ولم يكن هناك أي من المستقبلين يتحدث العربية، وهذا يعني ببساطة اننا هبطنا في قاعدة عسكرية اميركية، او قاعدة بحرينية تقيم فيها القوات الاميركية. حتى تلك اللحظات كنا نتصور ان مكان اقامتنا سيكون في بناية او دار استراحة تتوفر فيه مستلزمات الراحة، لكن الباص الذي كان يقوده جندي اميركي طويل القامة ويضع نظارة طبية كان قد قادنا الى مجموعة من الخيام، خيام متقابلة يفصلها خطان متوازيان. نزلنا مع حقائبنا قرب هذه الخيام، قادتنا مجندة اميركية الى خيمتين متقابلتين في آخر الصف، كانت كل خيمة تتسع لخمس عشرة سريرا، وبدا ان الخيمتين قد وضعتا تواءً لاستقبالنا، وفي داخل كل منهما كان هناك صفان من الاسرة المتقابلة والتي فرشت حديثا، بل ان الافرشة كانت ما تزال مغلقة في اكياس البلاستيك.

تم ارشادنا الى مواقع الحمامات والتدخين، وحددت مساحة حركتنا ما بين خيامنا والحمامات مرورا بموقع التدخين، ولم تكن المساحة المتاحة لحركتنا تزيد عن مائتي مترا طولا وعشرة امتار عرضا.

وزع علينا العشاء في علب كارتونية، وسيكون هذا الطعام الذي اعترض عليه بعضنا، فاخرا للغاية بمقارنته بطعام المارينز الذي سنتناوله فيما بعد وفي مواقع أخرى.

صباح اليوم التالي اكتشفنا ان البحر على مبعده خمسمائة متر منا، لكن هناك حواجز تمنع الوصول اليه، بل تحجب رؤيته بسهولة، كما ان جدارا كونكريتيا عاليا كان يحدنا من اليمين، ويقف باستمرار ثلاثة من الجنود، او المجندات، الذين لا تزيد اعمارهم عن العشرين او الثانية والعشرين عاما، بالقرب منا، لا ندري ان كانوا هناك من اجل حراستنا او الاحتراس منا، وسرعان ما تحول هؤلاء الى اصدقاء لنا نتبادل الاحاديث معهم ونعلمهم بعض المفردات العربية.

كانت الحمامات نظيفة للغاية، وكان يحق لنا اخذ (الشاور) في أي وقت نشاء، وعندما لاحظوا اختلاطنا ببقية الجنود والضباط عند نقطة التدخين وفي الحمامات وهي مناسبة كانت لتداول الاحاديث وتوجيه الاسئلة التي تشبع فضول البعض منا، تم وضع نقطة تدخين وطاولات وكراسي في المساحة الفاصلة بين الخيمتين اللتين نتخذ منهما سكنا لنا، كما لاحظت اننا كلما ذهبنا الى الحمامات وجدناها خالية من الاميركان ما يعني انهم حددوا لهم وقتا معيننا لاستخدام الحمامات والتي صار مسموحا لنا بالذهاب اليها بعد الساعة العاشرة صباحا، وبهذه الطريقة تم عزلنا عن الاخرين باستثناء من كان مكلفا بحراستنا او مراقبتنا في المساحة المحدودة التي خصصت لنا.

كنا نمضي غالبية الوقت بالطبع بالاحاديث ومتابعة الاخبار، إما عبر التلفزيون الذي جلب خصيصا لنا، او الراديو، وكان مايك ينقل لنا آخر الانباء في جبهات القتال وقبل ان تتم اذاعتها.

كانت ايامنا متشابهة في هذه القاعدة، ولا جديد فيها، كنت امضي غالبية الوقت اما في طباعة بعض الافكار والاحداث على الكمبيوتر (لاب توب) او متحدثا مع هذا وذاك، ان لم اكن اعرف من بين المجموعة

وعن قرب إلا الخوئي والخفاجي، وكان علي ان اكتشف الاخرين الذين سأعمل معهم قريباً.

كان هناك شاب مبادر، يخدم الاخرين من غير ان يطلب منه ذلك، مرح باستمرار، ويتحدث الانكليزية بلهجة اميركية، ذلك هو ماهر الياسري، وآخر كان لاعبا لكرة القدم في المنتخب العراقي ويقيم حالياً في الولايات المتحدة، ذلك هو (ابو ظافر)، أما (ابو عمار) فقد كان نموذجاً للرجل الريفى بطباعه الطيبة وإخلاصه، ولم تؤثر الحضارة الاميركية على اخلاقه.

لا استطيع ان اتحدث عن الجميع، فقد كان بيننا شاعر شعبي ظريف، كما كان هناك شيوخ عشائر ووجهاء، وهؤلاء من الصعب اختراقهم، وكان بيننا المزعج والكذاب والانتهازي والدعي الذين لم نُطق وجودهم بيننا. كنت اعجب للطاقة التي يتمتع بها الخوئي في تحمل كل هؤلاء ومجاملتهم من غير ان يتعب او يمل، وعندما كنت أسأله عن موهبته هذه كان يجيب مبتسماً «اذا اردت ان تخدم الناس فلا بد ان تكون كذلك، هؤلاء هم ناسك وأهلك.»

يقولون ان رفقة السفر هي التي تكشف عن نفوس الاخرين، وفي هذه السفارة الاستثنائية بكل المقاييس اكتشفت الخوئي بصورة اخرى، كان صبوراً، ذا طاقة عجيبة في تحمل المتاعب والاحتفاظ بابتسامة مرسومة على وجهه رغم كل شيء، حتى اني كنت افاجأ به في الصباحات المبكرة وهو يجمع بعض القمامة او اعقاب السجائر التي يصر البعض على رميها على الارض وليس في المكان المخصص لها، بالرغم من وجود من هو مسؤول عن ذلك، وعندما كنت ابدي استغرابي كان يقول: «هذا شيء بسيط يجب ان نبقي مكاننا نظيفاً، وجمع القمامة لن يجعلك تبدو صغيراً في مقامك امام الاخرين.»

لم نكن نعرف الى متى سنبقى في تلك القاعدة، ايام تشابه بعضها، ولا شيء حقيقياً نفعله سوى تكرار الاحاديث والاكل وشرب الشاي والقهوة، واحتدام النقاشات في بعض الاحيان، وكان علينا ان لا نقع في مطب الملل او الشعور بالضجر.

لا لون حولنا سوى الخاكي، باستثناءنا، حتى انا كنت ارتدي سروالا خاكيا قصيرا وفانيلة (تي شيرت) خاكية، واضعا على رأسي قبعة كنت قد اشتريتها في اليوم الاخير قبل مغادرتي لندن بينما كان يرتدي غالبيتنا دشاديش بيضاء وسوداء وسراويل الجينز والقمصان الملونة. أأحالي المشهد الخاكي الى كراج ساحة النهضة في جانب الرصافة من بغداد وهو واحد من اكبر كراجين للباصات والسيارات الصغيرة الخاصة بنقل المسافرين، الاول في جانب الكرخ (كراج علاوي الحلة) والثاني في الرصافة (النهضة)، كان الوقت اواسط شهر آب من عام 1980، كانت الباصات تنطلق الى جنوب وشرق العراق محملة بالجنود، حتى ان الكراج بدا وكأنه ارتدى البدلة الخاكية.

الجنود يتوافدون من كل مكان من بغداد وضواحيها ليتجهوا رغما عنهم الى مواقع متباعدة في خرائط جبهات الحرب التي ستشتعل رحاها في كل شبر من جبهات الحدود الشرقية بعد شهر (بدايات شهر ايلول من ذلك العام) ولتبقى ماكنتها تبتلع ما يقرب من مليوني انسان عراقي وايراني على مدى ثماني سنوات، ولا ادري اية مفارقة جعلت هذه الحرب تنتهي في ذات الشهر الذي ابتدأت به تقريبا وان يختار ليوم نهايتها تاريخ مميز عدديا، وهو 8 - 8 - 1988.

كنت كالأخرين ذاهبا الى نقطة مجهولة في جغرافية مبهمة، الباصات شحيحة في مثل هذه المناسبات وسواقها يساومون الجنود للحصول على اجرة اعلى مما هو مقرر، كان الجنود الفتيان والذين بلغوا الثامنة عشرة

تواً يفضحهم اضطرابهم ودموعهم وهم يحملون حقائبهم وامهاتهم
تودعهم بالدعاء والبكاء، بينما الجنود الذين في العشرينات والثلاثينات
من اعمارهم تفضحهم الاسئلة المرتبكة المرتسمة فوق وجوههم، اسئلة لا
اجابة عنها عن فصل جديد لم يألوا مشاهده، ذلك هو فصل الحرب
الذي سيدشن حياتنا الان، وبالمحصلة كان الجميع يدرك بانه ليس ذاهبا
في نزهة او سفرة قصيرة.

كانت اصوات باعة الصحف والسكائر وسندويشات البيض المقلي
والمسلوق والفلافل المحشوة بالصمون المغمس (بالعمبة) الصفراء
وشحرجات محركات الباصات وزعيق المنبهات العالية تختلط مع اصوات
الناس، ومع صراخ مذيع راديو بغداد وهو يتلو البيانات العسكرية
المدبجة بشتائم منتقاة ضد «الفرس المجوس» ليأتي بعدها فصل
الاناشيد الحماسية «احنا مشينا للحرب»، «شمس احنا شمس للي
يحبنا شمس ودرس احنا درس للي يصدنا درس»، «الله واكبر للنصر
خطواتنا» و«هسة يجي بابا البطل متخيل الدبابة»، كل هذه الاصوات
المحرضة على الدم الذي سينزف بغزارة كانت تشكل خلفية موسيقية
للمشهد العام.

عناوين الصحف كانت هي الاخرى حمراء بلون الدم تستفز عيون المارة
بلغتها العسكرية الجديدة على حياتنا اليومية وكذلك بحجم صورة
«الرئيس القائد» بالزي العسكري وهو يحتل الواجهة اليمنى من صدر
الصفحات الاولى «حدودنا الشرقية ستتحول الى براكين من نار لتبتلع
الاعداء (صحيفة الجمهورية)، «صقورنا البواسل يطاردون غربان الشر
ويسقطون ثلاث طائرات معادية فوق خانقين» (صحيفة الثورة). بينما
تزخر الصفحات الداخلية بقصائد الشعراء واعمدة الكتاب الذين لم
يجربوا الحروب سوى ما كانوا قد شاهدوه في الافلام التي انتجت عن

الحربين العالميتين او عن الحرب الاميركية ضد فيتنام، كانت تلك القصائد والمقالات تتحدث عن الورد البرية التي تؤثت جبهات القتال التي ما زاروها بعد، وقصص عن الحبيبات اللواتي يثبتن وريدا حمراء فوق البدلة الخاكية للحبيب المتجه الى الجبهة.

انتعشت وقتذاك، وبقيت تلك الانتعاشة سارية الى سنوات مرتبطة بانتعاش سيطرة صدام حسين على السلطة في العراق، قصيدة الشعر الشعبي، وبالاحرى القصيدة الهزيلة للشعر الشعبي، اذ لا يمكن ان نسمي ما كان يقال ويكتب من قبل المداحين الرخيصين بالشعر الشعبي ونجمه في سلة واحدة مع قصائد الشاعر مظفر النواب مثلا. كانت تذاق وتبث يوميا العشرات من تلك القصائد التي تحولت الى سلعة انتعش «شعراؤها» بسبب ذلك ماديا وحياتيا حتى فاقت بانتعاشتها القصائد الفصحى التي كان بعض شعرائها ينافسون في مدحهم لصدام وانجازاته شعراء القصائد الشعبية.

لم يكن لدى الجميع ادنى تصور عن الجغرافية الجديدة التي ستطأها اقدامهم ولا المدة التي ستستغرقها رحلتهم، التي أحرقت ثمانى سنوات من اعمارنا واعمار اولادنا ومن تقدمنا، بل لم نتخيل انها ستحرق كل شيء وستبقى نيرانا مشتعلة لسنوات اخرى.

كان هناك حدس جماعي عن ان البلد كله، بتاريخه وجغرافيته وبمكوناته البشرية والمادية، سائر باتجاه الحرب. كم مرة مشينا الى الحرب؟ وكم مرة سنمشي بذات الطريق؟ كانت حروب الحكومات مع الاكراد (حرب الشمال) مستمرة منذ ان وعينا الدنيا، كادت ان تشتعل حرب حدود مع الكويت في نقطة الصامته الحدودية، وكانت هناك (القضية المركزية لحزب البعث) الحرب ضد اسرائيل، شماعة بعض القادة العرب لاضطهاد شعوبهم منذ اكثر من نصف قرن. كانت هناك ثمة حروب

داخلية يومية ضد الشيوعيين، وضد الشيعة، وضد السنة، وضد الشباب الذين يطلقون شعورهم، وضد العشاق، وضد كل ما هو حياتي. اذكر جيدا، وفي لجة اسئلة الناس وتوقعاتهم المبهمة عما يحدث وعما سيحدث، ظهر عزة الدوري نائب صدام على شاشة التلفزيون وطلب من العراقيين الصبر لأن هذه الحرب قد تطول اسبوعين او ثلاثة وربما شهرا او شهرين، فعم شعور من الكآبة الجماعية، كيف لحرب ان تطول شهرين؟ وكم من الشباب ستأكل؟.

حدس الحرب القادمة لم يأت نتيجة قراءة طالع او منجم بل ان العراقيين تشاءموا منذ ان اقحم صدام حسين نفسه في مهنة الجنرالات وارتدى البدلة العسكرية مزينا أياها بأعلى رتب الجيش العراقي (مهيب ركن) التي لم يجرؤ اي ضابط عسكري من قبله استولى على الحكم ان يغتصبها هكذا، ذلك ان عبد الكريم قاسم رئيس اول حكومة جمهورية كان ضابطا متدرجا في رتبته حتى بلغ رتبة عقيد او زعيم (عميد) فيما بعد، والاخوان عبد السلام وعبد الرحمن عارف كانا يحملان رتبة مشير التي كانت تعد اعلى رتبة في الجيوش العربية، ثم حمل احمد حسن البكر رتبة (مهيب) من غير ان يزينها بشارة الاركان الحمراء.

شن المهيب صدام حسين وبأسلوب عصابات المافيا حربا جديدة ضد كبار ضباط الجيش العراقي وصفى كل من شعر بأنه منافس له، او قد يهدد وضعه الجديد، ووزع بسخاء رتبا عسكرية على اعوانه بطريقة اهان فيها العسكرية العراقية، وكان افضل مثال على ذلك منحه اعلى ثاني رتبة في الجيش العراقي (فريق أول) لصهره العريف (رقيب) حسين كامل، محرما تلك الرتبة على من يستحقها من كبار ضباط الجيش العراقي مثل الفريق الركن اسماعيل تايه النعيمي الذي كان عدنان خير الله يؤدي له التحية العسكرية وهو وزير للدفاع كون النعيمي كان معلما

لعدنان في الكلية العسكرية، ومع ذلك فقد حرمت عليه رتبة (فريق أول ركن) بينما كان قائداً للجيش الثالث ومن ثم أسس الفيلق الأول الخاص الذي كان محور عملياته حماية العراق في القاطع الأوسط من ساحة الحرب.

دخلت الى الخيمة التي كان فيها سرير الخوئي يحتل مكانه ما قبل السرير الاخير من الصف الايسر الى جانب اسرة الاخرين، كان الخوئي جالسا فوق سريره يراقب الاخبار من خلال التلفزيون، احدى القنوات الفضائية العربية كانت تنقل مشاهد من مظاهرات المواطنين في البحرين ضد الحرب وضد دخول القوات الاميركية للاراضي العراقية، وكانت الجماهير التي يشكل الشيعة غالبيتها العظمى ترفع شعارات ضد الدول الخليجية التي تقدم العون للقوات الاميركية في حربها ضد العراق. من المعروف ان غالبية شيعة البحرين كانوا من مقلدي (اتباع) آية الله السيد «ابو القاسم الخوئي» وها هم يتظاهرون ضد الاميركان الذين يستضيفوننا في معسكرهم وبيننا نجل امامهم. سألت الخوئي «ماذا سيحدث لو اكتشف هؤلاء الشيعة المتظاهرون ان نجل امامهم الان هو بضيافة الاميركان وعلى مبعدة اميال من تلك المظاهرات؟» ضحك وقال: «سنقول لهم لقد اسرونا ونحن معتقلون لديهم»، كان ذلك احد اسباب التشدد الامني حول وجودنا في القاعدة وعدم اخبار اي كان عن مكاننا وقتذاك.

كانت قوات التحالف تتقدم من الاراضي الكويتية باتجاه المدن العراقية من غير ان نسمع عن تحرير كامل لاية مدينة، وكان القصف الجوي والصاروخي يدك بغداد، ونحن في انتظار تحرير اية مدينة لننتقل اليها. كانت الخطط الاولى تقضي بدخولنا البصرة اولاً، ثم تغيرت واصبحت محاور مدينة السماوة هي المرشحة، لكن سرعان ما جاءت الاخبار

للتحدث عن قرب تحرير مدينة النجف ثم الناصرية. لم تكن تعينني اية مدينة اولاً، بل تحررنا من هذا الحجز الممل، كنت اشعر بانني محتجز بالرغم من (الدلال) والاهتمام الذي كان الاميركان يوفرونه لنا ريثما نغادر القاعدة. ولم نلاحظ ولو لدقيقة واحدة شعورهم بالضجر منا، بل كانوا يبتسمون باستمرار، وطيبين للغاية، كلهم، جنوداً وضباطاً، ومجندين. وبالمناسبة فانه من الصعب ان تميز في القوات الاميركية بين جندي وضابط، فلكل منهم واجباته التي يؤديها على اكمل وجه من غير صراخ او اصدار اوامر. ومن الصعب ان نقارن بين اسلوب الجيش الاميركي واساليب الجيش العراقي الذي امضيت نحو عشر سنوات من عمري مجنداً فيه.

بعد اربعة ايام من وصولنا الى القاعدة اقتربت منا سيارتان شيفروليه (سوبربان) جديدتان لم تحملان بعد اية ارقام، هبط من الاولى شخص اميركي، كان طويلاً بعض الشيء ونحيفاً للغاية، يضع نظارة شمسية ويرتدي فانيلا (تي شيرت) زرقاء ذات خطوط صفراء، وله شارب خفيف، عرفنا الخوئي عليه باسم (ابو توام) كان يتحدث اللغة العربية بصعوبة مستخدماً اللهجة الفلسطينية، كان يعمل في القدس قبل ان يعمل في الشأن العراقي في الخارجية الاميركية، وسنعرف بانه سيكون المسؤول عن مرافقتنا الى الاراضي العراقية، بينما هبط من السيارة الثانية ثلاثة شبان من قوات المارينز، في ذات اليوم. تناولنا طعام غداء مختلفاً عن بقية الايام إذ قدموا لنا الرز العربي واللحم، وهي اكلة خليجية تدعى (الكبسة)، اخبرونا بأن هاتين السيارتين لنا وستكونان معنا لمساعدتنا في اداء مهماتنا الانسانية في الاراضي العراقية، وبعد وجبة الغداء (الدسمة) تلك وزع علينا مايك الهواتف المرتبطة بالاقمار الصناعية، عند ذاك ادركت ان موعد رحيلنا الى العراق صار قريباً جداً.

في الليل تضيع كل التفاصيل

لم نكن نعرف حتى تلك الليلة، التي سبقت مغادرتنا للقاعدة العسكرية، اية تفاصيل عن المكان الذي سنغادر اليه، وهل سنغادر برا ام جوا، استبعدت سيناريو الطريق البري، ذلك ان الوصول للعراق من البحرين برا سيتطلب وقتا طويلا، كما سيتعين علينا المرور بالاراضي السعودية، وهذا امر صعب للغاية، وقبل ان نذهب الى النوم قال الخوئي مختتما نقاشاتنا وتوقعاتنا عن الرحلة «لا تقلقوا حول التفاصيل، اتركوها الان، المهم اننا سندخل الى العراق ان شاء الله» من غير ان يقول متى وكيف او من سيكون اول الداخلين، كان (ابو توام)، واسمه الحقيقي ديفيد، قد اختار سريرا في ذات الخيمة التي ينام فيها الخوئي وكان بإمكانه ان يختار النوم في مكان آخر اكثر رفاهية من الخيمة لكن الخوئي فضل النوم معنا باعتباره جزءا منا وغير مفضل عنا، بل كان يفضل الجميع على نفسه ويلبي طلبات الاخرين من غير ان تكون له اية طلبات. في تلك الليلة تقلبت كثيرا في سريري قبل ان اخلد للنوم، كنت افكر بايجاد اجوبة عن الاسئلة حول الرحلة المقبلة، وكان جل ما يشغلني هو هل ساكون ضمن الوجبة الاولى ام...؟

كان يجب اختيار خمسة اشخاص من بيننا لمرافقة الخوئي، من غير ان نعرف الى اين، ولاننا توقعنا بان الوجبة الاولى ستتجه الى السماوة او بادية السماوة، فقد قدرنا ان يكون الاشخاص المتحدرون من تلك المدينة هم من سيذهب اولاً، وهذا يعني حرمانني من السفر في هذه الوجبة،

ولكنني كنت غير محسوب على اية مدينة وان كان الخوئي يفضل زهابي الى البصرة كوني اتحدر منها، لكنني كنت اريد تسجيل الوقائع الاولى، اللحظات الاولى لدخول العراق، وبذلك نكون اول العراقيين القادمين من المنفى الى العراق.

لم يتم الاعلان عن الاسماء حتى مساء اليوم التالي الذي تقررت فيه مغادرة المجموعة الاولى الى الاراضي العراقية، كان البعض قد بدأ بتهيئة حقائبه استعدادا للرحيل من غير ان أبلغ انا بالمشاركة في هذه المجموعة، وهذا ما اقلقني كثيرا. بعد ان احتسينا الشاي عصرا نقلت رغبتي هذه للخوئي وسالته فيما اذا كنت ضمن هذه المجموعة ام لا؟ اجابني قائلاً «لم نحدد الاسماء بعد» بالرغم من انه كان قد حدد من سيذهب معه وأبلغ القوات الاميركية بأسماء المجموعة الاولى قبل ليلة. وقبل موعد السفر بثلاث ساعات حوَصر بأسئلة من باقي افراد المجموعة عن سيكون معه فابتسم وقال «لا اريد ان اذكر الاسماء بحضور معد» وعندما سالته عن السبب ابتسم مجددا وقال «لأنك ضمن هذه الوجبة الى جانب كل من: عبد الحسن الخفاجي، وماهر الياسري وجلال الزيادي والشيخ حازم الشعلان». قابلته بابتسامة عريضة تعبيراً عن سعادتي لاختياري ضمن من سيرافقه في هذه الرحلة، قال «هل تعتقد بانني ساتركك وارحل لوحدي الى العراق؟ سنكون معاً ان شاء الله خلال كل تفاصيل هذه الرحلة». سُعدت حقاً بتلك المشاعر وذلك الخبر، ورحت اشد حقيبي متهيئاً لدخول الاراضي العراقية بعد عقد من السنوات. قبل ان يزف موعد رحيلنا بما يشبه جلسة وداعية تبادلنا خلالها الاحاديث واستمعنا لبعض القصائد الشعبية، عند الساعة الحادية عشر ليلاً، كنا نحن الستة على اهبة الاستعداد للمغادرة، اجبرنا على ارتداء الدروع الواقية من الرصاص، وجهزنا بالملابس الواقية من الاسلحة

الكيماوية، اذ كان هناك اعتقاد كبير بان صدام سوف يأمر القوات العراقية باستخدام الاسلحة الكيماوية في فصل من فصول القتال. وضعنا حقائبنا ومعداتنا في احدى السيارتين اللتين خصصتا لنا، ونقلتنا السيارة الاخرى الى مطار القاعدة، كانت هناك طائرتان ضخمتان عسكريتان مخصصتان للنقل تابعتان للقوات الاميركية، هدير محركيهما يمزق سكون الليل الصحراوي ويكون خلفية صوتية مناسبة للحدث، تستعدان لنقلنا الى الاراضي العراقية، حملت احدهما احدى السيارتين وصناديق الطعام والمياه، وصعدنا نحن في الطائرة الثانية مع السيارة الاخرى ومجموعة كبيرة من مشاة البحرية الاميركية (المارينز). كانت هذه هي المرة الاولى التي نصعد فيها الى طائرة من هذا النوع حيث مقاعدها مصنوعة من شبكة بلاستيكية غير مريحة. لم نكن نعرف الى اية مدينة سنذهب، وفي أي مطار سنهبط، وكانت الطائرة من الداخل تبدو وكأنها ورشة عمل وضجيجها يصم الاذان بالرغم من اننا وضعنا في اذاننا قطعاً اسفنجية مانعة للضجيج.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما حلت الطائرة الخالية من النوافذ، وكان الجنود الاميركان في داخلها يتحدثون بلغة الاشارات فيما بينهم، تذكرت انواع الطائرات المدنية المترفة التي كنت اسافر عليها بين مطارات العالم، وتلك الاشارات التي تؤديها المضيفات وهن يرشدن المسافرين الى علامات السلامة برفقة التعليق الصوتي الصادر من مكبرات صوت مخفية، وهي اشارات تختلف كلية عن هذه التي تصدر عن جنود يرتدون بدلات مبالغ فيها ويحملون معدات حربية ثقيلة.

فكرت فيما اذا انطلق في لحظة ما من زمن هذه الرحلة صاروخ ارض - جو طائش من قبل القوات العراقية واصاب هذه الطائرة وبعثر كل احلامنا ومشاريعنا الخيرية الذاهبين من اجلها الى العراق، وضحكت

في سري لما كان سيقوله محمد سعيد الصحاف وزير اعلام نظام صدام متباهيا امام الصحفيين منتشياً بالنصر الذي حققته قواتهم بإسقاط طائرة نقل عسكرية، وتخيلت هيئته الكوميديية واسلوبه الفكاهي وهو يتحدث مزهوا امام الصحافيين خاصة عندما يتحدث بانكليزية فجأة، ولغة عربية اكثر فجاجة.

كان من الصعب علي الاسترخاء والنوم فوق المقاعد البلاستيكية، وكنت بحاجة شديدة للنوم ولو لساعة واحدة، تسللت الى السيارة ذات المقاعد المريحة لأنال قسطا من النوم هناك، وسرعان ما تبعني الخوئي ومن ثم بقية افراد المجموعة وكانهم تنبهوا توا لوجود السيارة معنا، او انهم كانوا يعتقدون انه غير مسموح لنا بصعود السيارة طالما الطائرة ما تزال تحلق في الجو، وعندما اكتشفوا ان لا احد يعترض على صعودي اليها تسللوا اليها لينعموا باغفاءة عميقة.

صحونا عندما تحركت السيارة لتغادر الطائرة التي كانت قد هبطت توا، وعندما قاد الجندي الاميركي السيارة الى مدرج المطار اكتشفت الظلمة الحالكة التي تخيم على المكان مثل عباءة سوداء قاتمة.

نبدأ بأول مدن التاريخ..أور

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية فجرا بعشر دقائق، ولم نستطع ان نتبين المكان الذي هبطنا فيه، كما ان احدا لم يخبرنا بالموقع الجديد، لكن الخوئي كان يعرف اين نحن، فسالنا «هل تعرفون اين نحن؟» اجبت: «هذه قاعدة الشعبية في البصرة»، بالطبع لم اكن انا او غيري يستطيع ان يحدد موقع المطار او القاعدة التي هبطنا فيها بسبب الظلام، قال ماهر الياسري: «نحن في رفحا» بينما اصر عبد الحسن الخفاجي على اننا في «مطار النجف العسكري». فتح جلال الزيايدي النافذة فهجم علينا برد حاد، جر نفسا عميقا عباً ربتيه ثم اعلن قائلاً «نحن في قاعدة الامام علي بالناصرية» وتسمى حالياً بقاعدة (طليلة)، فضحك الخوئي وقال «نعم نحن في الناصرية» وكانت هذه اول ارض عراقية نصلها بعد كل تلك السنوات.

في الليل تركت العراق، وفي الليل اعود اليه. عندما غادرت الاراضي العراقية قبل اكثر من ثلاثة عشر عاما اتذكر انني تجاوزت الحدود العراقية بعد منتصف الليل من غير ان اتذكر الوقت بالضبط، وها انا

اعود الى العراق عند الساعة الثانية فجرا. اعود الى الوطن المصادر من غير أن تكون هناك اية حدود او بحاجة لجوازات سفر، او نقاط تفتيش. عندما هبطت بنا طائرة الشحن العسكرية الاميركية التي اقلتنا من البحرين، كنا ما نزال في السيارة التي كان من المفترض ان نستخدمها في مهماتنا الاغاثية، كانت الظلمة حالكة حولنا، فيما الجنود الاميركان يستخدمون نواظير ليلية تعمل بأشعة ما فوق الحمراء تمكنهم من مشاهدة كل شيء. كان صوت الصمت العميق هو ما نسمعه، وهمسات المارينز السرية و اشاراتهم الغربية فيما بينهم، بعد قليل بدأت اعيننا تتطبع مع ظلام الليل، وصرنا نشاهد ما حولنا كاشباح، واول ما استدلنا عليه كان بقايا سقيفة عملاقة محطمة لم يبق منها سوى هيكل هائل بدا مخيفا وسط وحشة الليل الصامت.

هذه السقيفة هي التي جعلت جلال الزيايدي يتأكد باننا في قاعدة الامام علي القرية من الناصرية، ذلك ان عيني ذلك البدوي مدربتان على الرؤيا الليلية بالرغم من مغادرته للبادية واقامته في ديترويت في الولايات المتحدة لأكثر من عشر سنين، كما انه كان قد امضى خدمته العسكرية قبل ان يغادر العراق كجندي في القوة الجوية. سألته: «كيف عرفت اننا قرب الناصرية؟» اجاب على الفور «من الهواء، لقد تنفست هواء بلدي»، ولم يكن الزيايدي يبالغ في ذلك، فأهله يقيمون على مقربة من المنطقة التي هبطنا فيها، في البادية التي تفصل بين الناصرية والسماوة، واهله من البدو الذين يمتنون تربية ورعي الاغنام.

قال الزيايدي «انا ابن الليل، كنت في شبابي اقود سيارتي (الشيفروليه) الشبيهة بهذه التي نحن فيها، لكن الفرق ان هذه حديثة، واقطع الصحراء لأعبر بالبشر من العراق الى السعودية او الكويت، كما كنا نهرب البضائع بمختلف انواعها إلا الحرام منها، وكان المهرب وقت ذاك

يعد رجلاً شجاعاً، فهو يتعامل مع الليل والذئاب وحرس البادية القساة،
وكم انقذت عراقيين معارضين وهاربين من الجيش لأوصلهم الى الخليج،
لم نكن نعرف معنى جوازات السفر ولا الحدود، الارض، الصحراء، كل
هذه الصحراء كانت مفتوحة امامنا، فاية حدود تمسكنا، واي جوازات
تعيق عملنا» ثم سرح نظره في الليل العميق واستطرد قائلاً «كل الدروب
اعرفها من غير نواظير ليلية او خرائط، فليعطني هذا الاميركي هذه
السيارة واطلبوا مني الوصول الى اية منطقة وسترون.»
جلال الزيايدي (ابوعمار) كان كالأخرين الذين معنا، ترك العراق على اثر
مشاركته في انتفاضة آذار عام 1991، وفر من ملاحقة السلطات
الامنية العراقية مشياً على الاقدام الى مخيم رفحا في الاراضي
السعودية، ومن هناك تم نقله كلاجئ الى الولايات المتحدة.
هذا الهيكل الحديدي الهائل الذي ينتصب امامنا هو بقايا سقيفة كانت
مخصصة لايواء وتسليح الطائرات المقاتلة وقد دمرت خلال حرب الخليج
الثانية وتركت على حالها منذ عام 1991 وحتى الان. كيان حديدي هائل
جاثم قربنا مثل هيكل عظمي لحيوان عملاق منقرض. ندخل العراق من
بوابة الخراب، وبقايا الحروب، من الشواهد، هذه السقيفة مثل شاهد
على قبر، واحدة من اكبر القواعد الجوية العراقية، مثل نصب تذكاري
يرمز لحقبة من التدهور والانكسار.
قبل وصولنا للاراضي العراقية كنت حريصاً على رصد مشاعري وكيف
سأطأ بقدمي ارض بلادي، لكن مشاعري وقتذاك كانت كمشاعر انسان
يهبط على سطح القمر لأول مرة، كان الليل والبرد الصحراوي القارص
والريبة اول من استقبلنا، ألم نستحق استقبالا اكثر قيمة انسانية من
هذا؟ استقبالا يليق بنا؟ سنوات، سنوات طويلة وانا احلم وارسم
سيناريوهات العودة الى البيت الذي تركته مجبراً، بيت اهلي هناك في

بغداد، كنت سادفغ باب سور الحديقة، ساكون قريبا من نخلة البرحي التي نقل فسيلتها والدي من البصرة، من أرض أهله في حمدان، وزرعها وسط الحديقة، بينما تحتل شجرة السدر (النبق) الركن الأيسر من الحديقة.

كانت هذه النخلة التي كبرت معنا تختصر لنا تاريخا من الحكايات والازمنة الطيبة، كنت ساصرخ «يَمّة.. يَمّة.. انا هنا مرة اخرى والى الابد» وساغرق في دموعي وانا اقبل يديها ويدي والدي الصديق الرائع لكل ايامي، كنت سادفن رأسي في حضن امي كطفل واغطي جسدي بعباءتها التي تفوح منها رائحتها الطيبة، وانا اقص لها كل ما جرى لي خلال سنوات الغربة والتعب، بينما ستكون اصابعها تعبت بشعري وهي تردد آيات من القرآن الكريم كعادتها دائما. لكن.. لكن الموت كان قد خطفهما مني قبل اربع سنوات، امي اولا ثم والدي بعد شهر من رحيلها، فلم يعد لي اي حلم او سيناريو اخطط له.

كان السائق قد ترك زجاج نافذته مفتوحا فنستشعر برذا جافا، كنا نتحرق شوقا للتدخين. لم يكن يسمح لنا بترك السيارة لمزيد من الاحتياطات الامنية، بل اننا اكتشفنا فيما بعد ان سيارتنا محاطة بحشد من جنود المارينز الذين يختبئون هنا وهناك وكأنهم نصبوا كمينا لمن سيهجم علينا. قال الزياي: «مئانتي ستنفجر، يجب ان اترك السيارة الان» أجبته مازحا: «أهذا اول شيء تفعله على ارض الوطن بعد كل تلك السنوات»، قال: «هذا الامر خارج عن ارادتي، وإلا سافعلها هنا في السيارة» شق صوت ضحكاتنا صمت الليل، ثم تركنا السيارة كلنا بدون ان نحصل على اذن بذلك.

نظر الخوئي الى السماء وهو يتنفس سيجارته وتساءل: «في اية سماء يمكن ان ترى ملايين النجوم المشعة كهذه؟ في لندن لا نرى سوى

الغيوم».. لا ادري لماذا لم يخالجنني شعور بانني فوق ارض عراقية، كل ما شعرت به هو وحشة الليل والبرد، وسألت نفسي: «هل من المعقول انني على بعد اربعمائة كيلومتر عن بغداد التي ولدت وترعرعت وعشت فيها؟» وفرحت ان أيا منا لم يقم بتلك التمثيلية الباهتة ويقبل الارض مثلما يحدث في الافلام العربية. ربما شعرت وقتذاك ان ارض هذه القاعدة اصبحت، ومنذ ان سيطرت عليها القوات الاميركية، ارضا غير عراقية.

طلب منا احد الجنود ان نصعد الى السيارة كون المنطقة ليست آمنة تماما، ولربما هناك متسللون، فالناصرية لم تتحرر بعد من ميليشيات نظام صدام، وعلي حسن المجيد (علي كيمياوي) ما يزال يحكم الجنوب، والحذر واجب.

بقينا هناك اكثر من ساعتين، لم يكن هناك من نسأله سوى السائق ومساعدته اللذين اوضحا ان سبب التأخير هو لأغراض تأمين الطريق الى المكان الذي سنذهب اليه، اما بقية الجنود فكانوا حول السيارة، كما انه كانت هناك حركة غريبة، عربات مدرعة تذهب باتجاهات مختلفة، اتصالات عبر الهواتف العسكرية المحمولة، وترقب يقظ، حتى اننا تصورنا ان ثمة هجوما وشيكا سيحدث الان.

عندما قاربت الساعة الرابعة والنصف فجرا تحرك الرتل، كانت هناك عربة مدرعة مجهزة بالاسلحة الثقيلة تسير امامنا بهدوء، ومثلها خلفنا، وسيارتان من نوع (همر) عسكريتان تحيطان بنا. سألت: «لماذا كل هذه الحماية؟ من يتصوروننا؟» اجاب الخوئي «حماية حياتنا الان من مسؤوليتهم.»

بعد مسير ربع ساعة، او اقل، حيث كان الرتل يسير بهدوء مبالغ فيه، توقفنا، واعلن السائق عن وصولنا، فتح باب السيارة الضابط المسؤول

عن فريق الحماية واعتذر عن التأخير، وقال: «اخيرا، انتهت هذه الرحلة الطويلة وها قد وصلنا.»

كان المكان الذي خصص لايوائنا عبارة عن خيمة بسيطة تحت سقيفة كونكريتية ضخمة كانت مخصصة فيما سبق لايواء الطائرات المقاتلة، وحول الخيمة يتناثر بعض الجنود النيام هنا وهناك، اخذت العربات المدرعة وعربات الهمر مواقعها الدفاعية حول تلك الخيمة البائسة. لم يكن هناك أي ضوء داخل او خارج الخيمة، كانت هناك صناديق كارتونية مصفوفة فوق بعضها والى جانبها صناديق قناني المياه تتوسط الخيمة، عدا ذلك لم يكن هناك أي شيء. فتحنا الاكياس الزرقاء التي تحتوي في داخلها على منامات سفرية، تلك التي جلبناها معنا من لندن، والتي كنت قد علقته عليها باعتبارها مظلات (باراشوتات)، لننام في داخلها، ولولاها لكنا نمنا فوق الارض الكونكريتية القذرة. قال حازم الشعلان «شكرا لك يا ابو حيدر (الخوئي) لانك فكرت بهذه المنامات»، اجاب الخوئي غامزا «هناك من رفض حمل هذه المنامات وعلق عليها ساخرا باعتبارها باراشوتات» وكان بالطبع يعنيني، ضحكت ورددت عليه: «انها اروع باراشوتات شاهدتها في حياتي» ثم لفنا النوم جراء متاعب هذه السفارة.

صحونا مبكرين على ضوضاء الجنود الذين حولنا، كان ماهر الياسري اول من استيقظ للبحث عن فطور بين علب طعام المارينز المخصص لنا (مارينز فود)، وجد بعض البسكويت والكعك المجفف ومعكرونة بالخضار، اما انا فقد حمدت الله انني تركت عادة تناول طعام الفطور منذ زمن طويل، وكان كل ما يهمني هو البحث عن قدح قهوة مرة بلا سكر، ولان الاميركان مولعون بشرب القهوة ويعتبرونها من اساسيات يومهم فقد أمنت جزءا كبيرا من متطلباتي.

بينما كنت ارتشف القهوة المرة، كان أصحابي يبحثون عن الشاي، طلبت لهم موقدا نفطيا يستخدمه المارينز لتحضير القهوة، غلينا الماء لتحضير الشاي للاخرين. فجأة دخل علينا شاب عربي اسمر البشرة، نحيف الجسم، طويل القامة بعض الشيء، فيه الكثير من الملامح البدوية، وقال «صباح الخير» ثم قدم نفسه: «أنا طلال، كويتي من اصل عراقي، بل ومن الجنوب، اعمامي يقطنون هذه الاراضي التي حولنا.»

طلال كان يعمل مترجما للقوات الاميركية، وهو مع هذه الوحدة منذ دخولها من الاراضي الكويتية الى العراق، كان قد درس ادارة الاعمال في الولايات المتحدة، وهو شاب طيب للغاية، وقد فرح بوجودنا في تلك الارض اليباب، لهذا لازمنا حتى رحيلنا.

كان علينا ان نتكشف في استخدامنا للمياه، فلا احد يعرف كم سنبقى هنا، كما انه لم يكن حولنا أي حمام او تواليت، وهذا يعني اننا حرمانا من نعمة الاستحمام او الشاور الصباحي. خارج الخيمة كانت حرارة الشمس تقسو تدريجيا، والعواصف الترابية تشكل المشهد العام، كما اننا التقينا بمخلوقات كنا قد نسيناها، تلك هي اسراب الذباب التي ستقاسمنا فيما بعد في النجف كل تفاصيل ايامنا.

القاعدة السرية

كانت مساحة قاعدة الامام علي القريبة من الناصرية واسعة جدا ومترامية الاطراف، تمتد في كل الاتجاهات، ارض مؤتثة بالمسقفات الكونكريتية والمغلفة بالحديد الصلب (الستيل) والمبنية لمقاومة شتى انواع

الصواريخ والقنابل. فهذه المسقفات ومثلما ذكرت كانت مخصصة لايواء الطائرات المقاتلة التابعة للقوة الجوية العراقية، وتسمى بلغة الجيش العراقي بـ(الاوكار)، ومفردها وكُر، وقد شاهدت بعض هذه الاوكار وقد قصفت في حرب الخليج الثانية بعدد من القنابل والصواريخ التي لم تنل من جدرانها القوية، بل ان السقيفة التي كانت خيمتُنا تقوم تحتها كانت قد قصفت بقوة، هذا ما توضحه الآثار من الخارج لكنها لم تتأثر من الداخل، فهذه الأوكار كانت تحمي طائرات مقاتلة يبلغ سعر الواحدة عشرات الملايين من الدولارات. كانت هناك ايضا هضاب كونكريتية مغطاة بالتراب، هذه هي مخازن الاسلحة التي كانت الطائرات تزود بها. قاعدة الامام علي الجوية، التي تسمى اليوم بقاعدة (طليلة) او (تليلة) حسب اللهجة الاميركية، كانت واحدة من اضخم قلاع القوة الجوية في العراق، وكان لها دورها المؤثر قتاليا خلال الحرب العراقية - الايرانية لقربها من ايران، وكان يطلق عليها اسم (القاعدة السرية)، ولم يكن احد ليجرؤ بالوصول اليها من غير العاملين فيها. ومن الحكايات الساخرة التي كانت تروى عن هذه القاعدة هي ان سائقي الباصات كانوا يقفون عند محطة قطار الناصرية في انتظار عودة الجنود من اجازاتهم وهم يعلنون وجهتهم صارخين: «القاعدة السرية.. القاعدة السرية.»

هذه هي إذن القاعدة السرية تحت سيطرة القوات الاميركية التي وجدت فيها الموقع المناسب القريب من ايران ومنطقة الخليج العربي، ومدن وسط وجنوب العراق، وهي قاعدة كان صدام حسين قد انفق ملايين الدولارات لتجهيزها بكل مستلزمات النجاح، وقد وجدها الاميركان جاهزة لهم، وما يؤكد ذلك هو ان وحدات من القوات الاميركية كانت تعمل باستمرار ببناء منشآت جديدة في القاعدة وتشق الطرق وتعبدها، كما ان حجم الاجهزة والمعدات الاميركية التي نقلت الى القاعدة تدل على

انهم باقون فيها ولمدة طويلة، طويلة جدا، حتى انني تصورت، ولكثرة الاجهزة والمعدات الضخمة التي نقلتها القوات الاميركية الى هذه القاعدة بانهم هنا منذ سنوات.

المكان الذي كان قد اختير لنا هو ابعد وكر في القاعدة، كي لا نكون قريبين من الاخرين من جهة، ولا يقترب منا احد من جهة ثانية، حيث كان ممنوعا حتى على افراد القوات الاميركية من الوحدات الاخرى الموجودة في القاعدة الاقتراب او التحدث الينا.

واذا كنت قد وصفت سابقا ايامنا في قاعدة البحرين على انها كانت مملة، فانها هنا ثقيلة وبأسة، بل اننا اعتبرنا ان زملاءنا هناك يعيشون في خيام ذات خمس نجوم، قياسا لما نحن عليه في قاعدة طليعة. لم يكن هناك ما نفعله، بل ماذا يمكن ان نفعل؟ حتى رغبتني في تسجيل الاحداث تلاشت لانه لم تكن هناك اية احداث. نهار مزعج، وساخن، مؤثت بالعواصف الترابية والذباب، يتمطى مثلما يريد بلا أية حسابات زمنية، فقد تركت طوال تلك الايام ساعتني اليدوية في الحقيبة لعدم الحاجة لها. ليل موحش ومظلم وهادئ تسوده حشود من البعوض الذي خرج هذا العام في وقت مبكر من اجل استقبالنا والتمتع بلسع جلودنا. على العكس منا كان افراد قوات المارينز قد تطبعوا مع البيئة الجديدة، حيث يلعبون الكرة او الشطرنج او الورق (الكارت) وكانهم في اجازة، سألت اكثر من واحد منهم اذا كانوا يشعرون هنا بالضجر، او بوطأة الظروف الجوية، فكانت إجاباتهم بالنفي، كان الرضا، إن لم اقل السعادة، باديا عليهم، يستمعون للاغاني الغربية ويسترخون وهم يرتدون الشورتات وعراة الصدور على كراسي خفيفة وكانهم عند شاطئ البحر في الريفيرا، يتحدثون ويضحكون ويحلقون ذقونهم وكانهم على مواعيد مع صديقاتهم. هؤلاء الجنود يعرفون ما يفعلونه، ويميزون بين اوقات

الجد واوقات الاسترخاء، وهم جادون للغاية عندما يكون هناك أي واجب عسكري ولو كان بسيطاً، وحسب العريف (جو) ليس هناك في المارينز واجب بسيط وآخر صعب، «الواجب العسكري هو واجب وعلينا ان نتعامل معه بجدية، سواء كان ذلك هنا او في ساحة القتال، بل نحن الان في ساحة القتال، ولهذا ترى ان هناك من يستريح واخرين يقومون بواجب الحراسة وهم على اعلى درجة من الاستعداد، فلو فوجئنا بهجوم معادٍ الان، ومهما كانت درجته، وقتل او جرح أي منكم، فسنكون قد فشلنا في المهمة التي كلفنا بها، وهي الحفاظ على حياتكم.»

على العموم، اكتشفت ان الاميركان يتصرفون مثلما في الافلام التي تنتجها هوليوود، وهذا لا يعني انهم يقلدون الافلام، بل ان هذه الافلام تستمد مواضيعها وحركة ممثليها من الواقع الاميركي البحت، وهذا ما اوضحه (جو) لي عندما قلت له «انتم تتصرفون مثلما يحدث في افلام هوليوود، الكاو بوي» فرد علي مصححا فكرتي «بل الافلام تتصرف مثلنا.»

كنت اجلس على دكة خارج السقيفة (الوكر) وأحدق في ما حولي بصمت، وكان وقتنا مقسما ما بين الحديث والحديث والصمت، اقتصرت وجباتي الغذائية على واحدة يوميا لعدم تقبلي طعام المارينز، وكنت اتقبل الوجبة هذه بصعوبة، فبالرغم من ان هذه الوجبات مغذية ومعدة بعناية بحيث تحتوي على البروتينات والفيتامينات اللازمة ومن غير ان تسبب السمنة، او تزيد نسبة الكولسترول في الدم، إلا ان مذاقها كان مثل الخشب. وما كان يمنعني من تناول المزيد من هذا الطعام هو مشكلة عدم وجود مرافق صحية، وكنت افكر بهذا الموضوع بجدية بالغة، وكان على الواحد منا اذا اراد قضاء حاجته ان يختار مكانا منزويا، لكن ما

ساعد على حل هذه المشكلة هو ان طعام المارينز خالٍ من الخضروات والفواكه وهذا يسبب الامسك.

المشكلة الاخرى كانت عدم الاستحمام، فبينما كنا نستحم لاكثر من مرة خلال اليوم في قاعدة البحرين، صرنا هنا نتكشف باستخدام الماء واقتصرنا على غسل اسناننا ووجوهنا والوضوء لمن يصلي.

شعرت ان حرارة الجو تجفف بشرتي، يضاف الى ذلك التراب الناعم، الذي نسميه (الطوز)، صار يتسلل الى مساماتي فبدت بشرتي مثل قطعة خبز محترقة في حرارة التنور وبدأت حبيبات خشنة ذات رؤوس بيضاء غريبة تنتشر على بشرة يدي ووجهي، ولم يكن ينفع دهنها بالكريم المضاد لحرارة الشمس، وكان اقصى ما تمنيته ذلك الوقت هو الوقوف تحت الدش (الشور) ولو لدقائق قليلة، لكن احدا منا لم يجرؤ بالافصح عن هذه الامنية وسط تلك الظروف الصعبة.

تحت خيمتنا، التي اسميتها خيمة الناصرية، كان الزيادي يسمعنا بعض قصائده الشعبية وقصصه الظريفة حول البادية وغرائب ما كان يحدث خلال عمليات التهريب التي قام بها، كما اكتشفت وللمرة الاولى أن الخوئي يكتب الشعر ايضا وقد قرأ علينا بعض قصائده، كنا ايضا نتابع اخبار تقدم العمليات الحربية عبر الاذاعات، أعود وأقول إن الوقت كان يمر ثقيلًا، مملاً، لكننا لم نكن لنظهر انزعاجنا من هذه الحالة ونحن ننتظر دخولنا لأقرب مدينة تتحرر قريباً من نظام صدام حسين.

كنت احاول رصد حدود هذه القاعدة المترامية الاطراف، واكتشاف اية ابنية تدلل على وجود مدينة قريبة منها، عندما اقترب مني جلال الزيادي و اشار بأصبعه الى منطقة ليست بعيدة هناك فيما وراء حدود القاعدة، وقال: «هناك تقع آثار مدينة أور السومرية التي يعود تاريخها الى ستة آلاف عام. وراء اسوار القاعدة تماما تقع زقورة أور التي بدأت تتهدم من

جراء الاهمال ومنع الناس من زيارتها كونها تقع في منطقة عسكرية». تذكرت ان منظمة «اليونسكو» كانت قد اعترضت على قيام هذه القاعدة كون ان حركة وهدير اقلاع وهبوط الطائرات المقاتلة يعرض زقورة أور وبقية الاثار للتصدع والانهييار. ولكن من اهتم بهذا التقرير؟ وأيها اهم في عصر الحروب والدمار، الزقورة التي بناها السومريون قبل ستة آلاف عام؟ ام القاعدة الجوية العسكرية التي هي جزء من الماكنة الحربية التي اعتمد عليها صدام حسين لابقاء نظامه حيا طيلة اكثر من ثلاثة عقود والتي تخطط القوات الاميركية استخدامها لتثبيت وجودها في العراق؟ اقترب منا جندي اميركي في العشرين من عمره وسألنا عن الجهة التي نشير اليها ونتحدث عنها، فاخبرته عن اور التي يتحدر منها النبي ابراهيم ابو الانبياء جميعا، فلم يبد اي اهتمام بالموضوع، اضفت الى معلوماته بان البابا يوحنا، بابا الفاتيكان يتمنى زيارة اور وقد طلب من الحكومة العراقية تسهيل مهمة زيارته لها، لكن صدام حسين رفض طلبه، «بينما انت اليوم قريب من اقدم حضارة انسانية في التاريخ» فعلق الجندي الاميركي قائلاً: «لا يهمني ما يتمناه البابا، يهمني ما اتمناه أنا الآن»، سألته: «وماذا تتمنى الان؟» فاجاب على الفور: «سندويج همبركر من ماكدونالد وعلبة كوكا كولا باردة جدا، وان تكون صديقتي برفقتي» ثم سألنا بعفوية: «هل لكما صديقات؟ اين تركتماهما؟» ابتسمنا انا والزيادي الذي قال معلقا «هذا صدك (بصدق) واحد بطران.»

لم نكن، بالطبع، نعرف كم سنبقى في هذه القاعدة، في هذا السأم والملل الحقيقيين، وكنا نتصور عندما حلقتنا بالطائرة من البحرين الى الاراضي العراقية باننا سندخل مدينة عراقية ونباشر عملنا الذي جئنا من اجله لمساعدة الناس. حركتنا هنا مقيدة كالعادة بسبب خشيتهم على

حياتنا. كانت لدى قوات المارينز المكلفة بحمايتنا دراجات نارية (ماطور سايكل) ذات الاربع عجلات وتعمل بصورة اوتوماتيكية، اي انها سهلة القيادة للغاية، وغالبا ما كنا، ماهر الياسري وانا، نتمنى قيادتها للترفيه عن انفسنا، كان الياسري مباشرا في طلباته، يقول ما يريد بلا تخطيط أو شعور بأية حواجز، لهذا فجأة وذات صباح طلب من احد افراد المارينز قيادة الدراجة النارية، فوافق الآخر بعد ان اطلعنا على طريقة التشغيل والقيادة والتوقف، وراح الياسري يتسابق مع جندي المارينز وهما يقودان دراجتين ناريتين، وهو ما شجعني لاقود احدي تلك الدراجات بعد ان طلب مني جندي اميركي آخر ذلك وهو يقول: «هل تريد ان تجرب؟ انها امينة وليست خطيرة» وافقت على الفور وقدت الدراجة، كنت اقودها بحذر في البداية ثم سرعان ما ضغطت على دواسة السرعة واجتزت المساحات الترابية لأعود الى الشارع المعبد بالاسفلت الى موقعنا. كان الخوئي يراقبنا عن بعد، وحالما عدت صعد هو الدراجة وراح يسابق جنديا من المارينز، واستغربنا بان يسبق دراجة الجندي وهو الذي يقود هذه الدراجة للمرة الاولى في حياته.

من قاعدة الناصرية ارسلت اول تقرير صحافي الى جريدتي «الشرق الاوسط» اعلن خلاله وصول الخوئي وفريقه الى ارض العراق مع لقاء صحافي مع الخوئي، وتصدر التقرير الصفحة الاولى باعتبار ان الخوئي اول عراقي يصل الاراضي العراقية بينما كان نظام صدام ما يزال يسيطر على الاوضاع الامنية في العراق.

في اليوم التالي عندما صدرت صحيفة «الشرق الاوسط» تحمل خبر وصول الخوئي الى العراق انهالت علينا الاتصالات الهاتفية عبر هاتف الثريا الذي كان وسيلتنا الوحيدة في الاتصال التي تربطنا بالعالم، وبهذه المناسبة اتذكر ان الاجهزة الامنية لصدام اعدمت في الايام

الاخيرة من نظامه عائلة تتكون من ثمانية افراد لعثور جهاز ثريا في بيتهم كان احد اقاربهم قد ارسله لهم خلسة من دولة الامارات. وعندما سقط النظام ودخلت القوات الاميركية الى سجن ابو غريب كانت جثث العائلة المدومة ما تزال هناك.

المهم ان الخوئي كان منشغلا بالرد على الاتصالات الهاتفية وكنت اساعده بالرد على بعضها حيث كانت مؤسسة الامام الخوئي في لندن قد اعطت ارقامنا لبعض الجهات الاعلامية. اتذكر ان الدكتور اياذ علاوي الامين العام لحركة الوفاق الوطني العراقي كان يتهدى لدخول العراق من خلال الاردن عندما اتصل بالخوئي محذرا اياه من الوصول الى النجف اذا لم تكن معه قوة حماية كافية لأنه سمع عن خطة لاغتيال الخوئي، وكان تحذيره شديد اللهجة، لكن الخوئي اخذ الامر باعتباره تحذيرا طبيعيا، ثم اننا كنا في حماية قوات المارينز، التي تخلت عنا فيما بعد، فكيف سيحمي نفسه اكثر من ذلك.

اتصلت به شخصية لبنانية شيعية معروفة لتعرض خدماتها عليه لكن الخوئي طلب من هذه الشخصية ان يرفعوا ايديهم عن العراق وان لا يتدخلوا في الشأن العراقي وترك العراق للعراقيين، كان الخوئي يتحدث مع هذه الشخصية بشدة وبتقّة عالية. اتصلت به محطات تلفزيونية عربية وغربية والقسم الفارسي في اذاعة الـ(بي بي سي) البريطانية وقناة (العالم) الفضائية، كما ألحّ في الاتصال راديو ايران الرسمي لكنه رفض الاجابة عن اتصالاتهم ومحطة «حزب الله» اللبنانية.....)

في نهار اليوم الثالث من وجودنا في قاعدة طليلة فاجأنا ديفيد (ابو توام) بحضوره بيننا، هكذا رأيناها خارج الخيمة وهو يحمل على ظهره حقيبة ملابسه والابتسامه مرسومة كالعادة فوق وجهه، و(ابو توام) يحضر فجأة ويختفي بذات الطريقة وكأنه شبح. تفاعلت خيرا بوجود (ابو توام)،

فهذا يعني اننا سنرحل قريبا، فعندما جاءنا الى قاعدة البحرين غادرنا في اليوم التالي، وها هو الان معنا ومن المؤكد انه جاء ليرافقنا الى مكان آخر، تطلع في وجوهنا التي اكتسبت لون التراب، وقال: «لا بد انكم لم تستحموا منذ قرن؟» قلنا له «ليس المهم الاستحمام الآن، المهم هو اننا متى سنترك هذا المكان؟» ابتسم وكأنه يملك الاجابة السحرية لهذا السؤال واجاب: «قريبا جدا.»

انتحى ديفيد بالخوئي جانبا وراحا يتحدثان فيما بينهما، بينما كنا ننظر اليهما على بعد مسافة قريبة من غير ان نستمع لنقاشهما الهامس تقريبا، قلت لأصحابي: «يبدو اننا سنترك هذا المكان اليوم او غدا.» سأل الخفاجي: «كيف عرفت ذلك؟» قلت «هذا ما يبدو من تقاسيم وجه السيد (الخوئي)». حتى ذلك الوقت لم تكن اية مدينة عراقية قد تحررت بالكامل من سيطرة نظام صدام، بل كانت هناك بعض المدن التي تحررت اجزاء منها فقط، مثل الناصرية والبصرة والنجف، وكان من المغامرة بمكان ان يتركونا ندخل الى اي من تلك المدن بسبب عدم تمكنهم من توفير الضمانات الامنية لنا، كما اننا لم نأخذ معنا من يوفر لنا الحماية لانفسنا، بل ولم نملك الاسلحة وحتى الخفيف منها كالمسدسات للدفاع عن حياتنا عند الحاجة.

انتهى الاجتماع الجانبي والسريع بين الخوئي وديفيد وعادا الينا مبتسمين، كنا نتخذ من دكة عند مدخل السقيفة مكانا لجلوسنا، بينما كان افراد المارينز يجلسون فوق الكراسي الخفيفة المريحة المصنوعة من الالمنيوم والقماش الخاكي، كراسي من تلك التي يمكن طيها ونقلها الى اي مكان، وكنا نجلس احيانا فوق هذه الكراسي عندما تكون خالية، قال الخوئي «انهم يبحثون لنا الان عن حمامات هنا داخل القاعدة لنغسل اجسادنا قبل ان نغادر هذا المكان». جاءت كلمة «نغادر» مثل البلمس

الذي اراح نفوسنا، قلنا: «نغادر الى اين؟ ومتى؟» قال الخوئي
«المباحثات الجارية الان حددت مدينة النجف باعتبار ان جزءا كبيرا
منها قد تحرر من يد النظام، لكنهم يريدون ان يتأكدوا من موضوع
الجانب الامني، وربما سنتحرك هذه الليلة او مساء غد، هذا يعتمد على
الطائرات التي ستجهز لنا ومتى يتم تجهيزها.»
لست بحاجة لأن اصف مشاعرنا ازاء هذه الاخبار الطيبة للغاية، فهناك
خبر الاستحمام الذي طال انتظارنا له، والثاني مغادرة خيمة الناصرية
هذه الليلة او مساء غد، وعرفنا ان ديفيد سيرافقنا الى النجف.
لقد تحددت نقطتنا المقبلة منذ وقت مبكر هذه المرة. انفرجت اساريرنا
لهذه الاخبار المشجعة، فقد كانت خيمة الناصرية هذه من اكثر المحطات
ضجرا في رحلتنا، ولا ادري لماذا لم نجاهر بأي اعتراض، او امتعاض
على ظروف بقائنا فيها، بل كنا نتقبل الامور بهدوء، والاكثر من هذا ان
الخوئي وبحكم تجاربه الحياتية كان قد اختار مجموعة عرف انها
ستتألف وتندمج فيما بينها بالرغم من فارق الاعمار والتجارب والبيئات،
فقد كان كل واحد منا يبادر لخدمة وإسعاد الاخرين من غير ان يطلب
منه ذلك، بل ومن غير ان يدعي انه قام بهذا العمل او ذاك.
ولي أن اقدم اوصافا سريعة لافراد مجموعتنا: حازم الشعلان كان هادئا
ومتفائلا ومتسامحا وجادا للغاية. عبد الحسن الخفاجي كان يبدو وكأنه
يعمل على ان يجري كل شيء بشكل صحيح، سريع العطب، حريص
على راحته، وغالبا ما كان يردد قائلا «انا هنا لأفدي الخوئي حياتي
وللحفاظ على حياته» وسوف نتأكد من ان ما فعله فيما بعد كان عكس
ذلك تماما، حتى ان الخوئي كان يسميه بـ«النازك» اي المترف او
(المدلل)، وغالبا ما كان يمزح معه ويقول له «انا اشك انك كنت ضابطا
في الجيش العراقي» وذلك عندما كان الخفاجي يشير الى ماضيه، فهو

كان ضابطا اداريا على اية حال ولم يكن مقاتلا. جلال الزيايدي كان مفعما بالنشاط والطموحات، اجتماعيا ويحفظ الكثير من القصص والاشعار البدوية والشعبية، اما ماهر الياصري الذي كان اصغرنا عمرا (33 عاما) فقد كان نشطا الى ابعد الحدود، مبادرا لخدمة الاخرين، سريع الضجر وسريع الرضا والتقبل، مرحا للغاية، يتنازل عن ممتلكاته للاخرين اذا شعر ان ذلك يسعدهم، ولم يكن انانيا، وكان الخوئي مثل مايسترو هذه المجموعة، اكثرنا بساطة وتواضعا، لا ياكل قبلنا، لا ينام الا بعد ان يتأكد ان الكل راض، كان ذا خزين ثقافي وسياسي ويحفظ الكثير من الاشعار والحكم، اضافة الى خزينه الثقافي كرجل دين ذي عقلية متفتحة، وان كان لم يشعرنا بانه رجل دين، وفي التسلسل العمري هو ثاني شخص في المجموعة يصغرنا عمرا (40 عاما) لم يظهر ولو للحظة انه المسؤول عن المجموعة، بل جعلنا نتصرف كمسؤولين عن الجميع، لا اتذكر انه كان ينادي الشخص باسمه بل بكنيته، وهذه تدل حسب التقاليد الاجتماعية العراقية على الاحترام والتقدير. اما انا فلا استطيع التحدث عن نفسي سوى انني كنت متحمسا للغاية اريد، كعادتي، ان استبق الاحداث بلا حذر، كان الخوئي هو الاقرب الى نفسي.

تأكد لنا ان الطائرات التي ستنقلنا الى النجف ستكون جاهزة مساء اليوم الثاني، وهذا يعني اننا سنمضي ليلة اخرى تحت خيمة الناصرية، لكن لا بأس ما دامت هذه هي الليلة الاخيرة لنا هنا. بتنا ليلتنا مبكرين كالعادة، فقد كنا ننام عند الساعة السابعة او الثامنة مساء ونستيقظ عند الساعة السادسة صباحا، وهذه هي المرة الاولى التي انام فيها مبكرا جدا واستيقظ مبكرا للغاية في حياتي. نمنا والآمال تحدونا بان هذه هي الليلة الاخيرة التي نقضيها في هذا المكان الممل والمضجر،

اتخذ ديفيد مكانا له تحت الخيمة ونام معنا، في صباح اليوم التالي
جاءنا نبأ سعيد مفاده أنهم وجدوا لنا الحمامات التي سنظهر فيها
اجسادنا وننظفها من الغبار والعرق العالق بها مثل الطين، اذ ليس من
الممكن ان ندخل النجف ونحن بهذه الهيئة، كنا بحاجة ايضا لحلق لحانا
التي طالت اكثر مما يجب. عند منتصف النهار ابلغنا ان الحمامات
جاهزة لنا. كانوا قد اختاروا حمامات المستشفى الميداني لنستحم فيها
إذ لا توجد في القاعدة غيرها، صعدنا في سيارتين واتجهنا الى
المستشفى الميداني في القاعدة، كانت هناك وكالعادة عربة مدرعة
تسبقنا واخرى تلاحقنا، كما ان الطرق كانت قد قطعت تهيؤا لمرورنا، كنت
اراقب الابنية التي ما تزال باقية منذ ان تركها الجيش العراقي، وكانت
صور صدام حسين وشعاراته ومقولاته تتوزع في كل مكان إذ لم ينشغل
الاميركان في ازاحتها لضيق وقتهم.

تجاوزنا بقايا السقيفة التي كنا قد هبطنا قريبا قبل اربعة ايام،
فاكتشفنا انها لا تبعد عن مقرنا سوى سبع دقائق، سبع دقائق ونحن
انتظرنا لنقطع هذه المسافة ليلتها خلال ساعتين ونصف الساعة بسبب
الاحتياطات الامنية! كما كنا نرى حجم المعدات الضخمة التي نقلتها
القوات الاميركية للقاعدة وكانهم هنا منذ سنوات وليس منذ اسبوع.
قبل وصولنا الى مستشفى القاعدة نبهنا أحد جنود المارينز الذي كان
يقود السيارة بان هناك بعض الاسرى العراقيين الجرحى في المستشفى
الذي سنذهب اليه، وطلب منا عدم التحدث اليهم او حتى مراقبتهم.
توقفنا عند باحة المستشفى الميداني وكانت قد انشئت من الخيام الكبيرة
الى جانب الاستفادة من بعض الابنية التي كانت القوة الجوية العراقية
قد انشأتها سابقا، ريثما يهيئون موضوع دخولنا من غير ان يشعر بنا
الاسرى العراقيون الذين كانوا يتوزعون على بعد امتار منا وهم يرتدون

الثياب الزرقاء الخاصة بالمرضى. قلت للخوئي «ماذا سيكون شعورك اذا شاهدت بين هؤلاء الاسرى احد اقاربك او شقيقك مثلا؟ كيف ستتصرف؟» بعد لحظات من التفكير قال «انت يا ابو نورس تطرح اسئلة صعبة وغير متوقعة، هو موضوع معقد، انا هنا في حماية الأميركيان بينما شقيقي اسير في الجانب الآخر لدى الأميركيان وفي نفس المكان؟ لكنني اقول انظر كيف يعاملونهم بإنسانية وحرص على حياتهم، لو كانوا الان عند قوات صدام لتركوهم يموتون او قتلوهم مثلما تفضح المقابر الجماعية للجنود العراقيين ذلك.»

كان الاسرى قد وقفوا في صف واحد ووجوههم تتجه نحو الطرف الاخر المعاكس لنا كي لا يرونا، لكن هناك من دفعه الفضول ونظر باتجاهنا، وربما اخبروهم اننا اسرى ذوو خمس نجوم! خصصوا عشر دقائق لكل منا ليحلق ذقنه ويتحمم، وكان هذا اقصى درجات الترف بالنسبة لنا وقتذاك.

انسابت المياه الدافئة فوق جسدي وشعرت باسترخاء عجيب وكانني لم استحم منذ عام، كان احساسني بانني اتحرر من هموم واثقال علقبت بي خلال الايام الفائتة، كانت المياه الدافئة تمر على كل بوصة من جسدي فتفتح مساماتها وترطبها فتسترخي المسامات وتتنفس، وانا مغمض العينين، أتخيل نفسي تحت شلال ساخن. وانا على تلك الحالة أَلحَّت علي صورة الاسرى الذين هم على مبعدة امتار منا الان، وحمدت الله على انهم بقوا احياء وسيعودون في يوم قريب الى بيوتهم. تبادلنا الصابونة انا وماهر إذ لم يكن قد جلب معه شامبو او صابونة، قال لي «انت جهزت نوعا راقيا من الصابون والشامبو». كان الخوئي آخر من استحم، عرضت عليه استخدام الشامبو ومعجون الحلاقة قال كعادته «لا شكرا، اخشى ان اتعود عليه». وكان رده، كلما عرض عليه أحد

استخدام بعض الكماليات مثل كريم البشرة عندما بدأت بشرته تتقشر بفعل الحرارة، «هذا جلدي يتغير ليكتسب بشرة عراقية تقاوم هذه الظروف المناخية»، او عندما عرضنا عليه استخدام مناديل ورقية مرطبة ومعطرة.

عدنا سعداء الى خيمتنا، كنا نغني في دواخلنا، صرنا اشخاصا مختلفين عن يوم امس، كنت امرر يدي على وجهي فاشعر بنعومته، لكن سبب سعادتنا الحقيقي كان شعورنا بأن موعد رحيلنا اقترب، علمنا ان موعد تركنا لقاعدة طليعة سيكون عند الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من هذه الليلة، وانه سيتم تجهيز اربع طائرات هليكوبتر مخصصة للمهمات الليلية لتنقلنا الى النجف، كنا نحسب الوقت في انتظار حلول المساء. ولا ادري ان كان اختيار مدينة النجف لتكون اول محطة ننطلق منها لتنفيذ مهماتنا الانسانية جاء من قبل القوات الاميركية كونها (النجف) شبه محررة من سيطرة نظام صدام، أم ان ذلك قد تم بدفع من الخوئي كونه ابن النجف وهو مشتاق لرؤية مدينته واهله، او ربما اختيرت هذه المدينة باعتبارها مركز الشيعة في العراق، وان الانطلاق منها سيساعدنا على نجاحنا في المدن الجنوبية الاخرى؟ وبالنسبة لي لم يكن يهمني ان كانت اول مدينة النجف او البصرة او الحلة، المهم ان نصل الى مركز مدينة عراقية ونباشر عملنا فيها ومن ثم ننطلق منها الى المدن الاخرى. لمحت جلال الزيايدي وهو يتلمس بيديه رشاشا من النوع المعقد والثقيل المثبت على عربة همفي المدرعة، سألته إذا كان يستطيع حمل ذلك الرشاش الثقيل للغاية؟ فاجاب بحماسة: «ماذا؟ هذا الرشاش فقط، استطيع ان احمل ثلاثة منه، او مدفع هاون مع نخيرته، المهم ان اجد فرصة لأقاتل صدام حسين.»

كان متشوقا للوصول الى أهله الذين فارقهم بغير ارادته قبل اكثر من اثني عشر عاما، أو الوصول الى اية مدينة عراقية ليلتقي أهلها، ولم يكن اهله بأي حال يبعدون عنا اكثر من ساعة إذا قطع الطريق اليهم بواسطة السيارة. بعد ظهر ذلك اليوم كان الزيادي يضحك ويمازح هذا وذاك، اتصل بعائلته في ديترويت في الولايات المتحدة بواسطة الهاتف المرتبط بالاقمار الصناعية وزف لهم بشرى قرب رحيلنا الى النجف وهو يقول لهم «سأدعو لكم عند أمير المؤمنين علي، عليه السلام.»

حل المساء ببطء، وكنا قد وضعنا امتعتنا في السيارتين (الشيفروليه) وتركنا امكنة لنا. قلت لديفيد: «يجب ان نجد لك كنية عراقية تتناسب مع المدينة التي سنذهب اليها، اذ لا ينفذ هناك ان نناديك بديفيد او (ابو توام)» قال: «اختر انت وسوف أرضى بأية كنية» فقلت على الفور: «سنسميك (ابو علي)» ابتسم الجميع وقال الخوئي: «هذه كنية جميلة ومباركة» قال ديفيد: «طيب، انا منذ الان ابو علي» ولانه جاد اكثر مما يجب بلغ قيادته امامنا وعبر هاتفه المحمول بان اسمه سيكون منذ هذه اللحظة في كل المخاطبات الرسمية وغيرها (ابو علي) وأملى عليهم حروف اسمه الجديد بالانكليزية.

كان جلال يتوظأ لأداء صلاة المغرب، بينما كنا أنا وماهر نراقب الوقت وهو يمضي بطيئا، اشعل كل منا سيكارة، قال ماهر لجلال «ابو عمار سأصلي بعدك»، لم يرد جلال، فجأة شاهدناه، انا وماهر، وهو يهوي على ظهره، قفزنا باتجاهه فوجدناه قد غاب عن الوعي للحظات، صحا من غيبوبته السريعة وهو لا يتذكر أي شيء سوى انه كان متعبا، اصر الاميركان على نقله الى المستشفى قبل سفرنا، رفض بشدة معتقدا أن الطبيب ربما لن يسمح له بالسفر معنا لسوء حالته الصحية، لكنه رضخ وذهب الى المستشفى يرافقه الشاب الكويتي طلال. بعد عشر دقائق عاد

جلال ومعه اخبار مطمئنة «لا شيء سوى ارهاق بسيط» حسب ما نقل
الينا طلال.

جلس بيننا ليستريح واذا به يدخل غيبوبة ثانية ثم يصحو بعدها بثوان،
تقرر نقله ثانية الى المستشفى للتأكد من سلامة وضعه الصحي، وخلال
هذه الأثناء تشنَّج وأصيب بما يشبه الصرع المؤقت، وقبل ان يضعوه في
السيارة باتجاه المستشفى يرافقه كل من ماهر، صديقه الاكثر قربا له،
وطلال، قال: «لا تتركوني هنا وتغادروا الى النجف.»

بعد عشر دقائق تلقى ابو علي مكالمة هاتفية استدعى بعدها الخوئي
وطلب منه التوجه الى المستشفى على الفور، ادركنا ان حالة جلال ساءت
جدا وربما سيبقى في مستشفى القاعدة، لم نعتقد للحظة ان حالة
جلال مميتة، فقد كان قبل دقائق يمزح ويتحدث بكل نشاط.

اقترب منا ابو علي وسألنا فيما اذا كان وضع جلال القلق سيؤجل
رحلتنا، فأجبناه بالنفي، وهنا طلبنا منه ان يخبرنا بالوضع الحقيقي
لجلال، فقال إنه يحتاج الى عملية معقدة وقد ينقل الى الولايات المتحدة،
لكنني سألته وبصورة مباشرة ان كان جلال ما زال حيا؟ قال: «لا»، ثم
عقب قائلاً: «افترضوا انه مات فهل سيؤثر ذلك على رحلة الليلة؟» لم
نجه بل نظرنا في وجوه بعضنا ونحن على يقين بان جلال الزيايدي قد
رحل الى ربه. بعد اقل من خمس دقائق عادت السيارة التي كانت قد
نقلت جلال وترجل منها ماهر وهو يبكي بصوت عال، وبعده طلال الذي
بدا الحزن على وجهه، ثم عاد الخوئي وهو يقول لنا «البقاء في حياتكم،
عظم الله أجركم في جلال» اجتاحتنا موجة من الوجوم والبكاء. أهكذا
الموت يأتي سريعا ومباغتا وحاسما ليحرم جلال الزيايدي من فرحة
وصوله الى النجف وملاقة أهله؟ قبل دقائق كان بيننا متحمسا وسعيدا
وقويا.. ثم يغيب بهذه الطريقة؟.

حسم الخوئي حالة الذهول التي شعرنا بها وقال «هذا امر الله تعالى
وعلينا الان ان نستعد للرحيل»، سأل ماهر: «وماذا عن جلال؟» أجاب
الخوئي «سينقل الى النجف ويدفن هناك.»

10

في انتظار ما لا يحدث

مزق هدير اربع طائرات هليكوبتر كبيرة، ومخصصة للمهمات الليلية،
رداء الصمت الذي كان يلفنا، هبطت الطائرات الاربع في موقع قريب
منا، تطاير التراب في كل الجهات، تم شحن السيارتين في طائرتين،
وتوزع افراد قوة المارينز على الطائرات، خصصت لنا الطائرة رقم 3،
صعدنا اليها من غير ان نلتفت الى موقع خيمتنا تحت السقيفة.
في الليل تضيع كل ملامح الجغرافيا، خاصة في ليلة بلا نجوم مثل تلك
التي كنا قد غادرنا فيها قاعدة طلييلة الجوية باتجاه مدينة النجف. كان
رحيل جلال الزيايدي قد اثث ارواحنا بالحزن، ومع ذلك كان علينا ان
نواصل تلك الرحلة الموعودة. عندما صعدنا الى طائرة الهليكوبتر رقم 3
المخصصة للمهمات الليلية، وكانت واحدة من اربع طائرات حلقت كلها
في ذات الاتجاه، لم نجد اية مقاعد مخصصة للجلوس، فجلس بعضنا

على الحقائب او فوق صناديق المياه، بينما اتخذ الخوئي من عتبة تقود الى مقصورة القيادة مكانا له.

كانت هناك نافذتان او كوتان واحدة عند يمين الطائرة والآخرى عند يسارها مثبت عند كل منهما مدفع رشاش كبير، ملحق به مخزن كبير للرصاص، وكان الجنديان اللذان يقفان خلف المدفعين قد وضعا على عينيهما نواظير ليلية استعدادا للرمي. قريبا من المدفع الايمن وجدت مكانا مناسباً للجلوس فوق ارضية الطائرة.

حلقت الطائرات بصور تدريجية، ولم تمنع قطع الاسفنج التي وضعناها في آذاننا من ان يتسلل الهدير الى رؤوسنا. تذكرت رواية (الطيران الليلي) للكاتب الفرنسي انطوان اكزوبيري، التي يتغزل فيها بالليل والنجوم، من غير ان يغفل فيها الحديث عن مخاطر الطيران خلال الليل. لم أكن اعرف فوق أية ارض كنا نحلّق حينها، لكنني حدست اننا نطير فوق نخل السماوة، ونهر الفرات او دجلة، بعد ان كنا قد تجاوزنا زقورة اور وبقايا بلاد سومر. عندما حاولت ان انظر من خلال الكوة التي تمتد منها سبطانة المدفع الرشاش لم اكن ارى سوى ظلمة الليل. رددت مع نفسي ما احفظه من مطلع لقصيدة للجواهري وهو يقول:

«سلامٌ على هَضْبَاتِ الْعِرَاقِ
وَشَطِيهِ وَالْجُرْفِ وَالْمُنْحَنِ
عَلَى النَّخْلِ ذِي السَّعْفَاتِ الطَّوَالِ
عَلَى سَيِّدِ الشَّجَرِ الْمُقْتَنِيِّ
وَدَجَلَةِ تَمْشِي عَلَى هُونِهَا
وَتَمْشِي رِخَاءَ عَلَيْهَا الصَّبَا
وَدَجَلَةِ زَهْوِ الصَّبَايَا الْمَلَّاحِ

تخوض منها بماء صرى
سلام على قمر فوقها
عليها هفا واليها رنا
تدغدغ اضواؤه صدرها
وتمسح طياتها والثنى
كأن يدا طرزت فوقها
من الحسن موشية تجتلى»

أَلحَّ علي مشهد غرق النخيل في مدينتي عنة وحديثة في غرب العراق
عندما امر صدام حسين بضمهما الى سد صدام ففتحت عليهما المياه،
كان ذلك في منتصف الثمانينات، وكنت قد حلقت فوق المدينتين بطائرة
هليكوبتر مع مجموعة من الصحفيين، كانت المياه تتقدم في طوفان كبير
فتبتلع كل شيء حتى قامات النخيل التي بدت مثل صبايا يرفعن
رؤوسهن متوسلات لإنقاذهن من الغرق. كان سبب ضم المدينتين
التاريخيتين الى مشروع السد لاغراض معاقبة الاهالي وقتذاك لشعور
صدام بعدم إخلاصهم له.
لا بد ان نكون قد حلقنا، ونحن في طريقنا بين الناصرية والنجف، فوق
مساحات الاهوار التي كان صدام قد امر بتجفيفها، وتهجير سكانها
بحجة شق نهر حمل اسمه. لم يعتد صدام حسين فقط على ابناء شعبه
ويضطهدهم، بل اعتدى على الجغرافيا التي خلقها الله تعالى وتلاعب
بها، كنا ننظر الى ساعاتنا بينما طائرة الهليكوبتر ما تزال تقطع
المسافات، كان قد مضى على تحليقنا اكثر من ساعتين، واستغربت اننا
لم نصل الى النجف بعد، فالمسافة بين الناصرية والنجف تقطع بواسطة

السيارة في اقل من ثلاث ساعات، ولا بد ان يكون زمن الرحلة بواسطة الطائرة اقل من ذلك بكثير.

قدرت أن قائد الرحلة سلك خطوطا اخرى بسبب العمليات الحربية ومن أجل توخي الحذر.

نهضت لأنظر من خلال النافذة عسى اجد أي تفصيل فوق الارض، هالني ما شاهدت، كانت المدفعية الرشاشة المضادة للطائرات والتابعة للقوات العراقية تطلق نيرانها باتجاه طائرتنا، بينما ترد عليها طائرات الهليكوبتر الاربع ومن كل الجهات، كان أزيز الطائرات يمنعا من ان نسمع أي شيء. بدت النيران المنطلقة من الارض والمتجهة نحو الطائرات التي تقلنا مثل ألعاب نارية قريبة للغاية، انتبه الجندي الاميركي الى وجودي واقفا بقربه مراقبا ما يحدث فأمرني بالجلوس خشية ان تصل نيران المدفعية المضادة الى الطائرة، وقد تتسلل احداها من خلال النافذة فتصيبني. على العموم فقد كنا نرتدي الدروع المضادة للرصاص والتي تغطي صدورنا بالكامل. تمنيت ان لا تصاب طائرتنا بأية قذيفة مدفع مضاد للطائرات او بصاروخ ارض جو لنصل بسلام، ثم انه من العار ان نموت بنيران المدفعية العراقية ونحن تحملنا مشاق هذه الرحلة لمساعدة مواطنينا، سألت نفسي فيما اذا كنت انا الان فوق الارض، في بيتي ومع عائلتي في بغداد، وكانت هذه الطائرات تحلق فوق رؤوسنا مثلما كان يحدث خلال حرب الخليج الثانية، أما كنت تمنيت، بل دعوت الله، أن تسقط تلك الطائرات او تنفجر في الجو؟. فكرت ايضا بالجنود العراقيين المرغمين الآن، أو المؤمنين بتنفيذ واجبهم لاسقاط هذه الطائرات التي تمطرهم بوابل من الرصاص الذي يبلغ طول الواحدة منه اكثر من خمسة عشر سنتيمترا. كيف ستكون مشاعري لو كان اخي او احد اقاربي او صديقي بين المقاتلين الذين يرشقوننا الآن بالرصاص. اقول الحق لقد

تمنيت ودعوت الله ان لا يصاب اي جندي عراقي باية رصاصه منطلقة من الطائرات التي تقلنا، بل ومن اي سلاح كان. لماذا لا يتمردون على أوامر صدام لينقذوا العراق من ظلمه؟ قلت مع نفسي، لكنهم ربما، او يقينا بانهم يدافعون عن الوطن ضد الغزاة. ولكن من هم الغزاة هنا؟ صدام وعائلته ونظامه، ام قوات التحالف التي جاءت لتخلص العراق من هذا النظام؟ وهل بالفعل جاءت كل هذه القوات من اجل عيون العراقيين. قطع هبوط الهليكوبتر المفاجئ اسئلتي وتداعياتي الداخلية. بعد ما يقرب من اربع ساعات من التحليق حطت الطائرات في ارض خالية، اربع ساعات بين الناصرية والنجف بينما كان يفترض ان يكون زمن الرحلة اقل من ساعة. مع ذلك فرحنا بنهاية هذه الرحلة الطويلة والشاقة.

فُتحت بوابة مؤخرة الطائرة ونزلنا، كانت الظلمة ما تزال تغلف كل شيء، والدوار الذي اصاب رؤوسنا لم يتح لنا ان نميز المكان الذي نحن فيه، لكن حازم الشعلان نظر حوله وقال لي، بينما هدير محركات الطائرات ما زال متواصلا، «انظر الى تلك السقيفة، انها تشبه الوكر الذي كانت خيمتنا تنتصب تحته في قاعدة الناصرية» و اشار الى سقيفة تقع على مقربة من المكان الذي هبطت فيه الطائرات الاربع، كانت السقيفة تغرق في ظلام بدا مثل طين لزج من الصعب تمييز ملامحها، انها هناك مثل شبح يلح للالتصاق بذاكرتنا.

قدرت وقتذاك أننا ربما هبطنا في قاعدة جوية اخرى، وفي كل القواعد الجوية العراقية تتشابه اوكار الطائرات المقاتلة، قدرت ربما هبطنا في قاعدة الكوت الجوية، ان لم تكن في النجف قاعدة جوية، ولكن لماذا قاعدة الكوت؟.

سألت الخوئي ان كنا في النجف ام لا، فاجاب على الفور «لا اعتقد اننا في النجف» بينما قدر الخفاجي بعد ان حاول ان يستطلع المكان وهو ينظر فيما حوله، اننا ربما نكون على الطريق بين النجف وكربلاء. لم يبق من اسأله سوى (ابو علي) قلت له بالانكليزية: «هل نحن في صحراء النجف؟» فرد علي ممتعضا، وكانت هذه هي المرة الاولى التي اراه فيها منزعجا «بل نحن في صحراء الناصرية»، قلت «ماذا تعني، هل عدنا الى مكاننا في قاعدة طليعة بعد اربع ساعات من الطيران؟» فأجاب وهو يهز رأسه مؤكداً كلامي «لسوء الحظ نعم عدنا إلى نفس مكاننا.» وقع الخبر علينا مثل الصاعقة، المكان الذي نكرهه، والذي فقدنا فيه قبل ساعات واحدا من اعز اصدقائنا (جلال الزيادي)، المكان الذي كنا نحسب اللحظات فيه من اجل مغادرته، عدنا اليه بعد طيران اربع ساعات مملة؟ عدنا لى خيمة البؤس، هكذا اسميتها، وهكذا صار التعريف بها، وهناك اخبرنا (ابو علي) بان القوات الاميركية في النجف ارتكبت خطأ، إذ لم يكن هناك من ينتظرنا في مطار النجف العسكري، ولم تعط الموافقة للطيارين بالهبوط، وخشي الطيارون على حياتنا لا سيما ان النجف لم تكن قد تحررت بعد بصورة كاملة من ميليشيات نظام صدام، فعادوا بعد ان بقوا محلقين في الجو انتظارا للموافقة على الهبوط، لكن الموافقة لم تأت.

كان (ابو علي) يتحدث حزينا وحانقا، فمثل هذه الاخطاء لا تحدث لا سيما ان مواعيد الطيران والهبوط كانت معدة بدقة ومنذ يومين، واي خطأ في تلك المواعيد كان يمكن ان يعرضنا للقصف من قبل القوات الاميركية ذاتها فنكون ضحية (النيران الصديقة) التي راح ضحيتها العديد من الاميركان والبريطانيين في جبهات القتال.

في بحر النجف

عدنا الى خيمة الناصرية متعبين، وكان التعب النفسي والشعور بالخذلان اكبر من تعبنا الجسدي، اربع ساعات من الطيران بواسطة هليكوبتر مخصصة للعمليات القتالية الليلية وليس لنقل الاشخاص تدور بنا في الاجواء العراقية وتحلق فوق المنطقة التي كان من المفترض ان نصل اليها ثم نعود ادراجنا الى تلك الخيمة البائسة؟ كشفت تلك الحادثة الثغرات التنظيمية الكثيرة التي تعاني منها القوات الاميركية. فهل من المعقول ان تحلق اربع طائرات هليكوبتر مقاتلة من غير ان تعطي القوة الجوية اشارة للقوات البرية في النجف لتأمين منطقة الهبوط واستقبالنا؟ القوات الاميركية على العموم تهتم بالاستعراض اكثر من اي شيء آخر، استعراض القوة، واستعراض الاستعدادات وكأنهم يمثلون في فيلم حربي. كان النوم هو الملاذ الوحيد لنا للهروب من الاسئلة الملحة التي كانت تنهش في اذهاننا.

اندسسنا في فراشنا (بارشوتاتنا) مرة اخرى، يلفنا الصمت والوجوم، واشك إن كان احد منا قد نام الساعات المتبقية من تلك الليلة. في صباح اليوم التالي عرفنا ان الموعد الجديد لإقلاعنا الى النجف هو الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من صباح ذات اليوم، لكن الطائرات اصبحت جاهزة عند منتصف النهار، اذ تم استبدالها باخرى اصغر منها، كون الاولى كانت مخصصة للطيران الليلي فقط. ثلاث طائرات هليكوبتر ذات المروحيتين الكبيرتين كانت في انتظارنا هذه المرة، قلت: «لقد خصصوا لنا هذه الطائرات التي تسقط من تلقاء

نفسها، في اشارة الى سقوط ثلاث طائرات من ذات النوع من تلقاء نفسها في صحراء الكويت عند بداية العمليات الحربية، وقتل كل من فيها، ما دفع بالصحاف (بطل الاعلام القومي) وزير اعلام نظام صدام حسين لأن يصرح متباهيا وقتذاك بأن القوات العراقية هي التي اسقطت هذه الطائرات.

سأل ماهر الياسري: «هل انت متأكد من ان الطائرات التي سقطت هي من ذات النوع الذي سينقلنا الى النجف؟ كان الصمت هو الجواب الكافي على سؤال الياسري، ما دفع بالخوئي لان يسألني مازحا «هل كان يجب ان تتذكر هذه المعلومة الان وتخبرنا بها؟»

لم نأخذ معنا سيارتينا اللتين خصصتا لنا بسبب صغر حجم الطائرات، كما لم يرافقنا عدد كبير من افراد المارينز لذات السبب، ووعدنا (ابو علي) بان تشحن السيارتان في طائرتين في اليوم التالي، لكننا لم نر هاتين السيارتين فيما بعد اذ لم يتم شحنهما، كما لم يتم شحن الاذاعات التي كانت ستوزع على المحافظات لنبث من خلالها برامجنا التي اعدناها لحث المواطنين على التعاون وعدم الاقتتال وغيرها من البرامج، فمئذ ان كنا في البحرين أُخبرنا بأن الاذاعات وصلت الى الكويت وستكون في العراق حال وصولنا، بل كانت هناك اجهزة مذياع ترانسستور تعمل اوتوماتيكيا من غير بطارية كان يجب توزيعها على المواطنين مجانا ليتمكنوا من سماع برامجنا. كانت هناك الكثير من الوعود الاميركية التي لم تنفذ والتي ساهمت بشكل مباشر في فشل مهمتنا، منها عدم توفير السلاح الشخصي لحماية انفسنا وقت الضرورة إذ كان يجب تجهيزنا بمسدسات او بنادق حديثة صغيرة، او بنادق كلاشنيكوف من تلك التي سيطروا عليها من الجيش العراقي لتجهيز فريق من العراقيين من النجف لحمايتنا. وكان الياسري شديد الالاح

على ديفيد (ابو علي) لتجهيزنا بالاسلحة لكنهم كانوا يقابلون هذه المطالب بالصمت.

عندما حلقت الطائرات تركت خلفها ما يشبه العاصفة الترابية فوق الارض. كنا نخشى ان يتكرر ما حدث امس فنعود الى مكاننا بعد ساعات من التحليق، لكننا، ولحسن الحظ وصلنا الى صحراء النجف بعد خمس واربعين دقيقة من الطيران النهاري.

قال (ابو علي) بعربية مشوشة «حمدا على السلامة»، سألته: «هل انت متأكد اننا في النجف؟» فأجاب على الفور «بالتأكيد». كنا قد هبطنا في منطقة معزولة في صحراء بحر النجف، وكان هناك افراد من القوات الخاصة الاميركية في انتظارنا، بقينا تحت الشمس الحارقة ساعة ونصف الساعة ريثما يوفرون لنا سيارات تنقلنا من هذه المنطقة المكشوفة الى مكان آمن إذ كانوا يعتقدون اننا اصطحبنا معنا سيارتي (الشيفروليه) المخصصتين لنا.

سألت الخوئي إن كان هنا بحر بالفعل؟ فأجاب «هذا ما تؤكده جميع المصادر التاريخية، التي تفيد بان نوح كان قد رسى بسفينته في هذا البحر، ولهذا فإن قبره قرب قبر الامام علي (عليهما السلام) في النجف، لكن هذا بحر قد جف منذ زمن بعيد.»

جاءنا العميد غريك أمر القوات الخاصة في منطقة النجف، لم يعرف نفسه كعميد، بل قال غريك، كما انه لم يكن يحمل اية رتبة على ملابسه، كان نحيفا ومرحا وذا شعر طويل وشارب كث، ويتصرف بتواضع، حيّانا قائلاً «السلام عليكم»، ثم دعانا لان نترك المكان، توزعنا في العربات المدرعة وسيارات البيك أب، وقبل ان نترك المكان لاحظنا ان ثمة عراقيين مدنيين كانوا يرتدون الثياب المحلية (الدشاديش) وهم يصعدون الى

الهليكوبترات التي كانت قد اقلتنا، وكانوا يخضعون للحراسة، فقدرنا انهم اسرى يتم نقلهم الى قاعدة طليعة في الناصرية او الى مكان آخر. تم نقلنا الى معمل اسمنت الكوفة الذي كانت القوات الاميركية قد اتخذت منه قاعدة مؤقتة لها، دخلنا للاستراحة في المطعم الذي كان مخصصا للعمال، وتحول الى قاعة منام الآن، اسراب من الذباب كانت تحوم في المكان، قرأ احدا مقطعا من قصيدة تمتدح هواء النجف، فسألته: «لماذا نسي الشاعر الذي كتب هذه القصيدة ذكر الذباب؟ لقد ظلمه؟» قال آخر ربما كتبها في الشتاء، فأجاب الخفاجي، وهو نجفي، الذباب في النجف موجود صيفا وشتاءً.

أطل علينا شخص نحيف يرتدي دشداشة سوداء ويضع نظارة شمسية دائرية العدسات ويبدو انها من ماركة (ري بان) Ray Ban الغالية وكان يدخن سيجار (كوهيبا) الكوبي، عرّف نفسه «السيد اياك جمال الدين»، وهو ابن عم الشاعر العراقي الراحل مصطفى جمال الدين، كان قد وصل من دبي قبل اربعة ايام وبقي في معمل الاسمنت ولم يتمكن من زيارة مدينة النجف بسبب الاوضاع الامنية، وهو شاب متحمس، كان قد تعرض لاكثر من محاولة اغتيال خلال وجوده في ايران، رحب به الخوئي بحرارة، تنفس سيجاره واطلق الدخان كثيفا فمأزحته عندما شممت رائحة السيجار وقلت له: «سيد وتدخن كوهيبا في صحراء النجف، وفي هذا الجو الحار؟» ابتسم وسأل: «وكيف عرفت انها كوهيبا؟» قلت: «من رائحة الدخان». استل سيجارا وقدمه لي لكنني اعتذرت، وقلت له: «سأقبلها منك في وقت آخر». وصارت لنا في اوقات اخرى كثيرة لقاءات في مضيفه وبيته في بغداد حيث دخت من سيجاره الكوبي الكثير بعد ان تعمقت علاقتنا ليصير اليوم واحدا من اقرب الاخوة الى نفسي، وهو اليوم عضو في مجلس النواب (البرلمان) العراقي منتخبا

ضمن القائمة العراقية الوطنية عن محافظة ذي قار (الناصرية) التي يتحدر من إحدى مدنها (سوق الشيوخ).

لم تكن النجف قد تتحررت بعد من ميليشيات «فدائيي صدام» الذين اتخذوا من مرقد الامام علي وبعض الازقة متاريس لهم، ولمعرفتهم ان القوات الاميركية لن تدخل الى حضرة الإمام او الى ازقة المدينة القديمة، وباستثناء ذلك كانت المدينة بأكملها تحت سيطرة القوات الاميركية.

عند الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم قرر الخوئي زيارة المدينة، باستثناء مرقد الإمام علي، ريثما يتم طرد ميليشيات صدام منه. هيأت لنا ثلاث عربات مدرعة لمرافقتنا وحمايتنا في اول زيارة لمدينة النجف، قفزت على ظهر احدى العربات المدرعة بالقرب من غريك الذي كان يقف خلف مدفع رشاش، لالتقط بعض الصور بالرغم من ان الخوئي حذرني من خطر الوقوف فوق ظهر المدرعة.

كان الرتل يتجه نحو مدينة النجف التي تقع فوق هضبة عالية. اول ما بدا لنا لمعان قبة مرقد الإمام علي وانعكاس ضوء الشمس عليها، والمآذن المطلية بالذهب الخالص، وحولها بدأت تتضح معالم المدينة العتيقة التي يسميها اهل النجف بـ«المشهد» نسبة الى مشهد الإمام علي، لهذا يقولون عن النجفي الخالص (هذا مشهدي) وعلى النجفي الذي نزح من المدن الاخرى (هذا نجفي).

والنجف التي كانت قد تأسست بعد ان اتخذت مدفننا للإمام علي الذي كان يحكم الامة الاسلامية من الكوفة التي تبعد مسافة عشرة كيلومترات عن النجف، صارت اليوم ملتصقة بها بفضل التوسع العمراني. وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد أول من جدد بناء مرقد الإمام علي قبل ان تكون النجف مدينة علمية تضم الحوزة والمرجعية الشيعية في العالم، كما تضم اكبر ثاني مقبرة في العالم بعد مقبرة بكين في الصين، إذ

توجد في مقبرة وادي السلام ملايين من قبور المسلمين وخاصة الشيعة
ومن جميع انحاء العالم.

كان كل شيء في المدينة قد تغير، بيوتها ووجوه ناسها بدأت كالحة
ومتعبة، الشوارع والازقة محفورة وتلال القمامة في كل مكان، اليأس
وملايين من الاسئلة ترتسم فوق الوجوه المتعبة، الاطفال حفاة، والجوع
ترك معاملة عليهم، رغم ذلك هم يطلقون ابتساماتهم البريئة التي لا
يملكون بديلا لها للتعبير عن ذواتهم. المدينة تبدو وكأنها قد تخلصت توا
من هولاءكو الذي ترك آثاره في العيون والوجوه والبيوت والشوارع
والسيارات المحطمة والعربات التي تجرها الحمير. هل نحن في مدينة
تنتمي إلى القرن الاول من الالفية الثالثة بالفعل؟ مدينة تعد من
الحواضر الاسلامية والعلمية والتجارية، تقع في العراق الذي يعد واحدا
من اغنى بلدان العالم؟

كانت المدينة تغرق في أثير من التراب وتبدو سابحة في سراب يأتي من
أزمة الخراب. كان الرجال يجتمعون في مجالس خارج البيوت بينما لا
أثر للنساء، فهذه المدينة محافظة على تقاليدھا الاجتماعية التي لم تتأثر
بكل تطورات العصر. لمح احد شيوخ المدينة وجود الخوئي في العربة
المصفحة فصاح: «هذا ابن الخوئي»، ترك الخوئي العربة وراح يحيي
الناس الذين سرعان ما تحلقوا حوله ، ثم اخرج من جيبه دفتر ملاحظات
صغيرا وراح يسجل طلبات الاهالي.

كانت المدينة عطشى، فقد تعرضت محطة ضخ المياه للعطل اثر تفجير
انبوب الضخ الرئيسي، وكذلك الكهرباء، لكن الجميع كان يشكو من
انقطاع المياه، كنا نجتاز الازقة والناس تصيح «نريد ماء»، المدينة كانت
عطشى ونهر الفرات على مسافة اقل من 10 كيلومترات عنها. كان غريك
وبقية افراد قوته يحيون الاهالي بـ(سلام عليكم) كان الناس يردون

«ووتر، ووتر، نريد ماء» الرجال يدفعون عربات خشبية فوقها خزانات بلاستيكية لنقل الماء من السواقي القريبة من المدينة والتي تحولت الى حمامات مجانية للشباب.

كان الناس في الأزقة التي درنا فيها يوقفون الرتل لتحية الخوئي، نجل اشهر مرجع عرفته الطائفة الشيعية عبر تاريخها الطويل، كما ان عبد المجيد الخوئي كان يمارس مع شقيقه الراحل محمد تقي، ادوارا اجتماعية مؤثرة بين اهالي النجف، اضافة الى الجهود التي كانا يبذلانها، مستغلين موقعيهما، لإنقاذ الآخرين من مخالب الاجهزة الامنية الصدامية، ولهذا لم يكونا يعيشان في برج المرجعية الذي عاش فيه غيرهما من ابناء المراجع، بل خصصا اوقاتهم وجهدهما لخدمة الناس وهذا ما اكسبهما شعبية لم تنس بين الاهالي.

توقف الرتل وهبط الخوئي طارقا باب بيت المرجع محمد سعيد الحكيم لتحيته، لكن هناك من اخبره ان (السيد) غير موجود حاليا في البيت ولم يفصح عن مكان اقامته، ذلك ان غالبية المراجع والعلماء انتقلوا الى اماكن سرية خشية على حياتهم من ان يتعرضوا للاختطاف من قبل اجهزة نظام صدام حسين، او ان يجبروا على استصدار فتاوى لصالح هذه الجهة او تلك.

بعد ساعة ونصف الساعة عدنا من جولتنا بين بعض احياء النجف من غير ان نصل الى حضرة الامام علي، وصلنا الى معمل اسمنت الكوفة، ومن هناك هاتفت صحيفة «الشرق الاوسط» التي كانت اول صحيفة تدخل النجف باعتبارها اول مدينة عراقية محررة من نظام صدام حسين، وتنشر تقريرا من هناك، كما انها نشرت اول حديث للخوئي من مدينة النجف باعتباره اول شخصية عراقية تصل الى الاراضي العراقية.

أدخلوها آمنين

أريد ان اتوقف هنا عند مسألة دخولنا للاراضي العراقية وأقول وبفخر اننا، السيد عبد المجيد الخوئي، ونحن معه، كنا اول العراقيين من الذين يقيمون في الخارج يدخلون اول مدينة وارض عراقية في الوقت الذي كان فيه صدام حسين ما يزال يحكم العراق، ومليشياته نشيطة وتقاوم في المدن العراقية ومنها النجف التي تجولنا فيها، وتشهد بذلك الصحف والاذاعات والفضائيات التي تحدثت عن وجودنا في العراق، والتي نقلت عن الخوئي وعني لقاءات حية من مدينة النجف عبر الهاتف الفضائي، بينما كان احمد الجلبي رئيس المؤتمر الوطني قد دخل بعدنا ووصل الى قاعدة طلييلة في الناصرية بعد اربعة ايام من مغادرتنا لها، واظهرته بعض المحطات الفضائية وهو يرتدي بدلة انيقة ومحاطا بحشد من

المسلحين لحمايته، بينما كان الخوئي يرتدي دشداشته المتربة ونام تحت خيمة بأسة من غير ان يحيط به اي مسلح.

في ذلك المساء تحدث ماهر الياسري عبر الهاتف مع عدد من اصحابنا الذين بقوا في قاعدة البحرين حيث كانوا يستفسرون عن اسباب موت جلال الزياي المفاي، وكان الياسري يصف لهم بالتفصيل الممل كل دقائق حادثة موت الزياي، وفوجئنا ان احدهم، وكان من ديترويت ويدعي بانه كاتب، وكان محبا لإثارة المشاكل والتدخل فيما لا يعنيه، لا لشيء سوى لاجتذاب اهتمام الاخرين، كنت، كما غالبية المجموعة، لا نطيقه بسبب تصرفاته الفجة، كان هذا قد اطلق شائعة بان الاستخبارات المركزية الاميركية هي التي قتلت الزياي، ونسب مصدر هذا الخبر الى احدنا من غير ان يسميه لاثارة الفتنة في ما بيننا، وادعى بان ال CIA كانت تتعقبه (هو شخصيا) في اميركا لتمنعه من الوصول الى العراق. بالطبع سخرنا كلنا من ذلك الادعاء، فكلنا نعرف كيف مات الزياي، ثم لماذا يقتله الاميركيون وهو مواطن اميركي ويعيش في اميركا؟ لماذا يقحم ذلك الفضولي نفسه في حادث موت الزياي ويدعي ان المخابرات الاميركية تتعقبه هو منذ كان في الولايات المتحدة؟ لو كانت المخابرات الاميركية لا تريد وصوله الى العراق لمنعته، ثم من يكون هو؟ فلم يكن يشكل شيئاً في الحياة السياسية او الثقافية او الاجتماعية، واذا كانت المخابرات الاميركية تتعقبه فلماذا قتلت الزياي؟ القوات الاميركية تبذل كل شيء وتخصص لنا هذه الطائرات والحماية حتى نصل بأمان الى العراق فكيف تقتل رجلا بسيطا وطيبا مثل الزياي.

بالرغم من ان هذه الشائعة بدت سخيقة للغاية إلا انها عكرت صفو مزاجنا، وبخاصة الخوئي الذي قال «استغرب من شخص، له تجاربه الحياتية ويدعي انه كاتب ومثقف، يثير مثل هذه المشاكل السخيقة التي

تدل على فراغه من اجل اثاره اهتمام الاخرين؟» ثم تساءل «كيف نتوقع من شخص مثل هذا ان يخدم اهله وبلده؟.»

خصصت غرفة مهندس ورشة المعدات الثقيلة لنام فيها، كانت روائح الغاز والزيوت تغلف المكان الذي ازدحم بالمعدات والاجهزة الميكانيكية الثقيلة. قال الخوئي «ناموا مبكرين فغدا سنخرج عند الخامسة فجرا» وكان حازم الشعلان على موعد سفر ليتركنا فجر اليوم التالي الى مدينته الديوانية.

كانوا قد وضعوا سريرا من تلك الاسرة المتنقلة التي يستخدمها الجنود، في الغرفة، ليستخدمه الخوئي، لكنه اعتذر عن عدم النوم فوق السرير كونه يعاني من مشكلة صحية في ظهره، ولكننا كنا نعرف الحقيقة، فهو لا يريد ان يفضل نفسه علينا فينام فوق السرير بينما نفتش نحن الارض، وقررنا عدم استخدام السرير، وبالرغم من ان الخفاجي كان يريد النوم عليه الا ان الخوئي حسم الموضوع وقال: «أبو نورس ارجوك لا تنام فوق الارض والسرير خال، استخدمه انت» طلبت من الشعلان النوم فوق السرير لكنه فضل النوم فوق الارض، وكذلك الياسري. نزلت عند رغبة الخوئي ووضعت فراشي فوق السرير .

الليلة الاولى في النجف، ونحن لسنا في النجف، لسنا في قلب المدينة وبين ناسها واهلها، كنت اتمنى ان اعود الى تلك المدينة فامشي حرا بين دكاكين سوقها العتيق، تلك الدكاكين التي كنا نجد فيها كل شيء، حاجات لا نجدها في اسواق اية مدينة اخرى. لقد اختار شيعة العراق منذ زمن طويل، وبالضبط منذ العهد العباسي، مرورا بالسيطرة التركية العثمانية، ومن ثم تأسيس الدولة العراقية عام 1921، وما تلتها من جمهوريات العسكر والاحزاب المقبلة، ولاسباب طائفية سقيمة، ثلاثة اتجاهات، الاول التمسك بالحوزة العلمية كرمز لهم وبالمرجعية كمرشد

لمسيرتهم الدينية والحياتية، والثاني العمل في التجارة وتوفير مصدر رزقهم بعيدا عن العوز او الشعور بالحاجة الى الحكومة التي ابعدهم عن المناصب والوظائف في الدولة من جهة، وبسبب صدور فتاوى من مرجعياتهم تحرم عليهم العمل مع الدولة ابان الاستعمار البريطاني، ما افسح المجال واسعا أمام السنة لاحتلال المناصب العالية والوظائف الحكومية والعمل بحرية في الساحة السياسية، اما الاتجاه الثالث فهو المعارضة السرية لكل الحكومات المتعاقبة، ولم تكن المعارضة لغرض المعارضة، بل لانهم شعروا بالظلم خلال كل الاوضاع السياسية التي لم تتصفهم، ولهذا السبب نجد ان شيعة العراق يعانون من الشعور المزمّن بالاضطهاد.

كنت اتمنى ان ادخل سوق النجف وأرى وجوه تجاره الطافحة بالابتسامة والرضا، تجار الاقمشة (البزازين)، وتجار الاجهزة البيتية، وصياغ الذهب، حيث ان صياغة الذهب في النجف واحدة من اكثر المهن تميزا، وكانت المرأة عندما تخطب تُطلب لتجهيزها عقود واساور من ذهب النجف تحديدا، وكانت المصوغات الذهبية تشع بريقا من داخل محلات الصاغة. ثم مَنْ مثل اهل لنجف يخيظ العباءات والثياب الرجالية؟ بين هذه الدكاكين كانت محلات الحلوى النجفية تنتشر متناثرة ومزدحمة بالزبائن، انواع من الحلوى لا يجيد صناعتها الا النجفيون، وخاصة (الساھون) و(الدهينية) و(حلاوة الحليب) و(خبز بالحليب) وانواع لا تحصى من الكعك المعجون بالسكر والحليب والسمن.

لكن اسواق النجف كانت مغلقة، والتجار انسحبوا الى بيوتهم مع بضاعتهم خشية على حياتهم من اللصوص، ليس لصوص الليل بل لصوص النهار، أولئك الذين نصبوا من انفسهم زعماء وجهزوا اتباعهم بالاسلحة من اجل الاعتداء على الناس وسرقتهم في وضح النهار.

كنت اتمنى ان اضيع في ازقة هذه المدينة التاريخية و(عقودها)، متأملاً ابوابها المنحوتة على خشب الزان والصاج، مزينة بالمطارق النحاسية، بينما تطل من فوق الشناشيل (الاورسي) حسب التسمية المحلية، والتقي من تبقى من آل الجواهري، وبحر العلوم، وبقية العوائل النجفية التي كانت ترفد حركة الابداع العربي بالشعر والمقالة. فقد عرف العراق الطباعة من خلال النجف التي كانت قد انشئت فيها اول المطابع الحجرية، كما صدرت عنها اولى الكتب والنشریات الثقافية.

لكن ما كنت قد شاهدته مساء ذلك اليوم في شوارع وأزقة النجف من خراب سبب لي ردة فعل وقادني الى قرارة برّ حزينة. لم يكن ذلك خراب البيوت او الشوارع والابنية بل كان خراب النفوس التي بدت يأساً ومنحسرة الى داخلها. وليس بمقدورنا ان نلوم الناس على ذلك، فالحياة تواصلت تحت ظل نظام ظالم وقاسٍ مثل نظام صدام، لاكثر من ثلاثة عقود، وفي مدينة فرضت عليها العقوبات الادارية لاسباب كثيرة، اولها لانها شيعية ومناهضة لظلم النظام، وثانيها لأن اهلها انتفضوا عام 1991 ضد صدام حسين الذي كان يعاني من عقدة المدن الحضارية المبدعة مثل النجف والبصرة والموصل، بينما يتحدر هو من (العوجة) القرية المتخلفة في بلدة تكريت الخربة التي جعل منها مدينة بمقاييس عصرية، فكان كمن ألبس بدلة اوروبية حديثة جسد ريفي متخلف لا يجيد سوى ارتداء ثوبه البسيط.

وما اذكره عن مدينة النجف ينطبق على بقية مدن الوسط والجنوب، مثل السماوة والديوانية وكربلاء والحلة والبصرة التي تعد ثاني مدن العراق والميناء الوحيد في البلد، والتي تقع على ثلاثة انهر، هي دجلة والفرات وشط العرب، لكن اهلها يعانون من شحة الماء الذي يشترونه من الصحاريح السيارة. بل ان وضع مدينة النجف يعد افضل حالا من بقية

المدن التي كانت تطبق فيها الاحكام العرفية، وغالبية محافظيها من ضباط الحرس الجمهوري.

لقد امتدت يد التخريب الى التاريخ العمراني لهذه الحاضرة الاسلامية، فهدمت سلطات صدام كل الابنية القديمة المحيطة بحضرة الامام علي، وكذلك ما تبقى من سور المدينة التاريخي، بحجة التوسيع وتحديث النجف، فأزيلت العديد من أزقتها وأسواقها.

والنجف عبارة عن مقبرة كبيرة، إذ توجد فيها مقبرة وادي السلام التي أشرت إليها باعتبارها ثاني اكبر مقبرة في العالم، فالمسلم الشيعي، اينما كان في العالم، يتمنى ان يدفن في النجف، ودفن الموتى فيها يتم في الغالب في سراديب عائلية، وليس هناك ما يثير الاستغراب إذا ما عرفنا ان القبور العائلية تقوم داخل سراديب البيوتات القديمة، وهي اشهر مدينة من حيث وجود السراديب في بيوتها.

لقد حافظت النجف على ثوابت متوارثة، فهي خالية من دور العرض السينمائية، او الحانات، ولا تقدم الكحوليات في فنادقها او مطاعمها، والمرأة لا يمكن ان تسير في شوارع المدينة ما لم تكن محجبة، ولم تسجل عبر تاريخها أي نسبة للوجود السنني فيها، وإن كان السنة يزورون حضرة الإمام علي. لكن الغريب في هذه المدينة، المتطرفة في شيعيتها، انها كانت تضم حياً يسكنه اليهود ما يزال يحمل تسمية (عقد اليهود). وعلى مسافة ليست بعيدة عن النجف يقع قبر النبي (الكفل) الذي يتبعه اليهود الذين كانوا يسكنون حوله.

في حضرة الامام

عند الساعة الخامسة من فجر يوم السابع من ابريل (نيسان) ودعنا الشيخ حازم الشعلان مغادرا الى الديوانية التي تبعد مسافة ستين كيلومترا الى الجنوب من النجف، وهي المحافظة التي يتحدر منها حازم وتقيم فيها عشيرته، وكان قد قرر الالتحاق بعشيرته لمساعدة الاهالي هناك للسيطرة على الاوضاع الامنية واغاثتهم، وطلب الشعلان من ماهر الياسري، الذي يتحدر من ناحية (البدير) التابعة للديوانية والقريبة منها، مرافقته لزيارة عائلته التي لم يلتق بها منذ اكثر من اثنتي عشر عاما،

وهو المقيم في ديترويت في الولايات المتحدة، وكان الياسري يتحرق شوقا للقاء والديه وشقيقه الشاب المصاب بالشلل نتيجة تعرضه للتعذيب على ايدي الاجهزة الامنية العراقية لمشاركة ماهر في الانتفاضة وهروبه الى مخيم رفحا ومن ثم الى اميركا.

لكن ماهر، وشعورا منه بالاخلاص للخوئي، فضل البقاء في النجف لايام قليلة ريثما تستقر الامور قبل ان يغادر لزيارة اهله وعشيرته، وبالفعل ضحى الياسري بحياته خلال القتال الذي دار فيما بعد في صحن الامام علي.

سافر الشعلان الى الديوانية وقاد هناك انتفاضة سلمية ضد من تبقى من نظام صدام حسين وميليشياته، ففر المحافظ ومدير الشرطة والمسؤول الامني والحزبي، واعلن الشيخ حازم سيطرتهم على الاوضاع في الديوانية بعد يومين من وصوله الى هناك، وكان اول شخص في مجموعة الخوئي يتاح له تحقيق ما خطط له ضمن برنامج واهداف مجموعتنا، ولو اتاحت للآخرين ذات الفرصة في الوصول الى مدنهم وعشائرهم ربما، واقول ربما وغير جازم، كان قد نجح البعض منهم وينسب متفاوتة في تحقيق برامجهم، مثلما فعل الشعلان، اذ انهم لم يتم اختبارهم عمليا في ميادين تقديم الخدمات وكل ما استخلصناه منهم هو احاديثهم الحماسية حول ما سيقدمونه من قبيل «سأعمل كذا وسأنفذ كذا»، وعلى العموم فان غالبية منهم كانوا «مطلبين» بلا حدود، وغالبية منهم كانوا يأملون بالحصول على مبالغ طائلة وسيارات مترفة وحمايات شخصية لتنفيذ برامجهم، بينما لم يطلب حازم الشعلان اي شيء من الخوئي يوم ودعنا الى مهمته التي جاء من اجلها.

قرر الخوئي زيارة آية الله علي السيستاني، المرجع الشيعي الاعلى، الذي يقيم وسط مدينة النجف قريبا من مرقد الإمام علي في المدينة

القديمة، وكانت ميليشيات «فدائيي صدام» وحزب البعث قد هربت في الليلة الماضية من صحن الامام، وقيل ان مزبان خضر هادي، الذي كان صدام قد عينه قائداً على محافظات ومدن الفرات الاوسط، يبيت كل ليلة في صحن الامام، خشية من القوات الاميركية واهالي المدينة.

وقبل انسحاب ميليشيات «فدائيي صدام» من الصحن الحيدري تركت خلفها مخازن اسلحتها من الرشاشات المختلفة الاحجام، وكميات كبيرة من الاعتدة والقنابل اليدوية (الرمانات) وقاذفات (آر بي جي 7)، في بعض أواوين الصحن، وكانت جهة شيعية متطرفة قد سيطرت على هذه الاسلحة والاعتدة، ويصر اهالي النجف على ان اتفاقا كان قد تم بين مقتدى الصدر ومزبان خضر هادي، وميليشيات «فدائيي صدام» وحزب البعث، يوفر الاول بمقتضاه الحماية لبقايا النظام ويغطي موضوع هروبهم وينسحبون ليلا مقابل ترك اسلحتهم لجماعته، اضافة الى الكثير من الاموال التي تركها المسؤول البعثي مقابل الحفاظ على حياته.

وأجد أن من الامانة هنا أن اذكر ما قاله النجفيون بحق مزبان خضر هادي وشعورهم بالامتنان له كونه منع قواته وميليشياته من مقاومة الطائرات والقوات الاميركية البرية حفاظا على المدينة واهلها، ولأنه كان يعرف ان لا طائل من هذه المقاومة غير المتوازنة، بالرغم من ان غالبية من «فدائيي صدام» قاموا بمواجهة القوات الاميركية بناء على اوامر كانت قد صدرت لهم مباشرة من قادتهم الميدانيين. وذكر لي جار للبيت الذي كان قد استأجره مزبان خضر هادي في حي السعد في النجف قائلاً «طلب مني مزبان ذات ليلة استخدام هاتف بيتي كون هاتفه مراقبا، حدث ذلك قبل دخول القوات الاميركية الى محيط النجف، فسمعه يحدث صديقا له عبر الهاتف قائلاً له انه لا يدري ما يفعله، وكل شيء يبدو منتهايا وليست هناك اية نتائج مرجوة من البقاء او المقاومة، ثم اختفى

بعد تلك الليلة اذ لم يكن يبيت في البيت الذي استأجره ليكون مقره في مدينة النجف.»

ويؤكد الاهالي القول إن حضرة الامام علي كانت ومنذ فجر اليوم التالي تحت سيطرة جماعة مقتدى الصدر الذين سيطروا على جميع الاعتدة والاسلحة، كما ان غالبية ممن كانوا ضمن ميليشيات «فدائيي صدام» انظموا فيما بعد الى ميليشيات مقتدى الصدر للحفاظ على حياتهم من عمليات الانتقام والاخذ بالثأر ومن المحاسبة القانونية التي ستلحق بهم جراء ما اقترفوه من اعمال، ويسمي اهالي النجف اسماء اشخاص كانوا منخرطين في الاجهزة الامنية لنظام صدام، او عملوا كمخبرين لها وهم اليوم يرتدون العمام البيضاء والسوداء ويحملون تحت عباءاتهم رشاشات الكلاشنيكوف ضمن مجموعة الصدر، كما ان عملهم الجديد يوفر لهم الرواتب والنفوذ الذي كانوا يتمتعون به في السابق، وكانت قائمة بالاسماء والعناوين - للاشخاص الذين شاركوا في الهجوم على الخوئي، وساهموا بقتله وحيدر الرفيعي وماهر الياسري مباشرة - قد قدمها بعض وجهاء اهل النجف وشهود عيان تؤكد ان غالبية منهم كانوا من ازالام النظام السابق وانتسبوا فيما بعد لميليشيات مقتدى الصدر. قبل ان تغادر معمل اسمنت الكوفة الى بيت السيد السيستاني، كان النقاش ساخنا بين الخوئي وقائد العمليات في القوات الاميركية، اذ ان الخوئي كان يرفض ان ترافقه اية قوة حماية وهو يدخل الى وسط مدينة النجف، بينما اصر قائد العمليات على ان يخصص قوة من المدرعات وافراد المارينز لحمايتنا في تلك الجولة الصباحية، كون المدينة لم يتم تطهيرها تماما من ميليشيات «فدائيي صدام»، كما ان الخوئي لم يكن يعرف اية مفاجآت ستظهر امامه في وسط المدينة، ثم استقر الرأي على

ان ترافقنا مجموعة بسيطة من الحماية الى اطراف المدينة، ومن هناك نذهب مشيا الى بيت السيد السيستاني، وهذا ما تم بالفعل.

عند الساعة السادسة صباحا غادرنا مقرنا في معمل اسمنت الكوفة الى وسط المدينة، وبالتحديد الى منزل المرجع السيستاني. كنا اربعة اشخاص نرافق عبد المجيد الخوئي، ايااد جمال الدين، وعبد الحسن الخفاجي، وماهر الياسري، وانا. لم يكن أي منا يحمل اية قطعة سلاح، وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي ندخل فيها الى اطراف المدينة برفقة القليل من افراد الحماية الاميركية إذ لم يوافق الخوئي على ان ندخل المدينة وهم برفقتنا غير مبالٍ بالمخاطر التي قد تقايننا، وغالبا ما كان يردد قائلاً «يحموني من مَنْ؟ من اهلي واخوتي واصدقائي في النجف؟ لقد جئت لمساعدة الناس ولم آت بحثا عن نفوذ او منصب سياسي، ولست ممن يمشون وتحيط بهم الميليشيات المسلحة خوفا من ابناء بلدهم». وبقدر ما كان الخوئي محقا في ذلك، الا انه كان قد منح الجانب الآخر ثغرة يتسلل منها لينفذ جريمته فيما بعد. فالخوئي كان قد ترك النجف منذ ما يزيد عن اثني عشر عاما، وحدثت خلال تلك السنوات الكثير من التغييرات في النفوس، وتقسيم النفوذ، وكان هناك جيل من الفتيان او الصبية قد ترعرعوا في ظل توجيهات وتعاليم صدام حسين التي تحرض على القسوة والقتل المجاني، وهؤلاء لم ينفع معهم المنطق والحوار.

تمشينا راجلين الى منزل المرجع السيستاني، كانت المدينة تصحو توا، بعض المقاهي وافران الخبز والمحلات التي تباع (القيمر) العراقي والعسل قد فتحت ابوابها امام الزبائن، وهناك عدد من الرجال والصبية الذين يتسوقون الفطور الصباحي. كنا، ماهر وانا، ننظر الى المخابز ونشم رائحة الخبز الطازج الخارج من التنور توا، ونشتهي قطعة خبز

وقليلا من القيمر بعد ان مللنا من علب طعام المارينز المجفف. نظر الينا الخوئي الذي سمع همسنا وقال «انتظروا قليلا وسوف تشبعون خبزاً وقيمر.»

سنوات طويلة ونحن لم نذق هذا الفطور الذي كان اعتياديا بالنسبة لنا، سنوات طويلة ونحن محرومون من الفطور الجماعي بعد ان اخذتنا ماكنة الحياة الصعبة في اوروبا، محرومون من دعاء الأم وابتسامة الأب وسجال الاخوة واصوات الاخوات وهن يعددن الفطور. قابلنا امراة في العقد السادس من عمرها، صدرت مني تحية لم اخطط لها: «صباح الخير يمة».. ابتسمت بفرح وردت: «هلة يمة، الله ينصركم» طفرت من عيني دمعة ساخنة وانا اتذكر امي التي ماتت منذ خمس سنوات، تبعتها ابي بعد ثلاثة اسابيع من رحيلها وانا في لندن، وكنت بعيدا عنهما لسبع سنوات، كنت احلم بالعودة، كنت ارى ذلك الحلم يتكرر في منامي عائدا الى بيتنا في بغداد، ادفع باب الحديقة واصيح بأعلى صوتي «انا هنا، اخيرا عدت لكم» فتخرج امي تستقبلني بوجهها الطافح بالمحبة والخير، ويضمنني ابي الى صدره الدافئ، ويتحلق اخوتي حولي، فأقص لهم ما جرى لي في سنوات الغربة والنفي، لكنني حرمت حتى من تحقيق ذلك الحلم البسيط، فوجدت في النجف ان كل أم عراقية هي أمي، وان كل العجائز يشبهن أمي، وكل الشيوخ يحملون حكمة ومحبة أبي، تأملت الخوئي وقلت في سري: «ساعدك الله يا رجل، انت تعود الى مدينتك التي ولدت وترعرعت فيها فتجد ان كل افراد عائلتك واهلك واقربائك قد رحلوا بفعل اضطهاد صدام حسين وليس عندك من أمل تتشبث به سوى مساعدة اهل مدينتك والوقوف الى جانبهم في هذا الوقت العصيب.» كانت أزقة المدينة العتيقة تنفتح وتنغلق امامنا، ارتسمت في مخيلتي كل ازقة بغداد والبصرة والموصل واربييل والسليمانية وغيرها من المدن الغارقة

في ضباب التاريخ والكلمات وذاكرة الشخوص الذين صنعوا مجد تلك المدن فمناحتهم اسمها وشرف الانتماء لها. دلفنا الى زقاق ضيق وتوقفنا عند باب بيت نجفي تقليدي، وراح الخوئي يطرق الباب، وقد اعجبت بذاكرته للعناوين، تجمع حولنا بعض الرجال من جيران السيد السيستاني وهم ينظرون الى الخوئي غير مصدقين وجوده بينهم، ولم يجرؤ احد بسؤاله ان كان هو ابن الخوئي ام لا؟ بل سألونا نحن بالرغم من وجوده قربنا، فاكذنا لهم انه هو السيد عبد المجيد الخوئي، فهبوا اليه لتحيته بشوق عارم. فُتِح باب بيت السيستاني، واطل منه احد العاملين في البيت، وبعد التحية عرّف الخوئي بنفسه للعامل الشاب الذي لم يكن يعرف الخوئي كونه من اهالي مدينة كربلاء، لكنه حين سمع اسم الخوئي أدخلنا مباشرة الى البيت.

كان طراز البيت ساحرا من الداخل، فهو طراز عراقي اصيل، مجاز ضيق ثم الباحة (الطارمة) التي تقع على يمينها (البراني) وهي الغرفة المخصصة للضيوف حيث تحولت إلى مكتب يستقبل فيه المرجع اتباعه والناس الذين يتوجهون اليه باستئلتهم الفقهية. في شمال الباحة يصعد السلم بدرجاته المبنية من الكاشي (البلاط) الى الطابق الثاني وسطح البيت. هناك في عمق البيت تقع صالة كبيرة (غرفة المعيشة) التي تحولت الى مضيف مفروش حسب الطراز الشرقي، وبقية الغرف.

دخل الخوئي واياك جمال الدين الى المضيف بينما جلسنا نحن في صالة الاستقبال، طلب مني بلطف بالغ عدم التصوير، فوضعت الكاميرا في حقيبتني احتراما لطلبهم. وبينما كان الخوئي يتحدث مع النجل الاكبر للسيستاني، قدموا لنا الشاي العراقي الثقيل والخبز الساخن والجبن النجفي الابيض ذا الطعم الحلو والكامل الدسم. كانت هذه اول وجبة فطور عراقية حقيقية نتناولها في اول بيت عراقي ندخله، وهو بيت

آية الله السيستاني، وكنا قد شعرنا بها كأطيب وجبة نتناولها في حياتنا.

بعد حديث لم يكن قصيرا بين الخوئي ونجل السيستاني تركنا المكان، وعرفنا فيما بعد ان المرجع الشيعي قد انتقل الى مكان سري خشية على حياته من الظروف السائدة في النجف، وكانوا محقين في اتخاذ هذا الاجراء لا سيما ان الحوزة العلمية والمرجعية الشيعية هما اول من تعرضتا للتهديد من قبل مقتدى الصدر بعد تنفيذ جماعته جريمة قتل الخوئي.

في اليوم التالي خرج الاعلام الايراني الرسمي، الذي كان مؤيدا وقتذاك لنظام صدام حسين (يا للغرابة) بخبر يقول ان آية الله السيستاني رفض استقبال مبعوث وزارة الخارجية البريطانية عبد المجيد الخوئي.. والحقيقة هي ان السيد السيستاني لم يقابل اية شخصية ومهما كانت درجة قربها منه باستثناء افراد عائلته بالطبع، كما ان نجل السيستاني كان قد وعد الخوئي بلقاء خاص مع والده ريثما تهدأ الامور. فالسيستاني لم يكن في داره ليرفض استقبال الخوئي، كما انه لم يكن يعلم بزيارة الخوئي الذي ذهب الى بيت المرجع الشيعي بلا موعد مسبق، بل لم يكن يعرف ان ابن استاذة ابو القاسم الخوئي موجود في النجف أصلا.

ما ان تركنا الزقاق الذي يقع فيه بيت السيستاني حتى شاهدنا بوابة ضريح الإمام علي مفتوحة على مصراعها، كان هناك القليل من الزائرين للضريح كون الوقت مبكرا، ولأن الناس لم تكن متأكدة من حقيقة الموقف الامني داخل الحضرة الحيدرية، فابواب الضريح كانت مغلقة حتى ليلة ماضية بسبب لجوء ميليشيات «فدائيي صدام» ومزبان خضر فيها، واليوم فجرا مفتوحة امام الناس وكأن شيئا لم يكن. أعادني

مشهد البوابة المفتوحة التي بدت مثل ذراعين حانيتين، لاستقبال الزوار واحتضانهم، الى ذكريات قديمة، يوم كنت صبيا، حيث كنت آتي مع عائلتي لزيارة الإمام علي، وكبرت وكبر معي هذا الطقس المحاط بالقدسية والوقار. شعرت ان ثمة قوة خفية جبارة تسحب الخوئي نحو بوابة الضريح، وبالتالي تسحبنا نحن معه، لم يكن في برنامجنا اداء مراسم الزيارة في ذلك الصباح، بل كان يفترض ان نترك بيت السيستاني ونعود الى مقرنا بسبب عدم تأكدنا من حقيقة الاوضاع الامنية في وسط مدينة النجف، بل وفي داخل الحضرة الحيدرية، لكن الخوئي وجد ان المسافة بيننا وبين مرقد الامام علي قريبة، وان ابواب المرقد مفتوحة فقرر التوجه لزيارة الإمام من غير ان يتردد ولو لحظة واحدة، همست في اذن الخوئي: «ابو حيدر ربما الوضع غير آمن في الداخل لنؤجل هذه الزيارة» حدجني بنظرة استغراب وهو يقول «الله واكبر يا ابو نوره الحضرة مفتوحة امامنا ولا ندخل؟»

كنا نتقدم بلهفة عارمة للدخول الى الحضرة ونحن نقطع الشارع الرئيس، اوقف سائق سيارته وسط الشارع وترجل ثم ركض باتجاه الخوئي وهو يصيح «السيد الخوئي هنا، السيد الخوئي هنا» وعانق الخوئي باكيا، وسرعان ما تحلق الناس حوله يقبلونه ويحيون قدومه، غير مصدقين ما يشاهدونه بأعينهم، قال شيخ كان يعرف الخوئي «الحمد لله انك بيننا، ليس علينا ان نقلق بعد اليوم» وسأله إن كان سيبقى ام يرحل بعد ايام، فطمأنه الخوئي بانه باق لمساعدتهم.

وما ان اجتزنا بوابة المرقد التي قبلها الخوئي، ودخلنا لزيارة الضريح، حتى هرع الجميع لملاقاة نجل مرجعهم السابق وزعيم الطائفة الشيعية مهللين فرحين، تقدم اليه احد الشيوخ وقال له «لقد سمعتك تتحدث في الاذاعات وتقول: أنا في النجف، فتصورت ان ذلك مجرد شائعات

اعلامية، فكيف يمكن ان تترك اعمالك وحياتك في لندن وتأتي الينا؟ وها انت بيننا حقيقة، الحمد لله». ادينا مراسم الزيارة، وكان الخوئي يجهد بالبكاء غير مصدق أنه في مدينة النجف مرة اخرى وفي حضرة الامام علي.

وبعد ان انهى الخوئي صلاته، وقف امامه احد طلبة الحوزة وهو يغرق بالبكاء مرددا «لقد صبرتم على ما اصابكم من فواجع، وها قد نلتم نتائج صبركم يا سيدي» ثم احتضن الخوئي وهو ما يزال يبكي، وكان يشير الى المصائب التي لحقت بعائلة الخوئي منذ وفاة والده وهو تحت الإقامة الجبرية، ومرورا بإلقاء القبض على شقيقه الاصغر ابراهيم وإعدامه عام 1991، ومن ثم اغتيال شقيقه الاكبر محمد تقي عام 1994، كما ان هناك اكثر من اربعين من عائلة الخوئي وأصهاره لقوا مصرعهم على ايدي سلطات صدام حسين.

كان من الصعب إبعاد الناس من حول الخوئي، فهؤلاء أهله ومحبهه وليس هناك من له الحق بمنعهم من تحيته، وهو كان يرفض وبشدة منع أي شخص من السلام عليه والحديث معه، فقد كان خجولا، متواضعا، محبا للناس بشكل كبير، ولا يتردد عن تقديم المساعدة لكل من يطلبها او قبل ان يطلبها.

عندما تركنا الحضرة الحيدرية (هكذا يسمون مقام الامام علي)، كان هناك حشد من الناس يحيطون بالخوئي ويمشون خلفه، وكان السؤال الملح حول حقيقة الاوضاع في بغداد، وفيما اذا كان نظام صدام قد انهار ام لا. ذلك ان اهالي النجف لا يريدون ان يكرروا تجربة عام 1991 عندما انتفضوا ضد صدام حسين وتخلت عنهم القوات المتحالفة التي سمحت لصدام وقتذاك باستخدام طائرات الهليكوبتر (متحركة الجناح) والاسلحة لقمع الانتفاضة خشية قيام نظام شيوعي موالٍ لايران،

فخسرت كل عائلة نجفية تقريبا ثلاثة او اربعة او ستة من ابناءها الذين شاركوا، أم لم يشاركوا، في الانتفاضة.

14

نحن في النجف

عدنا الى موقعنا بعد الثانية عشرة ظهرا، وكانت اجهزة الاعلام العربية والاجنبية قد صحت على خبر وجود الخوئي في النجف الذي كانت قد نشرته صحيفة «الشرق الاوسط»، فانهاالت على الخوئي المكالمات الهاتفية.

تجددت الاتصالات من محطات تلفزيونية واذاعات وصحف ووكالات انباء غربية وعربية وهندية وباكستانية وفارسية. وكان الخوئي يؤكد وجوده في النجف وصحة ما نشرته «الشرق الاوسط» التي انفردت بنشر الخبر واللقاء به من هناك.

كان هناك من يسأله عن تعليقات إيرانية، وأخرى من شخصيات شيوعية في لبنان، وفي أماكن أخرى من العالم، حول الوجود الأميركي في النجف، فكان الخوئي يرد قائلاً «إن القوات الأميركية على بعد عشرة كيلومترات من الأماكن المقدسة، وغير مسموح لها بالاقتراب منها» ثم طلب من تلك الأطراف أن تترك الشأن العراقي للعراقيين الذين هم قادرون على حل مشاكلهم وإدارة بلادهم بجدارة، وتساءل قائلاً «أين كانت هذه الأصوات عندما كانت سلطات صدام حسين تظلم وتضطهد وتعدم العراقيين وتغتال العلماء من السنة والشيعة، وتعتدي على الحوزة، وتقتصف الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء والمدن العراقية الأخرى، لماذا لم تحتج هذه الأصوات أو تعترض أو تخرج في تظاهرة مضادة لممارسات صدام حسين لمناصرة الشعب العراقي؟»

أبدى الخوئي قلقه من التدخل الأجنبي في شؤون العراق والحوزة العلمية والمرجعية، والعمل على التفريق بين سنة العراق وشيعته أو بقية الأديان وتهديم الوحدة الوطنية باسم الشيعة وبحجة الحرص على المرجعية، وبعد نقاش غير مطول اتفقنا على أن نصيغ بياناً في هذا الشأن، وانصرفت لصياغة وطباعة البيان الذي قرأه، وأبدى ملاحظاته، وأجرى تعديلات فيه، وكان كمن يقرأ مستقبلاً ما سيحدث بوضوح، إلا أنه لم يتسن له للأسف نشر هذا البيان أو توزيعه، وما يزال البيان محفوظاً في كومبيوتر الشخصى الـ (لاب توب) منذ طباعته هناك.

قال الخوئي في بيانه «اليوم حيث يتحرر عراقنا بهمة شعبنا، من أجل إشاعة الحرية والحفاظ على حياة وكرامة وحرية كل العراقيين، وبجميع انتماءاتهم الدينية والقومية، يعز على البعض ممن يكونون الحسد والكراهية للعراقيين أن يروا شعبنا حراً كريماً، وبلادنا متحضراً وفي طليعة دول المنطقة. كما يغيض هذا النفر من العناصر الدخيلة، التي

تريد ان تتسلط على مقاديرنا وتحت تسميات مستوردة ومستنسخة من تجارب سياسية فاشلة كانت قد أقحمت الدين الاسلامي الحنيف، ومذهب أهل البيت، من شيعة علي، عليه السلام، محرضة المسلمين على عداة أهل الكتاب من الاديان الاخرى، وراسمة للاسلام في اذهان الاخرين صورة ارهابية لا تتناسب وموقف ديننا السامح. يغيض هؤلاء ان يتحول العراق الى بلد ديمقراطي دستوري، وان يختار الشعب العراقي نظامه باسلوب الاقتراع الحر ومن غير أي تدخل اجنبي مهما كان مصدره. لهذا يريد هذا البعض تدمير كل انجازاتنا التي ضحينا بالغالي والنفيس من اجلها، ودفعنا الارواح الزكية ثمنا نبيلاً لها، وها نحن نناضل لاستمرارها وكى تعيش الاجيال المقبلة بعزها.»

وأجد من الاهمية إدراج فقرات اخرى من هذا البيان المهم الذي جاء فيه «ان هؤلاء الذين يعلنون اليوم عن انفسهم تحت تسميات اسلامية شيوعية او سنية، وخلال بيانات تمجد القيادات غير العراقية، وتدعو الى الديكتاتورية الدينية والطائفية وتحت شعارات شوفينية لا تخدم مصلحة العراق والعراقيين ولأغراض سلب المرجعية الدينية من النجف الاشرف، مرقد سيد الأئمة، الامام علي (عليه السلام) معتقدين ان شيعة العراق وسادتهم العرب الاقحاح المتحدرين مباشرة من نسل اهل البيت الكرام، سيتبعون اليهم ويناصرون شعاراتهم وخطاباتهم الموغلة في الطائفية. وهم بذلك انما يعيدون ذات الشعارات التي طرحها اسيادهم عندما تسلموا مقاليد الحكم في ايران او تركيا وفق مذاهب معينة، ارادوا استباحة العراق والانتقام من العراقيين عندما نادوا بتصدير افكارهم باسم الاسلام تارة، وباسم الطائفية البغيضة تارة اخرى لفرض استعمار اجنبي على العراقيين.»

وخاطب الخوئي العراقيين محذرا اياهم من المحاولات «المشبوهة»، فقال
«يا ابناء العراق الشرفاء، ونحن نخاطبكم باسم الدين والانسانية،
وباسم العراق، وباسم النجف الاشرف، وباسم آل البيت (عليهم السلام)،
ومرجعيتهم الرشيدة، نناشدكم بأخذ الحيطة والحذر وتحاشي مثل هذه
الطروحات الطائفية التي تستهدف حريتنا وكرامتنا ووحدة شعبنا
وسلامة ديننا ومذهبنا. تماما مثلما فعل صدام حسين ونظامه المقبور.
ذلك ان شيعة العراق ما تبعوا طوال تاريخهم إلا مرجعيتهم في النجف
الاشرف، وما تعلموا إلا في حوزتها العلمية التي تأسست عبر قرون من
العلم والاجتهاد والتبليغ. تاريخ مخضب بالدم الطاهر والتضحيات
الشريفة. وما نحسبهم اليوم سيضحون بكل هذا التاريخ المجيد
والتضحيات الزكية وبأرواح الشهداء الطاهرين، ويجعلون من انفسهم
تابعين لإرادة وأهواء سياسات غيرهم. تلك السياسات التي تبعد شيعة
العراق عن دينهم ومذهبهم ومرجعيتهم، كما تشنت وحدثهم الوطنية
وانتماءهم الوطني المخلص. في الوقت ذاته نحذر من كل المحاولات
المشبوهة التي تسيء الى شيعتنا ومرجعيتنا ووطنيتنا، رافضين وبشدة
كل من يزايد على عراقيتنا وشرف انتماءاتنا، فنحن ما ناضلنا وصبرنا
وضحينا وتحملنا قسوة نظام مجرم لنمنح ثمار هذا النضال لمن يريد
إذلال العراقيين مرة اخرى.
نهيب بأبناء عراقنا المخلصين الانتباه والحذر من محاولة استغلالهم
ومصادرة ارادتهم وكلمتهم من قبل مجموعة من الحاقدين الذين ينظرون،
ويؤدلجون لحقدهم الاعمى على العراق تحت مختلف التسميات. والله
ولي التوفيق.»

نعم لقد كان الخوئي يستقرئ، في ضوء ما يسمع ويتابع، أحداث المستقبل وخاصة موضوع التدخل الايراني في الشأن العراقي عبر استغلال شيعة العراق والتحدث باسمهم تحت حجة الحفاظ عليهم. واتساءل اليوم، شخص بهذه العقلية وبهذا الطراز من التفكير، كيف لا يقتله الحاقدون على منطق العقل والانفتاح والحرية والتحرر؟ واستغرب كيف انه لم يرصد اعداءه وهم يحومون حوله مخططين لجريمتهم النكراء، أو يكون قد رصداهم لكنه اراد لمنطقه المسالم ان ينتصر على منطق السلاح والحق الاعمى؟.

بعد ظهر ذلك اليوم ابلغنا بتحضير امتعتنا للانتقال الى مقر آخر اكثر قربا لمدينة النجف، من جهة، واكثر راحة من ورشة المعدات الثقيلة في معمل اسمنت الكوفة.

كل ما حولنا هنا تراب، ناعم كالدقيق، يتسلل عبر مساماتنا الى دمنا وارواحنا، العواصف الترابية لم تنقطع، والشمس الحارقة تشوي جلودنا، والنجف بدت خالية من اي لون اخضر يشير الى وجود شجرة في الساحات او ما تسمى بالمتنزهات العامة، واذا كانت هناك اية بقايا للاشجار فقد قطعها الاهالي لاستخدامها كحطب لإشعال النار في الموقد او التنور، كان هناك القليل من اشجار النخيل المتوزعة في اراض منخفضة في منطقة بحر النجف.

الصور التي كنت احتفظ بها عن هذه المدينة كانت مختلفة تماما عما رأيته، كانت النجف عامرة بالاصوات والروائح والعمور والالوان البراقة، كانت روائح البخور والاطعمة والاجساد تصوغ ذاكرة رائحة المدينة في السابق، وكانت تلك العطور القدسية التي تحضر في قوارير ناعمة وصغيرة ذات مزاج دهني ورائحة تلتصق بالابدان وبجدران ضريح الامام علي، اما الوان المآذن والقباب والاقمشة والجدران المزركشة بالفسيفساء فقد شكلت، وما زالت، الصورة المبهرة عن هذه المدينة التي تؤثت القدسية روحيتها.

كانت عيون النسوة الساحرة والغاوية من وراء العباءات والحجاب (البوشي) الاسود الشفاف تبدو اكثر اغراءً من اية عين تفصح عن جمالها بواسطة انواع المكياج العصري، حتى وجوه الرجال الطافحة بالوقار كانت تخاتل في غوايتها للنساء.

عندما وصلنا الى النجف اعتقدنا باننا سنتحرر من القيود الامنية التي فرضتها علينا القوات الاميركية، واننا سننعم بالاقامة في بيت نجفي نستمتع بفيء جدرانہ وسقفه وبرائحة ظلاله ورطوبته، لكننا حُشرنا في ورشة المعدات الثقيلة بمعمل اسمنت الكوفة. كان النهار قد انتصف والشمس بدأت قاسية بحرارتها، والتراب يلون المنظر العام للمشهد الحياتي، وكان علينا ان نحمل حقائبنا للانتقال الى مقر آخر اكثر قربا من مدينة النجف اختارته القوات الاميركية ليكون مقرا لها. وضعنا امتعتنا على ظهر شاحنة (لوري) عسكرية مكشوفة، عندما لم نجد لنا مكانا في السيارات المتجهة الى الموقع الجديد سعدنا، ماهر الياسري وانا، على ظهر الشاحنة، بينما كان الخوئي قد ذهب الى موعد مع احد اصدقائه، سعد الخرسان، وسط مدينة النجف ليتفق معه على تهيئة بعض المستلزمات لنا، مثل السكن وشراء السيارات التي سنستخدمها لاحقا. صعد عبد الحسن الخفاجي في سيارة همر عسكرية، نظر الياسري الى ابو طارق وقال له مازحا «ابو طارق مدلل دائما»، فسيارة الهمر المفتوحة الجوانب بدت بالنسبة لنا مثل سيارة كاديلاك مترفة، صعد الى جانبنا اثنان من افراد البحرية الاميركية اللذان رافقانا من البحرين ومن ثم قاعدة طليعة، لم يكونا يرتديان اية ملابس عسكرية فقد كانا مصورين، احدهما فوتوغرافي والآخر يحمل كاميرا فيديو صغيرة، كانا غريبين، هما يتمتعان بقامتين فارهتين، وبذات التقاطيع الجسدية، يرتديان سراويل الجينز والفانيالات البنية، كأنهما

توأمن، يتحركان معا في كل مكان، كانت مهمتهما تصوير انشطتنا، وخاصة الخوئي، وعرضها للعراقيين من خلال طائرات تحلق فوق العراق، وكانا يشعران بالاسف لعدم تمكنهما من تصوير زيارة الخوئي للإمام علي، إذ لا يسمح للاجانب من غير المسلمين بزيارة الحضرة الحيدرية، واية اماكن شيعية اخرى، لهذا استعارا مني شريط الفيديو الذي كنت قد صورت فيه اول زيارة للخوئي الى حضرة الامام مع وعد مشدد بإرساله الى عنوان مؤسسة الامام الخوئي في لندن، لكنهما للاسف لم يفعلوا، ولم يبرا بوعدهما.

كانت اشعة الشمس تشوي جلودنا والتراب ينهال علينا من كل جانب، كنا نتنفس التراب فقط، اما حركة الشاحنة فوق ارض وعرة غير معبدة فقد اصابتنني بالغثيان، عادت الذاكرة بي الى سنوات الحرب العراقية الايرانية يوم كنت جنديا، كانت الشاحنات العسكرية الروسية الصنع (الزبل) هي الواسطة الوحيدة تقريبا للتنقل بين وحدات الجيش العراقي. كنا نمر بارتال طويلة من العربات المدرعة وناقلات الجنود والشاحنات التي تحمل مختلف الاسلحة وهي في طريقها الى بغداد، ارتال على مد البصر تتحرك ليلا ونهارا وكأن القوات الاميركية قد جاءت برمتها، بينما تحولت الصحراء المحيطة بمدينة النجف الى قواعد مؤقتة لتجمع هذه القوات ولتقديم امدادات الوقود والمياه والاغذية لتلك القوات التي بدت كالنمل في حركتها لكثرتها ولتحركها الدائم هنا وهناك.

هؤلاء المارينز لا يتحركون خطوة واحدة إلا برتل من العربات المحمية بالدروع، وحسب خرائط دقيقة جدا، فاذا اراد احدهم ان يذهب الى الدار المجاورة فعليه ان يرصدها على الخارطة ويثبتها لقيادته لاحترازات امنية مهمة، فهم في بلد غريب لا يعرفون من هم اعداؤهم ومن هم اصدقاءهم. لهذا فهم قطعوا المسافة بين معمل اسمنت الكوفة والمقر

الجديد خلال اكثر من خمس واربعين دقيقة، في حين كان بإمكانهم اختصار المسافة الى عشر دقائق، لكنهم تجنبوا المرور في المدينة وداروا حولها، عابرين مساحات حقول الشلب (الرز) والسواقي التي كان الرجال يسبحون فيها بينما النساء يغسلن الملابس بعيدا عنهم. كانت هناك لوحتان عند بوابة المقر الجديد، الاولى (الكلية التقنية في النجف) والثانية (المعهد الفني في النجف)، اجتزنا المنشآت الدراسية التي كانت خالية تماما بالطبع، حتى وصلنا الى صف من البيوت الخالية المخصصة لاساتذة الكلية والمعهد، لنكتشف فيما بعد ان البيوت الاخرى كانت مأهولة بالسكان، الذين تركوا اثاثهم مجبرين، من قبل ميليشيات «فدائيي صدام» الذين كانوا قد اتخذوا من هذا الموقع قلعة لهم. يقع هذا المجمع على بعد ثمانية كيلومترات عن مركز مدينة النجف، وعلى الطريق المؤدية الى الديوانية.

ما ان هبطنا من فوق ظهر الشاحنة تعرفنا على البيت الذي سنقيم به، تقدم منا شخص ضخم الجثة يتحدث بلهجة اهالي كربلاء وقدم نفسه باسم كريم، حيّانا وسأل عن اسمائنا، فأخبره الخفاجي والياسري باسميهما بينما اهملت انا الرد عليه ربما لشعوري بالغثيان والقرف من كل شيء حولي، او ربما كنت قد قرأت في وجهه واسلوبه صورة شخصية المحتال الرخيص. ثم راح يتحدث بفخر وقال «انا من وجدت هذه البيوت ونصحت الاميركيين باتخاذها كقاعدة» واضاف «لي سبعمائة شخص ينتظرون اية اشارة مني لالقاء القبض على القياديين البعثيين لكن هؤلاء الاميركيين بطيئوا الحركة». لم يكن يجيد التحدث بالانكليزية طبعاً، وكان من السهولة علينا ان نكتشف ومنذ الوهلة الاولى بانه مجرد دعوي ومحتال وغير مأمون الجانب، حتى اني قلت للخفاجي والياسري: «لماذا تخبرانه عن اسميكما وانتما لا تعرفانه؟» قال

الياسري: «لا يهم ماذا سيفعل لنا انه مجرد انسان عراقي وتبدو عليه
الطيبة.»

خصصت لنا غرفة في احد البيوت لتكون سكننا لنا، مشاركين قيادة
الموقع ذات البيت. كان التيار الكهربائي ما يزال مقطوعا وكذلك المياه،
كنت احلم برشة ماء بارد تعيد الي توازني. لاحظت ظهور حبيبات حمراء
برؤوس بيضاء فوق بشرة ذراعي، كان جلدي يبدو مشويا على نار
هادئة، دخلت الى الحمام لاكتشف ان هناك ماء في خزان البيت المثبت
فوق السطح، خلعت عني ملابسني ورحت استمتع بدوش كان هو اروع ما
تمنيته وقتذاك، كانت المياه تغسل عن جسدي التراب، وتبرد اعصابي
التي كادت ان تعطبها اشعة الشمس، عندما تركت الحمام وجدت هناك
صفا من المنتظرين الذين اكتشفوا وجود الماء في الحمام بعدي.
كان البيت قد بني حديثا ولم يسكنه احد قبلنا، يتكون من حديقة امامية،
وغرفة معيشة (استقبال) خصصت لقيادة الموقع، وثلاث غرف نوم، اثنتين
في الطابق الارضي مع حمام ومطبخ واسع، وغرفة نوم في الطابق
العلوي ملحق بها سطح واسع يطل على جزء من وادي بحر النجف
المزروع بالخضار والرز.

بعد نصف ساعة عاد الخوئي وكان التعب يبدو عليه والتراب يغطي وجهه
وملابسه، اقترحت عليه التوجه الى الحمام مباشرة لآخذ دوش طالما ان
الماء متوفر الان، ففعل. عاد وهو منزعج من تصرف سائق السيارة ومن
رافقه، وكانوا من المارينز طبعا، قال «لم احقق اي شيء، لم التق
صديقي الذي كان ينتظرني عند ساحة ثورة العشرين بسبب تصرف
المارينز الذين لم يثقوا بالطريق الذي قدهم خلاله بل تمسكوا بالاعتماد
على الخارطة التي معهم، اقول لهم انا ابن النجف واعرف طرقاتها
وازقتها جيدا فيقولون اننا لا نتحرك الا وفق هذه الخرائط. وبدلا من ان

نقطع المسافة بربع ساعة استغرقنا اكثر من ساعة ونحن ندور في حلقة مفرغة وهكذا فاتني اللقاء المهم.»

كنا قد قاطعنا قبل يوم علب طعام المارينز، فشعرنا بالجوع، وبعضنا كان بحاجة للشاي، اما الخوئي فلم نسمعه يطلب شيئاً او يتحدث عن الجوع او الشاي، كان يأكل اذا توفر الطعام، ويشرب الشاي اذا كان جاهزاً، وكان يقول «نحن في العراق، في النجف، وسوف تشبعون طعاماً وشاياً». كنت قد قررت ان اخبر الخوئي عن كريم الذي التقانا عند وصولنا الى هذا المكان لكنني وفي حمأة التعب وحرارة الجو نسيت الموضوع.

كان ماهر غير مستقر، سريع الضجر، لا يجلس في مكان واحد لبضع دقائق، يلف ويدور هنا وهناك، ويتحدث مع هذا وذاك، كما ان شخصيته الاجتماعية الظريفة حققت له الكثير من العلاقات مع افراد قوات المارينز، كان ينقل لنا كل ما يحدث خارج سكننا، فقد عرفنا من خلاله ان بين هذه القوات في الموقع الجديد امرأة (مجندة) واحدة، كما انه كان يعاني حالة من القلق منذ ان توفي امام عينه صديقه المقرب جلال الزيايدي في قاعدة طلييلة في الناصرية، اذ بدأ يتوهم بأنه مريض، وقد طلبنا له الطبيب لاكثر من مرة والذي كان يشخص حالته بالارهاق، وكان الخوئي قد اقترح عليه ان يزور عائلته في الديوانية ليومين او يبقى هناك ليسترخ من المتاعب، لكنه رفض السفر وفضل البقاء معنا.

بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كانت الشمس تبعث بلهبها، تركنا ماهر وخرج في جولة قرب البيت، عاد بعد قليل ليخبرنا بانه عثر في احد البيوت على بيض وخبز وشاي، وسأل الخوئي إن كان تحضير الطعام حلالاً ام حراماً، فقال له «الطعام قابل للتلف وأكله بدل اتلافه حلال، ثم اننا نستطيع ترك مبلغ من المال بدلا عن البيض والخبز الذي سنأكله.»

ذهبنا، ماهر وانا، وجهزنا طبقا كبيرا من البيض المقلي مع البصل
وهيأنا براد شاي (قوري) كبيرا وعدنا، كانت هذه اول وجبة طعام
نطبخها في النجف، وقد تحلقنا حولها وكأنها اشهى واثنى طبق ذقناه
في حياتنا، شاركنا الاميركيون في الوجبة من غير ان يسألوا عن
مصدرها، قلت: «تصوروا، صار البيض المقلي مع البصل امنية لنا؟»
قال الخوئي «هذا خير من الله، نحمده على هذه النعمة»، واستغرب
للرضا الكبير الذي يؤثث به حياته، فهو ملك بين الملوك، وعبد فقير بين
الناس البسطاء.

في اليوم التالي كان الخوئي منشغلا في اجتماعات مع شيوخ العشائر،
وبعض وجهاء مدينة النجف، ولم احضر تلك الاجتماعات بل تفرغت
لتسجيل احداث الايام الماضية وشحن بطاريات الكاميرات وهواتفنا
المرتبطة بالاقمار الصناعية بعد ان وضعوا مولدة صغيرة للطاقة
الكهربائية في البيت.

كانت العواصف الترابية ما تزال تغزو المنطقة، وكذلك اسراب الذباب
التي ما عادت تضجرنا بعد ان تعودنا وجودها بيننا. عاد الخوئي ظهرا
وتحدث عن فعالياته في ذلك اليوم، وكان يبدو سعيدا للنتائج، وقال انه
يعمل على تهيئة البيوت للانتقال اليها وكى نستقبل بقية المجموعة التي
ستصل ربما خلال يومين من البحرين.

سأل ماهر عما سنأكله ذلك اليوم، موضحا انه عثر على عدس ورز،
فسألته: «ما رأيك بالرز مع العدس (وجبة عراقية شبيهة بالكشري
المصري)» فسألني على الفور: «هل ستطبخها انت؟» اجبت: «كلا
وانما يوجد بيننا من يجيد طبخها وبشكل شهى». ضحك الخوئي وسأل
«من تعني؟» اجبت على الفور: «أعنيك بالطبع». قال «حسنا، سأطبخ
لكم الرز مع العدس». وبالرغم من متاعبه طوال النهار ذهبنا، الخوئي

وماهر وانا، لاعداد الوجبة. كان الخوئي طباحا ماهرا منذ ان كان طالبا في الحوزة العلمية في النجف، وبالرغم من ان عائلته كانت تقيم في النجف وانه كان نجل الامام ابو القاسم الخوئي (دام ظله) المرجع الاعلى للشريعة في العالم، إلا ان من تربية الحوزة لطلابها ان يعيشوا مع بعضهم في بيوت خاصة بهم لاغراض الدراسة والنقاش والاجتهاد، وكان عليهم الاعتماد على انفسهم في الطبخ وغسل الملابس والتنظيف، وقد خاض الخوئي تلك التجارب.

اتذكر انه دعاني مرة في بيته بلندن وكانت زوجته، ام حيدر، تؤدي فريضة الحج، وكان هو المسؤول عن شؤون البيت، فقال: «تعال نجلس في المطبخ». وراح يطبخ لنا وجبة العشاء، رز ومرق، وهذا ما دفعني لان اقول ان هناك من يجيد طبخ الرز مع العدس.

عدنا بعد اقل من نصف ساعة ونحن نحمل قدر الرز بالعدس، والبيض المقلبي مع البصل ايضا، مع براد الشاي، وهذه المرة اجتمع عدد اكبر من الاميركيين لتناول طعام الغداء الساخن والشهي معنا بعد ان ملوا هم انفسهم من طعامهم المعب.

عند الساعة الرابعة عصرا طلب ديفيد (ابو علي) من الخوئي مرافقته الى البيت الذي اتخذ كقاعة للاجتماعات، وكان يقع على مبعده ثلاثة بيوت منا، وكان ذهاب الخوئي الى هناك امرا طبيعيا بالنسبة لنا، عاد الخوئي بعد اقل من ساعتين وهو يبتسم وتبدو آثار الاستغراب على وجهه، كان يرافقه (ابو علي). سألت الخوئي عن سبب الاستغراب البادي على وجهه، سألني مباشرة «هل التقيت بشخص اسمه كريم؟» اجبت: «نعم كان يجب ان اخبرك عنه، ولكن لماذا تسألني؟ هل التقيت به؟» ابتسم وقال «نعم، التقيت به توأ وكان لقاءً ساخراً ومراً». لقد طلب ديفيد من الخوئي مساعدتهم لترجمة لقاء بينهم وبين كريم الذي قال لهم ان

لديه معلومات سرية للغاية وخطيرة، وكان يدعي بأنه قائد مجموعة تتكون من سبعمائة شخص، فأرادوا ان يتأكد الخوئي من صحة ما يقوله ذلك الدعي الكذاب. الذي حدث، وحسب ما رواه الخوئي لنا، هو ان كريم سلم بحرارة على الخوئي باعتبار انه يعرفه وكان قد عمل معه في عمان، وظل يناديه بـ(ابو حيدر) بعد ان سمع ديفيد وسكوت يناديان الخوئي بأبو حيدر من غير ان يعرف (كريم) ان (ابو حيدر) هو الخوئي، وراح يتحدث لهم عن معلوماته المهمة والخطيرة ومفادها انه علم بوجود عبد المجيد الخوئي كمبعوث من الخارجية البريطانية الى النجف، وقد وصل الخوئي الى النجف من كربلاء بصحبة ثلاثمائة من اتباعه المسلحين بمهمة من الخارجية البريطانية لإثارة المشاكل امام القوات الاميركية، وان الخوئي افتتح مكتبا في مدينة النجف لاستقطاب المتطوعين للعمل معه وهو يغدق عليهم الدولارات، ثم بين كريم مقدار خطورة الخوئي وضرورة القاء القبض عليه فورا قبل ان يثير المشاكل امام الاميركيين. كان الخوئي يترجم ما يقوله ذلك المحتال بأعصاب باردة وسط استغراب سكوت وديفيد والآخرين الذين اصيبوا بالذهول، كون الخوئي لم يبد عليه الاستغراب من تلك الشائعات التي تستهدفه، بل مارس دوره كمترجم بأمانة، بل راح يسأل كريم عن عنوان الخوئي وكيف وصل من كربلاء التي لم تتحرر بعد (وقتذاك). وحسب الخوئي وديفيد فإن كريم هذا كان يبدو حاقدا على الخوئي من غير ان يعرفه، وان ثمة جهة معادية للخوئي يعمل لصالحها. قال سكوت للخوئي: «كيف صبرت عليه ولم تبد عليك اية ردة فعل وانت تترجم كل هذه الاكاذيب ضدك؟» قلت: «المهم ان نعرف لصالح اية جهة يعمل كريم هذا؟». ولا ادري لماذا التزم الخوئي جانب الصمت، وكنت اعتقد ان سؤالي يندرج تحت باب الامور السرية وانهم عرفوا مصدر علاقات كريم الذي ردد انباء كانت قد بثتها اجهزة الاعلام

الإيرانية الرسمية في وقت سابق، قلت: «كريم هذا يبدو شخصا خطيرا ويجب متابعته»، لم يعلق احد على ملاحظتي. المهم ان كريم هذا غادر القاعدة من دون ان يعرف ان من كان يتحدث اليه هو عبد المجيد الخوئي، وسيكون له لقاء ساخن آخر مع الخوئي.

16

في ضيافة البهاش

صباح يوم السابع من نيسان تمكن الخوئي من إقناع المسؤولين الأميركيين بالموافقة على زهابنا الى بعض اصدقائه الساكنين في حي السعد، حيث كان يقيم هو وعائلته، كما يقع هناك بيت شقيقه الراحل

محمد تقى، وزيرة بيت عمه، والد زوجته، السيد علي البهشتي، ولتهيئة امور انتقالنا الى هناك خاصة ان بقية افراد مجموعتنا ستصل من البحرين قريباً. اشترط الاميركان ان ترافقنا قوة ولو بسيطة لحمايتنا، لكن الخوئي رفض الاقتراح وحدد لهم على الخارطة الاماكن التي سنذهب اليها، كما حدد الساعة الثانية كموعده لعودتنا، لم تنفع اقتراحات العقيد مايك مسؤول القوة العسكرية التي كنا تحت ادارتها من ان ترافقنا قوة حماية صغيرة وبملايس مدنية، تتألف من رجال تبدو سيماءهم عربية او اسلامية او عراقية، ويحملون اسلحة مخبأة تحت ملايسهم، من إقناع الخوئي، حتى ان مايك صرخ امام عناد الخوئي قائلاً: «هل تعرف انك حين تطلب مني الذهاب بمفردكم الى المدينة اصاب بالاسهال وبألم في معدتي؟ حمايتكم من اولويات مسؤوليتي» لكن الخوئي استطاع إقناعه وطمأنته باننا لن نلقي بانفسنا في الجحيم.

خرجنا الى الشارع العام لاستئجار سيارة تكسي، وقد رافقتنا قوة حماية تتكون من سيارتين وعناصر بملايس مدنية، لحين حصولنا على سيارة اجرة، وبعد ان توقفت احدى سيارات الاجرة سجل احد افراد الحماية رقمها ومواصفاتها، وتركنا نمضي لوحدها. كان الخوئي يضع غطاء اخضر (يشبه الكوفية) على رأسه وغطى نصف وجهه، بينما ارتدى كل من الخفاجي والياسري درعيهما المضادين للرصاص، ورفضت انا ارتدائه بسبب ثقله وحرارة الجو، ولم اتحمل وضعه على جسدي مباشرة تحت قميصي. جلس الخوئي بين ماهر وعبد الحسن، بينما جلست انا في المقعد الامامي الى جانب السائق. لم نتناد في ما بيننا باسمائنا الاولى او الحقيقية، بل غيرنا اسماءنا بلا اتفاق مسبق، فصار اسم ماهر (عامر)، والخوئي بقي باسمه (ابو حيدر)، وكذلك الخفاجي (ابو

طارق) وانا (ابو حسين)، وهذه هي الاسماء الشائعة بين اهل النجف، هذا لاغراض الترمويه على سائق سيارة الاجرة الذي تحدث عن عودة الماء بفضل جهود السيد الخوئي، وعندما سأله الخفاجي: وهل الخوئي موجود فعلا في النجف؟ ضحك السائق وقال: «نعم انه يجلس وسطكم، انا اعرفه من صوته» ثم توجه الى ابو طارق وقال له: «انا فلان كنت جارك قبل الانتفاضة» وسرعان ما عرفه الخفاجي، وقال: «هذا كان جاري وهو مشهدي» اي من اهالي النجف الاصليين، ثم سألته: «وهل تعرفني او تعرف السيد عامر (ماهر)؟» ابتسم السائق وقال: «لا انتما لستما من اهالي النجف..»

كنا نمر بالرجال الذين كانوا يتخذون من الارصفة مساطب لهم وهم يتداولون الاحاديث والبعض كان ما يزال مشغولا بسرقة بعض الدوائر الحكومية والمدارس والمعسكرات، حتى ان المنظر العام لهم بدا وكأنهم في مهرجان تسوق شعبي.

لم يكن حي السعد يقع بعيدا عن المقر الجديد للقاعدة الاميركية، وكانت السيارات قليلة في الشوارع، وهي على أي حال سيارات متهاكلة. دخلنا حي السعد الذي يعد واحدا من ارقى الاحياء السكنية في النجف، وهال الخوئي ما حدث للحي، لا وجود لأي حديقة او شجرة، بل كانت تلال القمامة تنتشر في كل مكان، الوان البيوت بدت باهتة وكأنها بنيت قبل اكثر من قرن وتركت بلا عناية او ترميم، وتتميز بيوت النجف، بسبب طبيعة اهلها المحافظة، بالاسوار العالية والبوابات المحكمة التي لا تتيح لمن في الخارج مشاهدة اي شخص حتى في حديقة منزله.

توقفنا عند بوابة بيت كبير كانت تنتصب امامه بقايا كابينة مراقبة تابعة للاجهزة الامنية العراقية، كان هذا بيت السيد علي البهشتي، عم الخوئي، وهو في الاصل منزل عائلة الخوئي قبل ان تترك العراق، وهذه

الكابينة التي وضعت بحجة حماية عائلة الخوئي كانت مخصصة لمراقبة حركة الخوئي وعائلته، وحركة الداخل اليهم والمتصل بهم، والتنصت عليهم بصورة مفضوحة وعلنية. نزل الخوئي وطرق الباب مرات عدة، لكن احدا لم يفتح الباب، صعد الخوئي الى السيارة واستدرنا يمينا للذهاب الى بيت عارف البهاش، اكثر اصدقائه المقربين اليه، كنت التقيت بعارف (ابو سراج) في عمان قبل اكثر من ثلاثة اعوام حيث كلفه الخوئي مساعدتي خلال فترة وجودي هناك، وهو شخص دمث الاخلاق وكريم ولا يتوانى عن مساعدة الاخرين، ولم يكن عارف في العراق عندما ذهبنا الى بيته بل استقبلنا شقيقه الاصغر ليث، الذي انحنى لتقبيل يد الخوئي الذي رفض واحتضنه بعمق. أبدى ليث الكثير من الكرم والاهتمام بنا وقال: «اصدقاء السيد هم اصدقائي، وانتم اهل البيت ولستم ضيوفا هنا، وسيكون معنا حتى اخر يوم من وجودنا في النجف». فتح بوابة الحديقة لدخل، كان هناك صف من اربع سيارات، بدت حديثة قياسا بالسيارات التي شاهدناها في المدينة، تقف في الكراج، حيث ان مهنة عارف وليث تجارة السيارات.

تناولنا فطورا عراقيا حقيقيا تكون من القيمر والعسل والجبن الابيض والبيض والخبز الساخن والشاي، كان الخوئي مشغولا في الغرفة الاخرى مع ليث الذي كان يخرج ويعود من غير تأخير، كلفه الخوئي تصريف بعض الاموال الى العملة العراقية، وتفقد البيوت التي سنسكن فيها، وشراء بعض سيارات البيك آب لتساعدنا في اداء عملنا الاغاثي. اعترف اننا لم نكن نعرف بما كان يدور في الغرفة الاخرى بعيدا عنا، كما ان الخوئي لم يطلعنا فيما بعد عما كان قد دار بينه وبين ليث سوى انه نوه بأن ثلاثة بيوت في الاقل ستكون جاهزة لاستقبال المجموعة التي ستصل من البحرين، وهي بيت شقيقه الراحل محمد تقي، وبيت شقيقته

ام زينب، وبيت عائلته في الكوفة، وهو البيت الذي كان يسكنه السيد ابو القاسم الخوئي. خلال ذلك دخل علينا شخص طويل القامة يتكلم بصوت عال، قدم نفسه، سعد الخрсان، وهو احد اكثر المقربين للخوئي وسرعان ما التحق بالخوئي وليث في مشاورات الغرفة الاخرى ليرتب بعض اللقاءات مع شيوخ العشائر ووجهاء النجف. بعد اقل من ساعة خرج الخوئي في محاولة للقاء بيت عمه السيد البهشتي، الذي رفض من كان بداخله فتح الباب لأي كان بسبب سوء الاوضاع الامنية في النجف، ذهب الخوئي الى بيت سائق السيد البهشتي والذي كان يقع خلف بيت عم الخوئي مباشرة، عند ذاك فتحوا الباب للخوئي الذي لم ينتظر طويلا عندهم اذ كان من المقرر ان نعود الى مقر اقامتنا في القاعدة الاميركية. عندما تركنا دار البهاش كانت هناك سيارتان قد اعدتا لنا، احدهما «بي إم دبليو» والثانية «تويوتا رويال»، وكلاهما يعود موديلهما الى عام 1995، وكانتا تعدان من السيارات الغالية جدا في العراق وقتذاك. قاد الخوئي سيارة الـ«بي إم دبليو» وكنت الى جانبه، بينما قاد الخفاجي السيارة الثانية. كنت اعتقد انه استعار السيارتين لكنه قال لي انه اشتراهما الان، وهما لنا منذ تلك اللحظة، وان ثمة سيارات اخرى قادمة، وقد اكد لي ليث بعد حادث مقتل الخوئي ان السيد كان قد دفع ثمن السيارتين كاملا.

كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر، وحان موعد عودتنا الى مقرنا، قال الخوئي «انظر كم حققنا من الاعمال في تلك الزيارة القصيرة، لو يتركونا وشأننا لأنجزنا الكثير.»

كان في سباق مع الزمن، يريد تحقيق كل شيء في وقت قصير مختصرا المراحل والاجراءات باسلوب حماسي، كنت افهم دوافعه واسبابها، كان يريد ان نبدأ بتقديم خدماتنا باسرع ما يمكن في مدينة

النجف للانتقال الى مدينة اخرى، وكان سعيدا بما انجزه حازم الشعلان في مدينته (الديوانية). قال «عندما يصل البقية من البحرين ويتوزعون على مدنهم سوف ينجزون الكثير» ولا ادري من اين وكيف استمد هذه الثقة، ونجاح الشعلان في مهمته لا يعني بالضرورة ان الاخرين سيحققون ذات النجاح، وهذه الشكوك انتابتني منذ بداية التعرف على بقية افراد المجموعة ومعايشتهم بشكل واقعي في البحرين، وقد صارحت عبد الحسن الخفاجي بهذه الشكوك لاكثر من مرة، وقد تكشف لي صدق حدسي بعد حادث مقتل الخوئي مباشرة.

كانت السيارتان اللتان انطلقنا بهما بسرعة في طريق عودتنا الى المقر تجتذبان انظار الناس لكونهما من السيارات الحديثة والغالية، وكان غالبية الناس يتطلعون بفضول لمعرفة من في هاتين السيارتين لا سيما ان لونيها غامقان ويميلان للسواد. عدنا الى المجمع السكني، لم يسمحوا لنا بالدخول بل توقفنا على مبعدة ما يزيد عن ثلاثمائة متر من فوهات المدفعية الرشاشة التي صوبها نحونا حرس القاعدة، ترجلت من السيارة وناديت أمر الحرس باسمه (تشارلس) والذي كان يعرفنا جيدا، فلم يستجب وصاح باعلى صوته «Don't Move»، «I will Shoot You» لا تتحركوا سأرميكم، وكنت على يقين انهم سيفعلونها ومن ثم يشيرون في تقاريرهم الى اننا قتلنا بواسطة النيران الصديقة. اقترب احد الحراس بحذر بالغ وهو يضع اصبعه على زناد رشاشه المصوب نحوي مباشرة، اخبرته من نكون، واشرت اليه بالاتصال بديفيد (ابو علي)، هنا ترك ماهر السيارة وجاء مسرعا وهو يقول «لندخل وليكن ما يكون، انهم يلعبون بأعصابنا» قلت له: «اهداً هؤلاء لديهم اوامر بقتل كل من يشكون به، عد الى السيارة ودعني انهي الموضوع». في هذه الاثناء كان الخوئي يحاول الاتصال هاتفيا بديفيد ليسمحوا لنا بالمرور، وبعد

عشر دقائق تمكنا من الدخول بعد ان تم تفتيش سيارتنا بدقة وبحضور
ديفيد الذي جاء لمساعدتنا.

17

مقابر أخرى

في المجمع السكني المحدود الذي اتخذت منه القوات الاميركية مقرا
لاحدى قواعدها كانت قد دارت معركة شرسة بين القوات الاميركية
وميليشيات «فدائيي صدام» وحزب البعث، وهذا ما تؤكده آثار قنابل
المدفعية والهاون والرصاص الواضحة على الجدران والابواب. اذ ان
المجمع يقع في نهاية المدينة ويشكل مدخلا لها، لهذا وجدت فيه
ميليشيات «فدائيي صدام» خير مكان لمواجهة تقدم القوات الاميركية
باتجاه مركز مدينة النجف.

كان سكان المجمع من اساتذة وموظفي الكلية التقنية والمعهد الفني،
وهما مؤسستان علميتان تابعتان لوزارة التعليم العالي، قد تركوا كل
شيء وخرجوا لانقاذ عوائلهم وارواحهم، لذلك فقد تُرك كل شيء على
حاله، من ملابس وطعام واجهزة كهربائية. وقد روت لي سيدة عراقية
تعمل موظفة في المعهد الفني ومن سكنة المجمع كيف اجبرتهم ميليشيات
«فدائيي صدام» على التخلي عن دورهم خلال دقائق تحت تهديد
السلاح. كنت قد قابلت هذه السيدة عند مدخل المجمع في انتظار من
تسأله عن بيتها، اذ يقف عند بوابة المجمع كل يوم العشرات من الناس
إما طلبا للمساعدة او لتقديم الشكاوى للقوات الاميركية، او للوشاية على

الآخرين، وساعود الى ذلك لاحقا. كانت السيدة تبكي طالبة التحدث مع أي شخص، وعندما سألتها عن مشكلتها قالت انها من سكان هذا المجمع، وهي حامل في شهرها السابع، وقد تركت ابنتها مع والدها المريض في بيت احد الاقارب وجاءت لتأخذ بعض الملابس لها ولابنتها وزوجها من بيتها الذي يقع في المجمع.

تحدثت مع (ابو علي) لمساعدة هذه السيدة، فقال ان الامر ليس بيده، وانما بيد القيادة العسكرية التي تمنع دخول أي مدني الى المجمع، لاسباب امنية اولا، ولأنهم غير متأكدين من دخول هؤلاء الاشخاص الى بيوتهم بالفعل، فقد يدخلون الى بيوت غيرهم ويأخذون ما ليس لهم، واضاف «ان هناك العديد من سكان المجمع يطلبون الدخول الى هنا كل يوم.. كيف نتأكد من انهم صادقون في ادعائهم؟ علينا ان نحافظ على املاك الناس ريثما نترك المكان بعد ايام قليلة». لكن لم يكن يبدو على هذه السيدة انها تكذب من اجل حفنة ملابس، انها لا تطالب بأخذ اجهزة كهربائية او حاجيات ثمينة، مجرد ملابس.

اقتрحت على (ابو علي) ان نأخذ عنوان بيتها ونجلب لها الملابس، فوافق على هذا المقترح، ذهبنا، هو وانا، الى بيتها الذي كان بابه مغلقا فدخلنا من خلال الشباك المحطم الزجاج، ووجدنا حقيبة ملابس كانت معدة بالاصل لكن، وكما يبدو، لم يتسن لهذه لسيدة حملها معها، كما جمعنا بعض الاحذية ومستلزمات اخرى وعدنا بها الى البوابة. فرحت السيدة عندما شاهدت حقيبة الملابس التي فتحتها لتتأكد من ان معظم ما تحتاجه موجود ، ثم سألتني عن جهاز التلفزيون وفيما اذا كان موجودا أم لا فأخبرتها انه موجود وأن كل شيء على حاله.

قالت: «لقد أجبرنا الفدائيون على ترك بيوتنا في ساعة سوداء، دخلوا علينا وهم يحملون اسلحتهم ويصرخون بنا: اتركوا البيوت حالا وإلا

ستموتون، الاميركان على بعد امتار وسوف يقتلونكم، ومن لم يخرج سنقتله نحن، ثم دفعونا باتجاه الابواب ولم يعطونا اية فرصة لحمل القليل من متاعنا تحت ازير الرصاص الذي كانوا يرمونه في الفضاء لترويعنا.»

واضافت قائلة: «خرج الجميع راكظا من اجل انقاذ حياته، تاركين كل شيء على أمل العودة مساء اليوم نفسه لكن المنطقة كانت قد تحولت الى ساحة قتال، وقد عرفنا ان الكثير من الفدائيين قتلوا هنا». ودّعت تلك السيدة وانا اتساءل عن الذنب الذي ارتكبه هؤلاء الناس الذين كانوا آمنين في بيوتهم ومع عوائلهم ليتم تشريدهم بهذه الطريقة ثم تستباح ممتلكاتهم، ليمنعوا بعد ذلك، من قبل القوات الاميركية، حتى من الدخول الى بيوتهم واخذ بعض حاجاتهم.

كانت الطوابير اليومية التي تقف عند بوابة المجمع، منذ الصباح وحتى المساء، بحاجة الى مترجمين للتفاهم مع الحرس «القساة» اولا، ومن ثم البحث عن متصلون به، ثانيا. واقول القساة لانهم كانوا كذلك بالفعل، فقد كانت هناك قوة مكونة من عربتين مدرعتين، وعدد من الجنود الذين يربضون خلف مدافع رشاشة موجهة نحو البوابة وقد تهيأوا لفتح النار على كل من يقترب من الاسلاك الشائكة ويتجاوزها، لهذا كان الناس يقفون بعيدا خشية من القتل علي ايدي الاميركان، بل غالبا ما تعرضنا نحن للتوقف لاكثر من عشر دقائق من اجل التأكد من هوياتنا وتفتيش سياراتنا، والاتصال بالقيادة للسماح لنا بالدخول، وذات مرة اقتربنا اكثر مما هو مسموح فتوجهت نحونا المدافع الرشاشة، ما دفعني لان اقول للخوئي «ارجوك انا أكره ان اقتل بواسطة النيران الصديقة.» والغريب اننا كنا، كلما ندخل قادمين من المدينة، نعطي لأمر مجموعة الحرس (تشارلس) وزملائه الخبز والكباب وبعض ما نجلبه معنا من

طعام عراقي فيشكرنا ويمزح معنا، وهم يعرفوننا جيدا، وعندما لا نعطيهم الخبز والطعام يسألوننا هم عنه، لكنهم يعيدون أداء ذات التمثيلية المخيفة معنا كلما اردنا الدخول، ينادون بأعلى صوتهم «انتظروا عندكم، لا تتحركوا، سنطلق النار عليكم، من انتم؟ ماذا تريدون؟» ثم يقترب احدهم منا بحذر بالغ موجها سلاحه نحونا، مع انهم يعرفون من نحن وماذا نريد، نريد الدخول. وما ان نجتاز الاسلاك الشائكة يسألوننا عن الخبز العراقي. وكان علينا ان نجتاز بالطبع الحاجز الثاني في الداخل والذي لا يبعد مسافة ستمئة متر من الحاجز الاول، ولكم ان تتخيلوا كم من المرات كان علينا ان نعيش تلك الدوامة كل يوم؟

كان الناس يزدحمون عند البوابة إما للسؤال عن ابنائهم الذين كانوا يقاتلون ضمن ميليشيات «فدائيي صدام»، ام انهم كانوا من العاملين في هذا المجمع ثم اختفوا، ومعرفة ما اذا كانوا قد قتلوا او اسروا. كانت هناك عجوز تجاوزت الخامسة والستين من عمرها تاتي كل يوم وتبقى منذ الصباح الباكر وحتى المساء، تسأل عن زوجها الذي كان يعمل حارسا في داخل المجمع ثم اختفى بعد دخول القوات الاميركية، وهي تصر على انه ما يزال حيا في الداخل ومختبئا في مكان ما وأنه لو سمح لها بالدخول فسوف تكتشف مكانه، لكننا كنا على يقين من مقتل كل من كان داخل المجمع. وكان هناك من يريد الدخول الى بيته كون عائلته تعيش في العراق، والبعض يأتي ليقدم شكاوى ضد جاره الذي كان ناشطا في حزب البعث او الاجهزة الامنية لنظام صدام حسين. وكان الاميركان يخبرونهم بان هذه الامور ليست من اختصاصهم وانهم لا ينوون معاقبة الناس الذين كانوا في حزب البعث او مع النظام السابق، واغرب شكوى سمعتها بنفسي ادلى بها رجل في الخمسين من

عمره ضد جاره الذي سمعه يبكي قلقا على حياة صدام حسين، فقال له الاميركي الذي التقاه «دعه يبكي هو حر، لماذا تريد ان تمنعه من البكاء؟». كان هناك بعض الريفيين الذين يدعون انهم عثروا على يورانيوم في المزارع القريبة، او اسلحة جراثومية، وعندما تذهب القوات الاميركية الى مزارعهم لا تجد سوى بقايا اسلحة تفجرت خلال القصف، او براميل لا تحتوي على شيء. كانوا يفعلون ذلك لاطهار ولائهم للقوات الاميركية وطمعا بالدولارات، بل هناك من كان يأتي ويطلب منهم مباشرة التعاون مقابل اجور محددة، حتى ان سكوت، وهو مسؤول القوات الاميركية في القاعدة، قال متألما: «المشكلة انهم لا يتمتعون بشعور العمل من اجل وطنهم وشعبهم انهم يريدون ان يفعلوا اي شيء من اجل الحصول على الدولارات، يقدمون الوشائيات، او يبلغونا عن اخبار كاذبة، ويتحدثون اولا عما سندفعه لهم» قلت له: «هذه شريحة بسيطة من الناس وهي موجودة في كل مكان وحتى في اميركا، لكن الغالبية تنتمي للعراق ولشعبه وهناك من يريد التطوع مجانا من اجل خدمة الاهالي هنا، لكنكم لا تساعدونهم لانكم لا تثقون بأحد.»

اغرب ما شاهدته كان مجموعة ممن قدموا انفسهم كمتقنين ووجهاء النجف، ومعهم رسالة الى الرئيس بوش يهنؤونه بالنصر ويتعهدون له بالاخلاص. كانت الرسالة تتكون من اربع صفحات طلبوا مني ترجمتها لـ(ابو علي) مباشرة، وكان اسلوب صياغتها لا يختلف عن صياغة الرسائل التي كانت توجه الى صدام حسين، وقد تضمنت ابياتا من الشعر والامثال. عندما قرأت الرسالة قلت لهم «هذا بوش وليس صدام، وهو لا يفهم هذا الاسلوب من الكتابات، ارسلوا له ثلاثة سطور ويكفي» وعندما استمع (ابو علي) للترجمة شبه الحرفية للرسالة استغرق في

الضحك، وقال «ارجوكم لا تعلموا الرئيس بوش على مثل هذه الاساليب فليس عندنا من يكتب له القصائد والاغاني.»

كانت بيوت المجمع قد خلعت بواسطة الرصاص او القذائف، بينما نبشت المحتويات بشكل عشوائي، قطع الاثاث تم قلبها وتحطيمها، الملابس اخرجت من الخزانات، الكتب نثرت فوق ارضية البيوت، حتى الخزين من الطعام لم يسلم من العبث، فتم إفراغ اكياس الرز والسكر والطحين. لقد بحث فدائيو صدام بين محتويات البيوت عما خف وزنه وغلى ثمنه لسرقته قبل الهروب من الموقع، وقد افرغوا اكياس الطعام لاعتقادهم ان هناك من اخفى المجوهرات والاموال بين الرز او الطحين، كما يفعل ذلك. ولكنهم لو فكروا قليلا لادركوا ان سكان هذه البيوت هم من الموظفين الذين يتقاضون رواتب لا تكفي لسد نفقات المعيشة، فلا توجد في هذه البيوت سوى الملابس والشهادات العلمية والكتب والصور العائلية.

كانت الحركة لا تتوقف من اجل تسوير الموقع بمختلف المستلزمات التي تمنع وصول أي شخص او الاقتراب من هذه الاسوار، كما تم نصب مواقع الحراسة المشددة حول القاعدة. في الليل كانت تصلنا من الشبايبك الخلفية رائحة عفونة تزكم انوفنا، قال ماهر «انها رائحة جثث القتلى من فدائيي صدام التي ما زال بعضها في العراء، لقد شاهدتهم عصر هذا اليوم يدفنون بعض الجثث خلف اسيجة هذه البيوت.»

بعد ظهر اليوم التالي دعاني ماهر على عجل لمشاهدة رأس شاب عراقي عثر عليه قريبا من البيت الذي كنا نقيم فيه، كانت الكلاب البرية قد نبشت قبره. استغربت دعوته هذه وقلت له: «كأنك تدعوني لمشاهدة منظر جميل او حديقة ورود، انا لا استطيع ان اشاهد دجاجة ميتة فكيف براس شاب عراقي؟» سخر مني وقال «نسيت انك رومانسي، عليك ان تتعامل مع الواقع، نحن في الحرب وقد يصادفك أي شيء.» قلت «لا

بأس ان يصادفني ولكن ان اسعى انا بنفسى لمشاهدة الرأس فهذا امر آخر.»

رحت افكر برأس ذلك الشاب الذي تورط في القتال مجبراً مع «فدائبي صدام» ومن المؤكد ان عائلته تبحث عنه الان متصورة انه حي في مكان ما، من غير ان يتخيلوا انه قتيل وان الكلاب البرية قد فصلت رأسه عن جسده. بينما صار ماهر يرى كوابيس مرعبة زادت من حالة قلقه، فقلت له «انت تسعى لان تعقد الامور على نفسك، تذهب للبحث عن الجثث او الرؤوس المقطوعة وتعود لتعاني من الكوابيس والقلق.»

كانت حركتنا محددة للغاية بسبب الاجراءات الامنية المبالغ فيها، حتى اننا، ماهر وانا، قررنا الذهاب في جولة الى المدينة القديمة، فلا احد يعرف من نكون، نحن عراقيان نتجول في مدينة النجف، لكننا لم نكن نحمل أية اوراق ثبوتية سوى الوثائق الاميركية والبريطانية. اعترض (ابو علي) الذي كان يلقب ماهر بـ«رامبو» على فكرتنا وقال «انتم الان تحت مسؤوليتنا، وحمائتكم في اولويات مهمتنا، ماذا سنفعل لو تعرضتم للاغتيال في المدينة لا سيما انكم قد شوهتكم مع ابو حيدر (الخوئي)» وكان الخوئي رفض هو الآخر ذات الفكرة وقال «غدا منذ الصباح الباكر سنكون في المدينة.»

كان النقاش الذي يسخن باستمرار بين ماهر الياسري وديفيد (ابو علي) هو عدم اهتمام القوات الاميركية بتزويدنا ببطاقات تعرف بنا، خاصة فيما اذا تعرضنا لموقف صعب يدفعنا لطلب المساعدة من القوات الاميركية في المدينة، لكن ديفيد كان يرد عليه بأننا لا نعمل مع القوات الاميركية، وان مجموعتنا تتبع الخوئي، و..«انتم عراقيون في بلدكم، والقوات الاميركية في المدينة تساعد كل من يطلب منها ذلك» حتى الخوئي نفسه وانا كنا نعترض على طلب ماهر ولم نوافق على تزويدنا

بمثل تلك الوثائق التي ستحمل لنا الاتهامات بالعمل مع الاميركان. ثم لمن تظهر هذه البطاقات والبلد بلا قوانين او قوة امنية من شرطة او جيش، وفي خارج القاعدة لا احد يعترض الاخر سوى القتلة واللصوص، وهؤلاء لا يهتمون بهذه البطاقات بأي حال من الاحوال.

الان وقد اصبحت لدينا سيارتان سنكون احرا را بعض الشيء في حركتنا، اقترحنا على الخوئي الذهاب في جولة سريعة الى مدينة النجف من غير ان ننزل من السيارة، وافق الاميركان على خروجنا لا سيما اننا كنا قد ذهبنا صباحا الى النجف وعدنا من غير اية حوادث، سعدنا، انا وماهر، مع الخوئي بينما ذهب عبد الحسن الخفاجي لزيارة اهله في النجف، الذين فارقهم منذ اثني عشر عاما. كانت انباء القتال في بغداد وبقية المحافظات تصلنا باستمرار، لم تكن بغداد قد سقطت بعد، كما لم تكن مدن البصرة والناصرية والسماوة والحلة قد تحررت من سيطرة ميليشيات «فدائيي صدام» وحزب البعث، اما القوات النظامية، واعني الجيش، فيبدو انهم استقرأوا النتائج مبكرا وتركوا معسكراتهم بهدوء، حتى ان معسكر تدريب النجف الذي يعد واحدا من اكبر المعسكرات التي تعد وتدريب جنود صنف المشاة بدا خاليا إلا من الصبية الذين كانوا يلعبون في ساحاته وقاعاته.

الكوفة

عند الساعة الخامسة مساءً تركنا المقر، كان الخوئي يقود السيارة بينما كنت اجلس الى جانبه وماهر في المقعد الخلفي بينما كان الخفاجي قد تركنا باكراً لزيارة اهله و(ترتيب الاوضاع). اجتزنا طوابير من الرجال الذين افترشوا الارصفة عند حي الانصار، لا بد انهم كانوا يحلون الاوضاع السياسية واخبار الحرب، فلم يكن هناك اي موضوع سوى هذه الاخبار التي تتناقلها الاذاعات، التيار الكهربائي كان ما يزال مقطوعاً عن مدينة النجف، ذلك ان المحطة الرئيسية لكهرباء النجف ارتبطت منذ احداث انتفاضة آذار ببغداد للتحكم بايصال التيار الكهربائي وقطعه من هناك، وكان مجموعة من المهندسين الذين كلفهم الخوئي يعملون على تشغيل محطة النجف لتقوم بتوليد الطاقة الكهربائية وتجهيز البيوت، الى ذلك كانت تنتشر ومنذ فترة ليست بقصيرة مولدات للطاقة الكهربائية بين الاحياء السكنية تعود ملكيتها لبعض التجار الذين يبيعون الطاقة الكهربائية بالوحدات، لهذا بدت الاسلاك الكهربائية

المتفرعة عن هذه المولدات مثل شبكات عنكبوتية ضخمة تغزو ازقة المدينة، اما الاغنياء فقد جهزوا بيوتهم بمولدات صغيرة للطاقة الكهربائية وكانوا يتابعون اخبار الحرب من خلال القنوات الفضائية بعد ان زرعوا وبسرعة اطباق (الستلايت) فوق سطوح بيوتهم.

مررنا بالاسواق التي كانت قد اغلقت ابوابها منذ بدء الحرب، وكانت حركة الناس تبدو عشوائية في الشوارع وكأنهم انفلتوا من نظام كان يسيطر حتى على طريقة حركتهم. اجتزنا ابنية المحافظة ومديرية امن النجف، ومقر حزب البعث، التي تم قصفها وتدميرها، وبدت صور صدام فوقها محطمة. قرأنا على جدار بناية دائرة امن النجف آية كريمة تقول «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». قال الخوئي وهو يتأمل البناية المحطمة «ليتكم تعلمون كم من الشباب والنساء ورجال الدين الابرياء اقتيدوا الى بناية الرعب هذه فعادوا جثثاً هامدة، بل ان غالبية منهم لم يعد حتى هذا اليوم، كم من مرة دخلت هذه البناية إما للتحقيق معي او للتوسط لإنقاذ رجل دين بريء او للسؤال عن طالب علم تم اختطافه وكلفني والذي البحث عنه ومعرفة مصيره.. انظروا ماذا حل بهم وبسجونهم وبنائيتهم.»

كان طريقنا الى الكوفة التي لم تعد منفصلة عن مدينة النجف بسبب اتساع الحركة المعمارية، شاهدنا اجزاء من تمثال برونزي لصدام وهو يمتطي حصانا كانت القوات الاميركية قد فجرته قبل ساعات قليلة وكان الناس ينظرون الى اجزاء التمثال المتناثرة في الطريق وهم غير مصدقين بانهم سيتخلصون من اشد الانظمة التي حكمت العراق قسوة وظلما، وقد جرى تحطيم ذلك التمثال قبل ان تحطم القوات الاميركية تمثال صدام في ساحة الفردوس وسط بغداد بثلاثة ايام. دخلنا الكوفة من جهة سوقها الشعبي الذي كان عامرا بانواع الخضار والفواكه واللحوم، درنا

حول بيت واسع، قال الخوئي «هذا بيت والدي رحمه الله» واستغرق في «ضباب من أسي شفيف» حيث قادته ذاكرته الى بيت السيد ابو القاسم الخوئي والحركة التي كانت دائبة فيه، قال «كنا نسكن في بيت صغير من بيوت النجف القديمة في زقاق يقع بحي المشراق، ثم طالبنا صاحب البيت بإخلائه ليبنى بدلا منه بناية كبيرة، ثم استاجرنا بيتا آخر حتى الحنا على والدي ببناء بيت لنا اسوة بباقي العوائل، لم يكن السيد (يعني والده) ليقتنع بفكرة بناء بيت جديد بل كان قانعا بالسكن في أي بيت بسيط حتى اقتنع وبنينا هذا البيت»، كان هناك عدد من المارة يتحلقون حول السيارة ويوجهون نظرات غير طبيعية نحونا مما دفع بالخوئي للتحرك بسرعة قائلاً «دعونا نذهب من هنا فعلى ما يبدو انهم عرفوني.»

في طريق عودتنا اشار الخوئي الى دار الامارة والى الموقع الذي قتل فيه الامام علي، كما شاهدنا جموع الناس قرب مسجد مسلم ابن عقيل، كانت صور صدام قد اختفت وحلت مكانها صور السيد محمد صادق الصدر الذي اغتيل مع اثنين من ابناؤه وسط مدينة النجف عام 1999، وكانت عدد من سيارات الـ«بيك أب» التي تحمل لوحات ارقام حكومية تمر بنا وعلى ظهرها عدد من المسلحين الذين يرتدون الدشاديش السوداء وهم يوزعون نظرات حادة نحو الاخرين.

قلت للخوئي وكأنتني استفسر منه: «أهو مسلم بن عقيل الذي بعثه الامام الحسين للاستفسار عن حقيقة موقف اهل الكوفة المؤيد له في ثورته ضد الامويين؟» اجاب «نعم»، اضفت: «وكان قد صلى خلفه عند وصوله اكثر من سبعين الفا من اهالي الكوفة قبل ان يغدروا به في اليوم التالي ويرموه من اعلى سطح القلعة؟» ادرك الخوئي ما اريد الذهاب اليه من تلك الاسئلة وانني اعرف حيثيات القصة جيدا، فاجاب «لعن الله

السياسة» قلت: «لعن الله الغدر، لقد غدروا بمسلم بن عقيل ثم بالإمام الحسين» قال «ذاك زمان آخر وكانت له ظروفه» عرفت انه يجيب عما في داخلي وليس عما اقله علنا، فقررت ان اذف كل ما افكر به مرة واحدة، فقلت له: «من سيضمن انهم لن يلحقوا بك الى نفس المصير؟» نظر الي الخوئي مستغربا استعجالي بالوصول الى النقطة التي احوم حولها مباشرة واستفزه السؤال الذي ربما كان قد فكر به هو وابعده عن ذهنه، بعد فترة صمت قصيرة قال «لماذا تفكر هكذا؟ ولماذا يقتلونني وانا جئت لمساعدتهم ودعمهم؟» قلت: «مسلم بن عقيل جاء لمساعدتهم والامام الحسين تحمل كل المشاق، ومن ثم القتل، من اجل وعد قطعه على نفسه ومن اجل مبادئه؟» قال: «ليست ثمة مقارنة بيني وبين مسلم بن عقيل او الامام الحسين، ثم ان الزمن تغير والناس تبدلت نفوسها، وهؤلاء هم لسيوا من غدر بمسلم او قتل الامام الحسين»، توقفت عن طرح ما يدور بذهني خشية ان يعتقد بانني احرصه على اهله واصحابه في النجف، وادركت بان رسالتي كانت واضحة له ووصلته بسرعة، كنت اريد تحذيره من الاندفاع والحماس الذي كان يدفعه بقوة الى مصير مجهول لا نعرفه. بعد فترة صمت اخرى قال: «هؤلاء ناسي واهلي واخوتي وانا اعرف كم يحبونني لانني منهم وعدت اليهم، اطلب مني الان الدخول الى اي زقاق او شارع والتوقف فيه فسترى عمق علاقاتي بهم وانهم ما زالوا يتذكرونني باخلاص بعد اكثر من عقد من السنين». كنا قد دلفنا بالسيارة الى شارع فرعي في منطقة سكنية، توقف قرب مجموعة من الرجال الذين كانوا يجلسون خارج بيوتهم، ترجل الخوئي عن السيارة وتبعناه انا وماهر، وما ان قال الخوئي لهم «السلام عليكم» حتى هتف احدهم: سيد عبد المجيد. فتعلق حوله الرجال معانقين له وهم يسألونه عما جاء به الى النجف في تلك الظروف. لكن تلك المواقف على اية حال

لا تبرهن اخلاص هذا او صدق ذاك، فعندما كان الخوئي يتوجه الى
حضرة الامام علي تقطع الشوارع ويتحلق حوله الناس بالملئات، لكننا لم
نر ايا منهم يقف الى جانبنا او جانبه في تلك الظهيرة الساخنة حيث تم
الغدر بالخوئي.

19

في انتظار الغد

عندما عدنا الى مقرنا في القاعدة الاميركية، كانت الشمس تسحب
ضياءها بهدوء، وكانت النجف تتحول ليلا الى مسرح للسراقات وتبادل
اطلاق النار وقذف الرمانات اليدوية، وحتى القوات الاميركية كانت

تسحب افرادها من محيط المدينة خشية من الهجمات السريعة التي قد تستهدفهم. في الليل كان الخوئي ينشغل عادة بالرد على المكالمات الهاتفية القادمة من وكالات الانباء والمحطات التلفزيونية الفضائية التي تبث كلامه مباشرة على الهواء، كما كنا نبقي لساعات متأخرة وحتى الثانية من الفجر ونحن نناقش طبيعة الاوضاع الدائرة في المدن الاخرى، وماذا سنفعل في الغد. وفي الغد كان من المفترض وصول فريق اعلامي يتكون من صحفيين وقنوات تلفزيونية من مختلف انحاء العالم لزيارة النجف باعتبارها اول مدينة عراقية تتحرر تماما من سيطرة نظام صدام حسين، ولعقد مؤتمر صحفي مع الخوئي في وسط المدينة، لكن العواصف الترابية حالت دون وصول طائرات الهليكوبتر التي تنقل الصحفيين من الكويت، وتم تأجيل المؤتمر الصحفي حتى يوم العاشر من ابريل/ نيسان، كما كان موعد وصول بقية افراد مجموعتنا من البحرين مساء يوم التاسع من ابريل، وهذا يتطلب تهيئة السكن لهم وعدد من السيارات التي سيأخذونها معهم الى مدنهم للبدء في مهماتهم الاغاثية والانسانية.

صحت فجر الثامن من ابريل بعد ان ادى كل من الخوئي وماهر الياسري صلاة الفجر، نادى عليّ الخوئي «هل تريد الذهاب الى الولاية ام البقاء هنا» وكانت هذه الطريقة هي الوحيدة التي تدفعني لترك السرير والتهيؤ للخروج بسرعة، فالبقاء في القاعدة وحيدا كان يعني بالنسبة لي تنفيذ عقوبة السجن الانفرادي، فالكل هنا من افراد القاعدة الاميركية مشغول بعمله، وليس هناك متسع من الوقت للتحدث معهم. توجهنا الى دار البهاش في حي السعد لتناول طعام الفطور الصباحي، وهناك التحق بنا عبد الحسن الخفاجي، تأكد الخوئي من ان الامور تجري بشكل حسن، حيث تمت تهيئة بيت السيد محمد تقى ليكون مقرا

لاقامتنا اولاً، كما تمت تهيئة سيارتي «بيك آب»، انهينا طعام الفطور بسرعة اذ كان على الخوئي زيارة بعض علماء الدين والمراجع والاجتماع بهم في بيوتهم، قام بزيارة مبكرة لاحد وجهاء المدينة في بيته الذي يقع قريباً من الحضرة الحيدرية (نسيت اسم ذلك الوجيه)، ومن ثم رافقنا الوجيه في زيارة الى بيت الشيخ اسحق الفياض، كما زار الشيخ النجفي ولم يجده في داره الذي يقع وسط حي نجفي قديم، وكانت هناك كابينة صغيرة مخصصة لافراد الامن تلاصق جدار بيت النجفي. وبينما كنا نقف انا وماهر خارج بيت اسحق الفياض طلب مني ماهر التقاط بعض الصور الفوتوغرافية له بجانب احد البيوت النجفية، خلال ذلك مرت قربنا عائلة تتكون من زوج وزوجة وولد في الثامنة من عمره وبنت في الرابعة من عمرها، كان اليأس والتعب يبدوان على تلك العائلة، وبينما كانت البنت تلتفت الينا وتبتسم، اسرع ماهر خلفهم وعاد بعد دقائق وكانت الدموع تبلل مقلتيه، سألته عما فعله؟ قال: «احتضنت هذه البنت ووضعت في يدها مبلغاً من الدولارات» كانت عيناه تدمعان من غير ان اعرف السبب الذي شرحه لي فيما بعد، فقد كانت للياسري بنت في عمرها من ام ايطالية، وتوفيت البنت منذ عام تقريباً، وعندما اخرج لي صورة ابنته من محفظته فوجئت بقرب الشبه بين البنت النجفية وابنته. في تمام العاشرة من ذلك الصباح كان للخوئي لقاء مع وجهاء وشيوخ واهالي النجف في ديوان الامام علي الذي يلاصق جدار الحضرة، دخلنا من خلال احدى بوابات الحضرة بينما كان الخوئي يفضل الدخول من الباب الخارجي للديوان من غير المرور بالحضرة كي لا يعرف الآخرون مكانه بالضبط، عندما وصلنا الى الديوان كانت جموع من الرجال قد احتشدت هناك في انتظار الخوئي الذي بدأ يتحدث عن التسامح والمحبة وقلب صفحة الماضي للبدء بصفحات الحاضر، مؤكداً

للنجفيين ان نظام صدام قد انتهى والى الابد، وان الفرصة الان مهيأة
للبناء والعيش بحرية، ودعا الالتزام بالقوانين ونبذ التناحر والاخذ بالثأر،
ثم أعلن ان النجف ستكون عاصمة دينية لكل المسلمين في العراق من
الشيعة والسنة، داعيا علماء السنة لان يفتتحوا معاهدم الدينية في
النجف لتكون المسافة قريبة بين المذاهب السنية والشيعة وفرصة للحوار
والتقارب والسجال، مشيدا بالعراق الذي يتألف شعبه من عدة اديان
وطوائف وقوميات، ثم بدأ بالرد على اسئلة واقتراحات الآخرين.
كنت اراقب وجوه الحاضرين، فهناك من كان سعيدا بطروحات الخوئي،
ومن كان مستغربا ما يقوله هذا السيد القادم من وراء البحار ليتحدث
بافكار بدت غريبة عنهم، وكانت هناك عيون تخفي وراء نظراتها الكثير
من الحقد والكراهية للخوئي، جالت عينا في اطراف القاعة بحثا عن
منفذ يمكن ان نفلت منه فيما لو تعرضنا لأي هجوم طارئ، فوجدت ان
الابواب كلها مغلقة وليس هناك اية ثغرة تنقذنا في حالات الطوارئ
القصوى، تركت القاعة بحجة التدخين لارى ما يحدث في الخارج، كانت
هناك مجموعات من الرجال الذين يرتدون الدشاديش السوداء، غالبية
اهالي النجف والشيعة يرتدون الدشاديش السوداء في شهر محرم او
في المناسبات الدينية، وكانت مناسبة مقتل الامام الحسن ابن الامام
علي بن ابي طالب ستصادف بعد يومين، يقفون وهم يسلطون نظراتهم
باتجاه القاعة، دعوت الله ان ينتهي هذا اللقاء بسلام، ثم اني حدست
بأن ايا من المتطرفين او اعداء الخوئي لن يغامر بالتحرك الان حيث يوجد
في القاعة كبار الشخصيات ووجهاء وشيوخ عشائر النجف. عندما عدت
الى القاعة كان الخوئي قد انتهى من حديثه ونقاشه مع الاهالي الذين
خرج معظمهم مسرورا بما قاله نجل زعيم طائفتهم، كان الخفاجي
والياسري يحيطان بالخوئي بينما كنت قد قذفت بعيدا بسبب تدافع

الناس من اجل الوصول الى الخوئي والسلام عليه، حتى انه عندما وصل الى السيارة وجدت من الصعوبة شق صفوف الناس والوصول اليه فقال لهم «ارجوكم اسمحوا للصحفي بالوصول الى السيارة» فصاح احدهم: صلوا على محمد، ثم فسحوا لي المجال للوصول، اذكر ذلك مستغربا الشائعات التي اطلقها منفذو جريمة قتل الخوئي من ان الخوئي لم يكن معروفا في النجف ولم تكن له اية شعبية، وان من قتله لم يكن ليميز بينه وبين حيدر الكليدار مع انه ليست هناك علامات شبه بين الاثنين.

بعد ذلك اللقاء توجهنا مباشرة الى بيت السيد حيدر الرفياعي الكليدار (المسؤول) عن الحضرة الحيدرية، وكان الرفياعي قد اعتكف في بيته منذ ما قبل الاحداث بسبب اتهامه من قبل بعض المتطرفين بعلاقته مع النظام السابق. كان حيدر الرفياعي يحمل شهادة الدكتوراه في الفقه وعضوا في البرلمان العراقي، وباعتباره المسؤول عن ادارة الحضرة الحيدرية كان من الطبيعي ان يستقبل صدام حسين كلما زار مرقد الامام علي، وبسبب ذلك اتهمه المتطرفون بانه عميل للاجهزة الامنية، ولا أفقه سبب الاتهام، ذلك ان الآلاف من اهالي النجف كانوا يهرعون لاستقبال صدام عندما كان رئيسا، وأي شخص في موقع الرفياعي كان سيفعل نفس ما فعله في علاقته مع النظام القاسي.

دخلت مع الخوئي الى بيت الرفياعي بينما بقي كل من الخفاجي والياسري في الخارج، كان هناك عدد من وجهاء النجف الذين اصطحبهم الخوئي معه ليبرهن للرفياعي ان كل شيء على ما يرام، إذ حثه على ضرورة العودة الى عمله ومكتبه في الحضرة بدلا من بقائها خالية وعرضة لسيطرة المتطرفين، إلا ان الرفياعي كان مترددا، وطلب من الخوئي التريث في ذلك وتأجيل ذهابه الى الحضرة ريثما تستتب الامور.

كان الخوئي يريد ان يبرهن صدق توجهاته المتسامحة وان الحياة عادت الى طبيعتها، وان الرفيعي لا بد ان يتسلم مهامه في الحضرة وهذا دليل على مبدأ التسامح ونسيان الماضي، لم يكن يدور بخلده ان هناك من يتصيد خطواته من اجل الايقاع والغدر به، وان غالبية من العراقيين قد تغيروا بعد ان طحنتهم ماكينة القسوة والظلم فحولتهم الى غوغاء لا يناون عن تنفيذ الجرائم الانتقامية والثأرية لسبب او بلا سبب، وان منطقته عن التسامح والمحبة لا يتوافق مع تربية جيلين على الاقل من العراقيين الذين اعاد صدام صياغتهم وفق منطلقاته الاجرامية، وان هؤلاء لم ولن يتوانوا عن تقديم الوشاية للاجهزة الامنية عن آباءهم واخوتهم من اجل المنصب او المال والجاه.

عدنا الى بيت البهاش حيث تأكد الخوئي أن مستلزمات سكن بقية افراد المجموعة مهيأة تماما، طلب عددا من الاسرة وجهاز استنساخ، ثم اعادنا الى مقرنا في القاعدة ليدخل هو في سلسلة من الاجتماعات مع شيوخ العشائر وعدد من المهندسين والاطباء وتجار النجف من اجل الاسراع بعودة الحياة الى طبيعتها وخاصة الدوائر الحكومية، مثل البريد والمستشفى والبنوك، كان يعمل وكأنه آلة لا تتعب.

بعد ظهر ذلك اليوم دعاني لاجتماع في مقر قيادة القاعدة التي كنا نوجد فيها، كان هناك «سكوت» و«ديفيد» وثلاثة ضباط اميركيين، بالاضافة الى شخص عراقي قدم نفسه باسم «ابو حيدر» وهو العقيد المتقاعد عبد المنعم، وكان ضابطا في الاستخبارات العسكرية العراقية، مع عدد من الشبان العراقيين الذين وضعوا فوق اذرعهم شارة بيضاء مكتوبا عليها (حركة التجمع الوطني). لم اكن اسمع بذاك التجمع قبل ذلك، ولكن عبد المنعم اشار الى ان تنظيمهم قام منذ اكثر من عشرين عاما وهو تنظيم سري للغاية واعضائه من القيادة العراقية.. بالطبع لم

اصدق ما قاله، فالجميع كانوا يدعون بأن تنظيمااتهم قديمة وان لهم انصارا في الجيش والقيادة العراقية، وقد ثبتت اكاذيبهم عندما صاروا على المحك، كان همهم الاساس هو الحصول، من خلال تلك الاساليب، على الاموال من الاميركيين وكانوا يحلمون بالملايين. كنا، الخوئي وانا، نستمتع فقط من غير ان نشارك كثيرا في النقاش الذي كان يدور بين الاميركان وعبد المنعم الذي كان يريد ان يثبت لهم بأن له نفوذا في المدينة وانه قادر على توفير الامن للمواطنين. لم نشارك في النقاش كوننا لا نعرف الشخص وحقيقة نفوذه سوى ان مجموعة من الشباب ملتفون حوله باعتباره زعيمهم. وكى لا أطيل: أسند اليه الاميركان منصب محافظ النجف فيما بعد ثم ألقوا القبض عليه بتهمة السرقة والابتزاز واستخدام نفوذه في مسائل غير قانونية.. على العموم فان الامن لم يحفظ في عهده بل على العكس من ذلك شهدت النجف انفلاتا امنيا واسعا.

بعد ظهر يوم الثامن من ابريل / نيسان ذهبنا الى النجف مرة اخرى، كانت للخوئي مواعيد مع بعض معارفه الذين يثق بهم، والغريب انه لم يكن يطلعنا على كل ما يدور من خطط او نقاشات، بل كان يتحدث عما يريدنا ان نعرفه وليس عن كل شيء، ذهبنا الى بيت صهر السيد حسن بحر العلوم (فاضل)، بقينا انا والخفاجي والياسري خارج البيت، فالأعراف الاجتماعية لاهالي النجف لا تسمح للغرباء بدخول بيوتهم إلا بعد تحضيرات مسبقة، وكان الخوئي يزور اصدقاءه بصورة مفاجئة ولا يمكث طويلا. خلال وجودنا خارج البيت انشغلنا انا وماهر بالحديث مع بعض الفتيان حول اوضاعهم في الدراسة وكيف يقضون اوقاتهم خلال هذه الظروف، بينما فوجئنا بالخفاجي يحتضن اثنين من الشباب اللذين اكتشفنا انهما ابنا خالته ويسكنان على مبعدة امتار من بيت (فاضل)، وعمل الشابان معنا بعد ذلك كسائقين. بعد اقل من ربع ساعة فتحت

البوابة الرئيسية للحديقة ونادى الخوئي على ماهر لقيادة سيارة اخرى كان الخوئي قد اشتراها توا وهي من نوع «تويوتا سوبر رويال» موديل 1996.

في طريق عودتنا الى القاعدة كنا نرى جموعا من الشباب والفتية يتحلقون حول المدرعات الاميركية يرتدون الخاكي ويضعون على اذرعهم علامة (التجمع الوطني) إذ تقرر تدريبهم للمساهمة في حماية الامن في المدينة. كان الخوئي يقود احدى السيارات وانا الى جانبه بينما قاد الياسري سيارة اخرى وذهب الخفاجي مع السيارة الثالثة الى بيت احد اشقائه.

كان يفترض ان تكون هذه هي الليلة الاخيرة التي سنقضها في هذه القاعدة، ففي الغد سننتقل الى بيت السيد محمد تقى، شقيق السيد عبد المجيد الخوئي، ونتحرر من الاشكالات الامنية في مقرنا الاميركي، سنشعر بنوع من التحرر والانطلاق ونحن بين مواطنينا، وفي الغد سيصل افراد بقية مجموعتنا من البحرين. قال الخوئي: «علينا ان ننام مبكرين، فغدا وبعده سنكون مشغولين جدا». قبل ان نخلد للنوم سألني الخوئي إذا كنت افضل السفر الى البصرة ام البقاء معه، قلت له: «افضل الذهاب الى البصرة لأرى ما يحدث هناك»، فقال «سنذهب معا الى الديوانية لزيارة الشيخ حازم الشعلان» الذي كان قد حقق الكثير من اهداف الرحلة واهدافه، وهذا ما أسعد الخوئي وجعله مثار فخر له، «ومن ثم نتوجه معا الى البصرة، ابق أنت هناك حيث تشاء ثم عد الى هنا»، بينما فضل ماهر البقاء في النجف، لكن الخوئي شدد عليه بضرورة السفر الى الديوانية لزيارة اهله ومساعدة ابناء مدينته، وقال له «خذ غدا احدى السيارات واذهب لزيارة اهلك» فقال الياسري: «بل سأبقى حتى يصل الآخرون من البحرين واذهب معهم.»

ترى هل كان قدر ماهر الياسري وموعده مع الموت في النجف هو الذي منعه من زيارة اهله بالرغم من الخيارات التي وفرها له الخوئي مرات عدة؟ فمئذ ان مات صديقه جلال الزياي في قاعدة الناصرية والياسري كان يبدو قلقا، غير مستقر، حاد المزاج مرة، ومرات مرحاً، حتى انه وفي الليلة التي سبقت انتقالنا من القاعدة الاميركية في النجف الى بيت السيد محمد تقى اعطاني ساعته التي كانت بيده، ساعة سوداء تماما لا تبدو غالية الثمن، قال: «خذ هذه الساعة»، قلت: «شكرا ماهر انا عندي ساعة، ثم اني لا احب هذه الساعات الخفيفة، وبالتالي هي ساعتك» قال: «خذها للذكرى، فقد اشترينا انا و(ابو عمار) ساعتين من واشنطن قبل ان نتوجه الى لندن ومن ثم البحرين، وهما متشابهتان في اللون والنوع والسعر، قلنا حتى يتذكر احدنا الآخر فيما اذا افترقنا، والآن هو مات، وانا لا اطيق رؤية هذه الساعة لانها تذكرني به، خذها وتذكرني اذا مت، اعرفك انت من أولئك الاشخاص الذين لا ينسون اصدقاءهم بسهولة»، قلت له: «لماذا تفكر هكذا؟ انت ما زلت شابا والموت ان شاء الله بعيد عنك الان»، قال: «من يدري، فها هو جلال قد مات فجأة من غير ان يعرف هو او نعرف نحن بموعد رحيله»، اخذت الساعة على امل ان اعيدها له فيما بعد لكنها ما تزال معي تذكرني بهذا الشاب الذي كان متناقضا في تصرفاته وثابتا في شجاعته وطيبته ونقاء روحه وإخلاصه ومحبته للآخرين.

يوم سقوط صدام

فجر يوم التاسع من نيسان.. الانباء تتواتر عبر الاذاعات عن سقوط نظام صدام.. البريطانيين غير متأكدين من ان حسن المجيد (الكيمياوي) قد قتل في قصر صدام في البصرة.. القوات المتحالفة تدخل المدن العراقية من غير اية مقاومة تذكر وتحكم سيطرتها على مطار صدام الدولي..

الدبابات الاميركية عبرت الجسر المعلق باتجاه الكرادة، يا إلهي، انها في قلب بغداد، والجنود الاميركيون يتنزهون في ساحة الاحتفالات قريبا من البيت الذي كنت اسكنه في الحارثية قبل ان اغادر العراق، صوت الصحاف، هذا الوزير الذي تحول الى اذاعة كوميدية، ما يزال يصرخ بان بغداد صامدة والقوات الاميركية بعيدة عنها، وفي خلفية المشهد العربات الاميركية في وسط بغداد وحولها يتحلق عدد من الاطفال.

ترى اين صدام ونظامه وقواته وميليشياته؟ هل يخبئ مفاجأة ما للقوات الاميركية؟ بغداد التي وضعت الادارة الاميركية ما بين ثلاثة الى ستة اشهر فترة لسقوطها وحسبت مفاجآت المقاومة وقاتل الشوارع، ها هي تتهاوى في ظرف اقل من يومين بينما قرية نائية وصغيرة في جنوب العراق، تدعى أم قصر، صمدت أسبوعا امام القوات البريطانية؟ كانت الاسئلة تترسب دواخلنا حول هذا السقوط الدراماتيكي لبغداد ولغياب القيادة برمتها عن ساحة الاحداث. هناك من قال ان صدام سوف يفجر مفاجآته من اسلحة الدمار ضد القوات الاميركية، وهناك من اعتبر تسهيل عملية دخول هذه القوات بمثابة الشرك المعد لهم مسبقا، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماما.

في طريقه للقاء الصحافيين وسط بغداد، كي يبرهن لهم ان القوات الاميركية ما تزل بعيدة عن بغداد، فوجئ الصحاف الذي كان يغطي وجهه بكوفية حمراء بالدبابات الاميركية في كل انحاء بغداد محاطة بالجماهير التي تهتف مرحبة بها، بينما كان قسم من العراقيين مشغولين بسرقة دوائر الدولة وإحراقها بمساعدة جهات من دول مجاورة. وبعد ان بقي الصحاف الذي ظل طوال فترة ما قبل الحرب وخلالها يكذب ويطلق التصريحات النارية التي تثير الضحك والقرف في آن واحد حول «العلوج» وانتصارات الجيش العراقي الذي اخلى الثكنات واستراح في البيوت مفضلاً عدم الموت مجاناً من اجل حياة (الرئيس القائد) الذي كان قد اختفى مع عائلته وقيادته.. استسلم (الصحاف) للامر الواقع وعاد ادراجه الى بيته في شارع فلسطين منتظراً ما ستقرره الاقدار. كانت صور صدام تحرق في النجف وتعلق بدلاً منها صور محمد باقر الصدر، ومحمد محمد صادق الصدر، قلت معلقاً للخوئي: «يا لسخرية الاقدار، الصدر وصدام يشتركان بالحرفين الاولين الصاد والدادال» اجاب: «الناس تعبر بطريقتها الخاصة عن حريتها وهذه مظاهر ستنتهي مع الايام» ثم قال متحمساً: «النظام سقط، هذا كل ما كنا نناضل ويناضل من اجله ملايين العراقيين، الآن لا يهمني سواء عشت ام لا» قلت: «الآن سيبدأ عصر جديد من المشاكل» اجاب: «تفاهل، ليست هناك مشاكل اكبر مما كنا عليه.»

انهار نظام صدام حسين في بغداد، العراقيون غير مصدقين هذا الحدث. صدام حسين، ذلك الديكتاتور المرعب، الذي كشفت المقابر الجماعية والوثائق التي تبين أعداد المعدومين والمفقودين في السجون السرية صحة ما كنا نتحدث عنه حول قسوة هذا النظام فيصرخ بعض العرب في وجوهنا مدافعين عنه (كبطل قومي)، والغريب اننا حتى اليوم

نسمع وعبر بعض الفضائيات العربية والعرب من يأسف لرحيل هذا الدكتاتور ويتمنى عودته، ولا ندري ان كانت هذه الامنيات من اجل الإيغال بتعذيب العراقيين وإذلالهم، ام انهم لا يريدون للعراق التحرر وأخذ مكانته الصحيحة؟

انهار نظام صدام حسين وبدأ الناس بتحطيم صورته وتمثيله العملاقة الجاثمة فوق صدورهم منذ اكثر من ثلاثة عقود. واتخيل ان نفرا من الفنانين العراقيين، رسامين ونحاتين، سوف يخسرون الهبات والمكافآت المادية التي كانوا يعتاشون منها لرسمهم ونحتهم صور صدام حسين. كان الحدث اكبر من ان يتخيله العراقيون وغير العراقيين، وهناك من لم يصدق المفاجأة حتى اليوم، وهناك من صدمه هذا الحدث. وعندما كنا نتحدث عبر الصحافة وبرامج التلفزيون عن قرب نهاية الدكتاتور صدام حسين، كان ينبري لنا هذا الصحفي، او ذاك من مقدمي البرامج، ليسخر من توقعاتنا على اعتبار ان صدام (جبل لا تهزه الريح الاميركية)، واننا (سوف نندم اذا رحل).

اهالي النجف صحوا يوم التاسع من ابريل (نيسان) وهم على يقين بان نظام صدام حسين قد انهار، وانهم تحرروا من عقدة الخوف والرعب التي سببها لهم نظامه واجهزته القمعية. كانوا فرحين بالتاكيد، ولكن اسئلة اخرى بدأت ترتسم في عيونهم، اسئلة عن الغد المقبل، عن المخاوف من الفراغ الامني الذي سيحل بالعراق عامة وفي المدينة الشيعية الاولى في العالم.

كانت صور الصنم صدام تتمزق وجدارياته تتهدم وتمثيله تتفجر، لتحل بدلا منها صور اخرى، تلك هي صور المرجع السابق محمد محمد صادق الصدر ونجله مقتدى، ولافتات جديدة بدأت تتوزع في بعض المناطق تنادي ان (لا زعيم إلا الصدر)، فأى صدر كانوا يعنون وقد قتل

قبل اكثر من عامين؟ فاذا كانوا يعنون نجله ذا الـ(22) عاما، وقتذاك، والذي لم يینه بعد اية مرحلة متقدمة من دراسته الاعتيادية، ولا يعرف عنه انه كان طالبا في الحوزة العلمية في النجف، فهذا يعني ان المخاطر بدأت تهدد مرجعيتهم وحوزتهم العلمية حقا.

كان اتباع الصدر يجوبون الشوارع بسيارات الـ(بيك آب) التي سرقت من دوائر الدولة وقد لصقوا عليها صور قائدهم مقتدى، وهم يضعون فوقها الرشاشات، او يتجولون في الاسواق وهم يخفون الكلاشنيكوف تحت عباءاتهم. كان زمن من الديكتاتورية والاضطهاد يمضي وزمن آخر من القلق والمخاوف يبدأ صفحاته توا.

صحونا صباح يوم التاسع من ابريل (نيسان) مبكرين، بعد ان ادى الخوئي والياسري صلاة الفجر، وضعنا حقائبنا في السيارتين اللتين احضرناهما معنا يوم امس، وغادرنا الموقع بعد ان ابغنا ديفيد (ابو علي) الذي ثبت فوق الخارطة موقع البيت الذي سنذهب اليه، وكان بيت محمد تقى، شقيق الخوئي. ونحن نغادر بوابة الموقع كنت اتمنى ان لا اعود الى هذا المكان ثانية، فقد شعرت بنوع من التحرر بالرغم من اننا كنا قد ضمنا في هذا الموقع سلامتنا وامن حياتنا.

العودة الى البيت

قبل ان نصل الى بيت شقيق الخوئي عرج الى بيت المرجع الشيعي اسحق الفياض لتحيته، كونه احد طلبة والده وكانت تربطه علاقة عميقة مع (ابو القاسم الخوئي)، وفيما دخل عبد الحسن الخفاجي معه الى دار الفياض، بقينا انا وماهر نلتقط بعض الصور للبيوت والازقة القديمة المحيطة بالمكان.

عندما تم اغتيال محمد تقي الخوئي عام 1994 في حادث سيارة مدبر من قبل جهاز الامن الخاص، الذي كان يديره ويشرف عليه قصي صدام حسين، وهو الذي خطط بنفسه لمقتل محمد تقي، قيل انه في الليلة التي تاكد فيها مقتل محمد تقي اقام احتفالا في نادي الزوارق على شرف هذه الجريمة.

كان عبد المجيد الخوئي في لندن يدير شؤون المؤسسة التي انشأها والده واشرف عليها شقيقه، اول امين عام لها، وكان وقع الخبر عليه كالصاعقة، ذلك ان محمد تقي لم يكن شقيقه فحسب، بل هو معلمه وصديقه ومثله الاعلى، وكانت سلطات صدام حسين قد منعت تشييعه

كي تتجنب المشاكل والفتن التي ربما تتولد خلال التشييع، ودفن الى جوار والده ابو القاسم الخوئي في مسجد الخضراء. وها هو الخوئي يدخل الى بيت شقيقه لأول مرة منذ رحيله. كانت السيارة التي اغتيل فيها محمد تقى موجودة في مرآب البيت ومغطاة، تأملها الخوئي وقال لي «لو تدري كم بذلت من الجهود وكم دفعت من الاموال كي نحصل على السيارة والاحتفاظ بها كدليل على جريمة اجهزة صدام»، ودخل الى البيت محاولا اخفاء دموع الحزن على شقيقه.

كان برنامج الخوئي في ذلك اليوم مزدحما، فقد كان يسابق الزمن من اجل تحقيق ما خطط له باسرع وقت ممكن. ذهبنا، الخوئي وانا وماهر، الى مرقد الامام علي حيث كان على موعد للاجتماع مع تكنوقراط وشيوخ العشائر ووجهاء مدينة النجف في قاعة المضيف الملاصقة للمرقد. كانت القاعة تزدحم بالحضور، وكان عدد الواقفين اكثر من الجالسين، وكلهم احتشدوا للاستماع له ومناقشته حول ما يجب تحقيقه للمدينة. خارج القاعة لاحظنا، انا والياسري، وجود وجوه حاقدة وعابسة ممن يرتدون الدشاديش السوداء وهم ينظرون شزرا للخوئي عن بعد، نبهت الياسري اليهم فقال «الله كريم.»

تحدث الخوئي في هذا الاجتماع عن فتح صفحة جديدة من العلاقات بين الطوائف والاديان والقوميات في العراق، كما اكد على اهمية التسامح وعدم ملاحقة العناصر التي كانت في حزب البعث او التي تورطت في الخدمة في الاجهزة الامنية لنظام صدام حسين المنهار. وكان اهم ما قاله هو اعلانه النجف عاصمةً دينيةً لكل المسلمين العراقيين، سنة وشيعة، مشيرا الى ان «نظام صدام قتل من علماء السنة اكثر من علماء الشيعة، ولكن لان عدد الشيعة اكثر فيبدو انه ظلم الشيعة دون غيرهم» ودعا علماء السنة لفتح مدارس ومعاهد دينية تتبع المذاهب السنية في

مدينة النجف الى جانب المدارس الشيعية ليكونوا قريبين من بعضهم ويناقشوا موضوع التقارب بين المذهبين مباشرة وبصورة عملية.

ثم ناقش مقترحات الاهالي حول الخدمات التي ستقدم الى المدينة خاصة عودة التيار الكهربائي بعد ان كان الماء قد تم ضخه الى البيوت. كنت اقرأ ردود فعل مختلفة في وجوه الحاضرين، ففيما كان بعضهم معجبا بالانفتاح الفكري الذي يتمتع به الخوئي، الداعي الى الحوار بين المذاهب والاديان، فان البعض الاخر كان يبدو مستنكرا لهذه الطروحات التي تعتبر دخيلة على مدرسة النجف التقليدية الشيعية بتطرف.

كان اسلوب الخوئي يتلخص بتفجير المشكلة ليكون جزءا منها ثم العمل على حلها، وكانت مشكلة اهالي النجف هي المسألة الطائفية، وعلاقتهم بالسنة، وها هو فجر هذه المشكلة وطرحها على الملأ لمناقشتها والتخلص من هذه العقدة التي استفحلت بسبب ممارسات النظام السابق القائم على اساس التفرقة الطائفية والقومية. سألته فيما بعد اذا كان جادا في موضوع فتح مدارس ومعاهد سننية في النجف، فاجاب «لم لا، ما المشكل في ذلك، الشيعة والسنة في العراق يعيشون في بلد واحد، يعملون معا، يتزاوجون، ويتعرضون لنفس المصير، وعليهم ان يتحاوروا بصراحة، وبدلا من رفع الشعارات التي تنبذ الاختلاف الطائفي فان عليهم ان يجروا حوارا علميا وفقهيا لاختصار المسافات فيما بينهم خدمة للاسلام وللعراق. ماذا سيضر الشيعة او السنة اذا ما فتحوا معاهد دينية قريبة من بعضها من حيث المكان؟ في ذلك ستتاح لهم فرصة للنقاش والتقارب، ثم لا تنسى انا من اهتم ومن خلال المؤسسة بموضوع التقريب بين المذاهب والحوار بين الاديان، هذا منهجي، وهذ ما اكتسبته في حياتي في الغرب، والا هل يمكن ان ابقى على نفس تفكيري وكأني ما أزال في النجف؟ انظر كيف يعيش الناس في لندن مثلا، من قوميات مختلفة، ومن

شتى الاديان، ومع ذلك يحيون بسلام، انا لا اريد ان اجعل من النجف مدينة غربية، لكن في الاقل تفتح على السنة، وبالمقابل تفتح مدارس شيعية في الاعظمية ببغداد.»

اعلن الخوئي ولاول مرة عن عودة الشعائر الشيعية الى الحياة بعد ان كانت قد منعت منذ عام 1978 بشكل كامل، حيث كان من المقرر ان يقيم مجلس العزاء في ذكرى وفاة الامام الحسن بن علي، الذي يصادف في اليوم التالي، وعودة شعيرة المشي الى كربلاء في ذكرى اربعينية مقتل الامام الحسين، وهو ما يطلق عليه محليا (البيادة)، بل كان قد انفق الاموال من اجل توفير الماء والطعام والاستراحات في الطريق الى كربلاء. ومنح خدم الحضرة الحيدرية المال لتوفير الطعام والماء ومولدة كهربائية لاقامة مجلس العزاء للامام الحسن. ولم يكن غيره قد تحدث او حث على عودة هذه الشعائر قبله.

تركنا القاعة وسط حشد من الناس الذين كانوا يحفون بالخوئي، بينما ظلت بعض الوجوه التي توسطت الحضرة تنظر بلا ارتياح للخوئي وهو يستعيد شعبيته بين اهالي النجف بهذه السرعة.

في طريق عودتنا الى البيت، مر الخوئي ببيت حيدر الرفيعي (الكليدار) لحثه على ان يعود الى عمله في الحضرة صباح اليوم التالي، واتفقا على ذلك.

اخذنا طريقنا الى البيت الذي وجدناه مزدحما بالشيوخ والوجهاء الذي جاءوا للقاء الخوئي. كان هناك عدد من الشخصيات تدخل لانتظار الخوئي ريثما ينتهي من لقاءاته، ليلتقي الاخرين، بينما هيا الخفاجي بعض الاشخاص للعمل في البيت وتحضير القهوة، وبعض المرافقين والسواق، وكان غالبيتهم من اقاربه، من ابناء اشقائه وشقيقاته كونه يثق بهم اكثر من غيرهم وكان محقا في ذلك، اذ اشترى الخوئي ثلاث

سيارات اخرى، واحدة (تويوتا سوبر سالون) واثنان (بيك آب). ولا
اتذكر ان ثمة فرصة اتحت للخوئي لتناول طعام الغداء ذلك النهار، فقد
تم تقسيم الصالون الرئيسي في بيت محمد تقي الى صالونين، تفصل
بينهما بوابة خشبية (سلايد)، وخصص القسم الاكبر لانتظار الناس
الذين سيلتقيهم الخوئي، بينما كان يجتمع مع الاخرين في القسم
الصغير من الصالون. لم تتح لنا الفرصة لان نلتقي بالخوئي ذلك النهار
بالرغم من وجوده بيننا، بسبب مشاغله الكثيرة.
استغللت فرصة انشغال الخوئي في اجتماعاته مع الشخصيات النجفية،
فخرجنا بعد الظهر، انا وماهر الياسري، في جولة بين احياء المدينة،
وكنت اقود سيارة التويوتا الحديثة والتي كانت تجذب الانتظار الينا، اما
ملابسنا الاوروبية فكانت تؤكد اننا لسنا من النجف او من اهالي المدينة
الذين يرتدون في الغالب (الدشاديش)، ويغطون الرأس بالكوفية والعقال،
او بالعمامة البيضاء او السوداء. والعمامة البيضاء تشير الى ان
الشخص رجل دين (شيخ)، اما من يضع العمامة السوداء فهذا يعني
انه (سيد) ونسله ينحدر من عائلة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)،
او من (آل البيت).

قلت لماهر: «انهم ينظرون الينا بريية»، اجاب «لا عليك بهم، انهم
يتصرفون هكذا مع الغرباء، لكننا لسنا غرباء، نحن ابناء هذا البلد، ولا
تبدو على وجوهنا اية تقاطيع غربية، وكلانا سمراوان وبلون تراب النجف.
وضح ماهر قائلاً «في المدن الصغيرة والمحافظة يعرف الناس بعضهم
البعض جيداً، ويميزون أي وجه غريب، حتى لو كنا قد جئنا من الديوانية
او الحلة فنحن بالنسبة لهم غرباء، ثم لا تنسى نحن في سيارة حديثة
بينما كل السيارات في الشوارع قديمة ومتهاكة.»

كان الناس يملأون الشوارع، فلا عمل لديهم، كل الدوائر والمدارس معطلة، الفتيان والشباب يتحلقون حول الدوريات الاميركية وهم يتفحصون افرادها وكأنهم مخلوقات غريبة هبطت عليهم من كوكب بعيد وفي ذات الوقت محاولين ابداء وُدِّهم لافرادها. شققنا طريقنا الى الكوفة التي كان سوقها مزدحما وعامرا بالمواد الغذائية، هنا بالامس حدثت مشادة بين بائع وزبون انتهت بالاقتتال بواسطة القنابل اليدوية. وكان موضوع استخدام هذه القنابل التي تركت في كل مكان تقريبا في النجف، قد صار عادة شائعة، كان الفتيان يستخدمون هذه القنابل لاغراض التسلية او صيد السمك في نهر الفرات الذي تقع عليه الكوفة. وفي الليل كنا نسمع اصوات رمي الرصاص من رشاشات الكلاشنيكوف، فالمدينة كانت تترك ليلا من غير حماية امنية، اميركية او عراقية.

عبرنا جسر الكوفة لزيارة قصر صدام حسين على نهر الفرات الذي لم يبق فيه منذ ان بناه، وترك عرضة للسرقة والتخريب، وكانت بوابته الفخمة ترتفع كمنذتين عاليتين. لم ندخل الى القصر بل قررنا اجتياز طريق يمر بين البساتين الخضراء التي تقع على شاطئ الفرات مباشرة. بعد اقل من ساعة قررنا العودة الى النجف. في طريقنا الى البيت شاهدت مسجد الكوفة (مسلم بن عقيل)، القريب من المكان الذي قتل فيه الامام علي عند دار الامارة. كان المسجد مزدحما بالمصلين والزوار، وكانت صور محمد محمد صادق الصدر معلقة في كل مكان حيث كان يؤم اتباعه في صلاة الجمعة في مسجد الكوفة.

عدت لاكتب الموضوع اليومي لصحيفة «الشرق الاوسط» الذي كنت ابعثه عبر الهاتف الفضائي لمقر الصحيفة في لندن، وقد عرض علي ليث البهاش ان اكتب الموضوع في بيتهم حيث لا مجال في بيت محمد تقى

ووافقت على دعوته الكريمة وهاتفت الجريدة لألقن الموضوع لموظفة عراقية كانت تعمل في قسم الطباعة بالجريدة وكانت شيعية لم تزر العراق منذ طفولتها.

كان الخوئي ما زال منشغلا باجتماعاته، وكانت قائمة المنتظرين تضم عددا من الاطباء والتجار والمهندسين والمحامين والقضاة وضباط الشرطة ورجال الدين. عندما عدت الى بيت محمد تقى وانتهى الخوئي من اجتماعاته بدا متعبا وعاتبني على تركي له واستغربت ذلك فأجبتة انه كان مشغولا كما اني كنت منشغلا بعملتي، فرد قائلاً: «كنت اريدك ان تكون معي في الاجتماعات لتكون شاهدا عليها»، ابتسم كعادته وقال: «ثم ان سجائري نفذت ولم ادخن منذ ساعتين» سلمته علبة الدخان، استل منها سيجارة ووضع العلبة في جيبه.

بعد الساعة الثامنة مساءً، تهيأ الجميع لاستقبال بقية المجموعة التي ستصل ليلا من البحرين وتنضم اليها، وكان الخوئي قد قسم المجموعة حسب المحافظات، كما بدأ بتوفير احتياجاتهم من سيارات واموال لتنفيذ خططهم الاغاثية والانسانية التي تم الاتفاق عليها مسبقا في لندن. وصل اعضاء بقية المجموعة، وكنا قد هياأنا لهم مكان اقاماتهم، وكانوا قد انشغلوا بالاتصال بعوائلهم ليبشروهم بالوصول الى النجف. كان من المفترض ان نبني، الخوئي وانا، في بيت البهاش القريب من بيت محمد تقى في حي السعد، وكان الخفاجي قد قرر المبيت في بيت احد اشقائه الذين لم يلتق بهم منذ اكثر من اثني عشر عاما. لكن عند الساعة الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة، اخبرني الخوئي بانه قرر المبيت في بيت عمه، والد زوجته السيد البهشتي، رحمه الله، الذي قضى متأثرا بحادث مقتل صهره عبد المجيد الخوئي، وطلب مني البقاء مع بقية افراد

المجموعة كونهم وصلوا توا ولا يعرفون أي شخص في البيت، توادعنا على امل اللقاء في اليوم التالي.

كان غالبية افراد المجموعة الذين وصلوا من البحرين يتوزعون خارج منزل محمد تقى وهم سعداء بوصولهم الى النجف. كان بينهم من يخبر عائلته عبر الهاتف بقصص بطولية وهمية عن مخاطر تعرضوا لها من اجل الوصول الى النجف.

دعوت الجميع للدخول وقلت لهم: «المدينة غير آمنة، فربما تمر الان سيارة وفيها اتباع صدام ويرشقونكم بالرصاص». دخل الجميع واتخذ كل واحد لنفسه محلا للنوم بينما بقيت انا ساهرا اتامل فيما سيحدث في الغد.

كنت انام على طرف من الصالة، ولم انس اني رأيت في منامي تلك الليلة ذلك الحلم الذي يتكرر منذ رحيل امي وابي عام 1998، كنت ادخل الى بيتنا في بغداد دافعا بوابة الحديقة وانا انادي بصوت عال «يمة.. يابة.. أني رجعت» فتستقبلني امي بهلهولة وضحكتها الواسعة مرسومة على وجهها، فأقبل يدها ويد والدي وانا ابكي فرحا. صحت عند الساعة الرابعة والنصف فجرا، شربت ماء وخرجت الى الحديقة لأتأكد ان كان هناك من يحرس البيت، كان الجميع يغطون في النوم، دخنت سيجارتين وعدت الى النوم.

الصعود الى الجلجلة

الساعة السابعة صباح يوم العاشر من نيسان، صحت مبكرا بسبب الضجيج الذي كان يسود البيت، هناك من يسأل عن الشاي وآخر عن اتجاه القبلة وآخرون عن الفطور. طمأنتهم بان فطورا من الدرجة الاولى سيصل اليهم بعد قليل، ثم صعدت الى الحمام لاضع جسدي تحت دوش الماء البارد لانشط دورتي الدموية.

جاء ليث البهاش وهو يحمل الفطور للجميع، قيصر وجبن ابيض وكباب وخبز، واصطحبني معه الى البيت وقال «انت فطورك معنا». رافقت ليث الى منزلهم الذي فتح امامنا بكرم بالغ. عندما دخلت الى غرفة المعيشة (الهول) في بيت البهاش وجدت الخوئي وهو يجمع فراشه مبتسما بخجل، اذ كان قد اخبرني، كما ذكرت، انه

سينام في بيت عمه البهشتي، لكنني وجدته قد نام في بيت البهاش،
وأدركت ان عودته المتأخرة ليلة امس لا شك منعتة من الذهاب الى بيت
عمه. كان هناك ايضا سعد الخرسان الذي يبدو انه نام ايضا في بيت
البهاش اذ كان هناك فراشان متباعدان فوق الارض.
صلى الخوئي ووضع امامنا طعام الفطور الذي لم نكملة بسبب إلحاح
الخوئي ترك البيت والتوجه الى بيت محمد تقي. كان الخوئي يبدو على
عجلة من امره في ذلك الصباح، قال: «ياالله، ليس هناك وقت للفطور
اليوم». كان سعيدا الى درجة لم اراه فيها طوال علاقتنا. خرجنا معا
وكان معنا الخرسان بينما اعتذر ليث عن المجيء كونه مشغولا بأمر
اخرى، هنا علي ان اقول ان ليث لم يرافقنا في اية جولة قمنا بها مع
الخوئي و«ربما» يعود ذلك الى انه كان يخشى جماعة مقتدى الصدر..
ربما.

وصلنا الى بيت محمد تقي حيث كان الجميع متهيئا للذهاب الى مرقد
الامام علي وقد ارتدى الجميع ملابس انيقة. اجرى الخوئي اتصالات مع
افراد عائلته بينهم ابن شقيقه جواد الخوئي الذي كان وقتذاك في قم
يواصل دراسته الحوزوية، وكذلك مع زوجته وشقيقته واولاده، قال لاحد
ابنائهم، او لابنته حوراء، لست متأكدا، إنه صار لهم بيت في النجف وعمما
قريب سيجيئون الى هنا (النجف). كنت ارد على غالبية الاتصالات التي
ترده، ومن بينها في ذلك الصباح نداء من شقيقته «ام زينب» او من
زوجته «ام حيدر» التي قالت لي «ديروا بالكم على السيد» وكأن قلبها
كان يعلمها بقرب حدوث شيء ما، فأجبتها مازحا: «قولي للسيد يدير
باله علينا» في إشارة الى كثرة المشاغل وزحمتها.

ما بين الساعة الثامنة والثامنة والنصف جاءتني اتصالات عدة من
الشيخ حازم الشعلان الذي كان قد وصل الى الديوانية وفرض سيطرته

عليها، وقد أُلح في اتصالاته على ان نترك النجف فورا ونتوجه اليه في الديوانية لتناول طعام الغداء معه، وعندما الح قلت له ان برنامج السيد مزدحم اليوم، فقال «لا بد ان تأتوا، قل للسيد ان يترك كل شيء ويأتي.»

اخبرت الخوئي بفحوى مكالمات الشعلان والححت عليه بالاتصال به، ورغم مشاغله تحدث مع الشعلان ووعده بان نذهب اليه، الخوئي وانا، حين نكون في طريقنا الى مدينة البصرة عندما ينتهي من برنامج ذلك اليوم، رد عليه الشعلان بضرورة تنفيذ ذلك باسرع وقت، وقال (الشعلان) لي: «تعالوا هنا حتى اذا لم ينته السيد من برامجه، هناك امر مهم لا يستطيع ان اشرحه على الهاتف.»

كان قد مضى على رحلتنا ثلاثة اسابيع في بلد التراب، والشمس الحارقة، واسميه «بلد التراب» لأن العواصف الترابية كانت اول ما استقبلنا في الاراضي العراقية وبعد غياب اكثر من احدى عشر سنة. سابقى اتذكر تفاصيل مشاهد هذه الرحلة مثل صور تنبض في ذهني خاصة مشاهد القتل التي تعرضنا لها. زمن هذه المشاهد ساعتان وخمس وثلاثون دقيقة، لكنها بالنسبة لي ستبقى راسخة في ذاكرتي ما حييت، ليس بسبب ازيز الرصاص الذي كان ينهال علينا كل لحظة، فقد كنت قد عشت احداثا اكثر خطورة من هذه خلال الحرب العراقية الايرانية عندما كنت ولثمانى سنوات مراسلا حربيا في تلك الحرب العبيثة، لكنى سابقى اتذكر احداث النجف لعدم منطقيتها من جهة، ولإصرار الغوغاء المهاجمين على قتلنا بلا سبب سوى تعطشهم للدم والقتل المجاني.

بهذا المشهد استهل عصر تحرير العراق على ايدي القوات المتحالفة من نظام صدام حسين، ومن غريب الصدف ان هذه الاحداث جرت يوم

العاشر من ابريل (نيسان)، وهو اليوم الذي تلى سقوط بغداد وتهدمت فيه اصنام صدام حسين، اليوم الذي كنا ننتظره منذ اكثر من خمسة وثلاثين عاما.

كل شيء في مدينة النجف بلون التراب، عاصفة حمراء تلون المشهد العام، وجوه الناس بلون التراب، ألوان البيوت وكل الابنية، تكتسب تدرجات لونية ترابية، باستثناء قبة ضريح الامام علي التي تشع ذهباً، ويبرز بريقها من فوق هضبة المدينة التي يزيد عمرها عن الف واربعمائة عام.

كان صباح يوم الخميس العاشر من ابريل، الموافق السابع من صفر 1424 للهجرة، على عكس بقية الايام، كان صباحاً مشمساً ومعتدل الحرارة، بينما كانت العواصف الترابية قد منعت ليومين متتاليين وصول الطائرة التي تقل الصحفيين واجهزة الاعلام العربية والاجنبية للقاء عبد المجيد الخوئي في مؤتمر صحفي كان سيعقد صباح ذلك اليوم في مدينة النجف باعتبارها اول المدن التي تم تحريرها تماماً من سيطرة نظام صدام حسين ومليشياته المسلحة من جهة، وكونها مدينة مقدسة لدى العراقيين، خاصة الشيعة، تلك المدينة التي ذبح نظام صدام غالبية ابناءها وعلمائها.

سألني، الخوئي، فجأة إن كنت قد ارتديت الدرع الواقى من الرصاص ام لا؟ اجبته بنعم، مع ابتسامة تدل على اني لم افعل، حيث كنت ارتدي تي شيرت اسود وسروال جينز ازرق وقميصاً خاكي اللون وأضع قبعة خاكية اشتريتها من لندن. عاتبني على عدم ارتدائي الدرع الواقى من الرصاص كونه يحفظ حياتي، فقلت له إن الجو حار للغاية ولا أطيق هذا الدرع الثقيل، ثم ان الارواح بيد الله تعالى، ولو كان الله تعالى يريد موت اي احد فلن ينفع معه اي درع، هنا وجد نفسه امام تبرير ديني لا

مناص منه، فقال «لكن الله تعالى لا يقول إرم نفسك في التهلكة، ثم اني
اخشى على حياتك يا ابو نورس.»

كانت مقترحات او احاديث الخوئي لنا بمثابة الاوامر، كونه يعتبر نفسه
المسؤول بعد الله عن حياتنا، والغريب ان الخوئي نفسه وماهر الياسري
قتلا وكانا يرتديان الدرع الواقي من الرصاص، الخوئي عندما ارغمه
اتباع الصدر على خلع الدرع، والياسري عندما جاءت الرصاصات
القاتلة في مثانته اسفل الدرع بمليمترات.

كانت علامات السعادة تتوهج في عيني الخوئي، رغم التعب الذي كنا
نعانيه منذ اكثر من اسبوعين، اي منذ ان تركنا البحرين. في السيارة
التي كان يقودها بنفسه كان يردد قائلاً «نحن في العراق، نحن في
النجف وصدام ولّى الى غير رجعة»، كنت اقدر مشاعره، فهو من ترك
مدينته مرغما قبل اكثر من اثني عشر عاما وسط الانتفاضة الشعبية في
آذار عام 1991، اثر اعتقال شقيقه الاصغر ابراهيم، والبحث عنه
لإعدامه. سألته وقتذاك: «هل انت سعيد من باب التحدي بان تكون في
النجف التي ارغمت على تركها؟»، اجاب بلا تردد: «بل وان نكون اول
من دخل العراق، ليس مهما ان اكون في النجف او البصرة او اية مدينة
عراقية محررة من سيطرة صدام حسين.»

بعد المؤتمر الصحفي كان الخوئي سيلتقي بالتكنوقراط من اهالي
النجف للبحث في كيفية عودة الحياة الطبيعية الى المدينة، ومن ثم كان
علينا، هو وانا، ان نذهب الى البصرة مرورا بالديوانية للقاء حازم
الشعلان الذي كان اول من ترجم اهداف مشروع الخوئي .

كان الخوئي قد طلب من القوات الاميركية عدم الاقتراب من الاماكن
الاسلامية المقدسة، وخاصة المساجد ومراقد اللأئمة، كما رفض ان يكون
محاطا بحماية اميركية على اعتبار انه بين اهله في النجف وليس بحاجة

لمن يحميه منهم، فقد كان سلاحه المنطق والحوار والمحبة، بينما كان سلاح الآخرين انواعا مختلفة من الرشاشات والقنابل اليدوية. فهو القادم من لندن وغير العارف الى أي مدى بلغت الامور في العراق تحت سلطة صدام حسين.

صعدنا جميعنا في باص بينما ذهب الخوئي مع الخرسان الى بيت الرفيعي لاصطحابه الى المرقد ليأخذ مكانه في الكليدارية باعتباره المسؤول عنها، وفي اشارة لأهالي النجف بان يقبلوا صفحة الماضي ويتناسوا الاحقاد وتعود الحياة الى طبيعتها.

لم يكن الخوئي يتصرف من تلقاء نفسه، فقد الح عليه اهالي النجف خلال اجتماعاتهم به ان يضغط على الكليدار (حيدر) للعودة لتسلم مهامه باعتباره المسؤول الشرعي والوريث الرسمي عن خدمة صحن الامام علي. لقد سمعت مجموعة من اشراف النجف يقولون للخوئي «نريد إنقاذ الحضرة من الزعاطيط (مصطلح عراقي يطلق على الصغار والسذج الذين يتصرفون بطريقة غير مسؤولة)، والحثك (بتشديد الكاف وهي مفردة يطلقها اهالي النجف الاصليين على الرعاع من غير اهالي النجف والذين من الممكن ان يتصرفوا ضد مبادئ واخلاق المجتمع ويمكن شراؤهم)». كما قال له اشراف المدينة «من المسؤول اذا ما تم تدنيس الضريح او تفجيره او سرقة؟».

إذن، جاء إلحاح الخوئي على الكليدار بطلب من اهالي النجف انفسهم، الذين برروا له قائلين «لو كان احد يريد قتل السيد حيدر لذهبوا اليه الى منزله، فالجميع يعرف عنوانه وهو يعيش وحيدا مع زوجته ولا سلاح عنده.»

وحيدر الكليدار يتحدر من عائلة الرفيعي، وهي من العوائل النجفية الشريفة، وصاحبة علم ومعرفة، توارثت شرف خدمة ضريح الإمام علي

منذ اكثر من 400 سنة او اكثر. والرفيعي (حيدر) نفسه يحمل شهادة الدكتوراه وهو رجل تقي ومؤدب ودمت الاخلاق وقريب من النفس وكان عضوا في البرلمان العراقي كما ذكرت سابقا. اتباع مقتدى الصدر الذين اعابوا عليه علاقته بالحكومة (نظام صدام)، لأنه كان يستقبل صدام حسين عندما كان يزور النجف، يعرفون جيدا ان الكليدار كان يوصل الراتب الضخم الذي كان قد خصصه صدام حسين للمرجع محمد محمد صادق الصدر والذي كان يتقبله برضا ومن دون اعتراض او رفض. ويصدد استقباله لصدام أسأل: «من كان ليجرؤ بعدم استقبال صدام، هذا اولاً، ثانياً ألم يكن جميع اهالي النجف يخرجون راقصين مهللين سعداء لاستقبال «السيد الرئيس القائد» هاتفين له «بالروح بالدم نفديك يا صدام؟»، ألم يتبار شعراء النجف بإلقاء قصائد المديح في صدام؟ ألم يتوجه اليه أشرف المدينة ورؤساء عشائرها قبل الانتفاضة وبعدها معاهدين اياه بالدم بالتضحية بحياتهم من اجله؟ ألم يوافقوا، وخاصة اتباع المرجع محمد محمد الصدر، على ان يعين صدام مرجعهم خارج قوانين واعراف المرجعية والحوزة، واتبعوا هذا المرجع وقلده غالبيتهم؟ هذا المرجع الذي كان يشتم استاذه واستاذ اساتذته ابو القاسم الخوئي من منبر الصلاة، وينكر عليه بانه (الخوئي) سيد، وقال «بل هو شيخ، ولأن عمامته توسخت وصارت سوداء فاعتقد الناس انه سيد» وهذا موثق على اشربة كاسيت، من دون ان تنفع معه تحذيرات الشيخ الفياض بألا يتناول على استاذه وعلى مرجع مهم، علما بان الخوئي لم يتقاض في حياته فلسا واحدا من الحكومة وكان مرجعا اعلى لكل شيعة العالم بلا منازع باختيار الشيعة انفسهم وباعتراف كامل من المرجعيات الاخرى والحوزة التي درس اساتذتها على مدى اكثر من 70 عاما، بل انه (ابو القاسم الخوئي) لم يتقبل سيارات المارسيديس التي ارسلها له صدام مع

وزير التجارة وقتذاك محمد صالح واعادها كي لا يقال ان النظام اشتراه، بل كان ندا للنظام وحافظ على الفصل التام بين المرجعية والدولة ولم يورط الحوزة او المرجعية بمواقف محرجة مع الدولة. هو ابو القاسم نفسه من دافع وحمى تلميذه محمد باقر الصدر عندما كان محتفيا ببيت الخوئي حيث لم تجرؤ اجهزة الامن على الاقتراب منه طالما هو في بيت الخوئي بينما قبضت عليه بعد مغادرته البيت مباشرة. على العموم من الخطأ الكبير المقارنة بين الخوئي ومحمد صادق الصدر، بل بينه وبين اي من المراجع.. والشيعية المنصفون يدركون ذلك.

لأسباب الحسد، وربما لاسباب مالية، راح محمد صادق الصدر يتهم عبد المجيد الخوئي بانه سرق اموال الشيعة وانه متزوج من اوروبيات وغير ذلك من تهمة ما أنزل الله بها من سلطان والسبب الرئيسي ان عبد المجيد الخوئي لم يتبع مسؤولية مؤسسة الامام الخوئي الخيرية في لندن لمرجعية محمد صادق الصدر حفاظا على المرجعية من الضغوط الامنية التي كانت تعمل وقتذاك على نقل المؤسسة الى العراق للسيطرة عليها او إغلاقها لكثرة نشاطاتها الخيرية للشيعة في العالم، ولكون الصدر الثاني لم يكن مرجعا اعلى للشيعة في العالم.

المسألة الثانية التي كانت تلح على عبد المجيد الخوئي، لإعادة الامور الى نصابها، هي ان مشروعه الانساني، الذي جننا من اجله الى العراق والنجف خاصة مضحين بحياتنا، ينصبُّ باتجاه تهدئة الامور في كل مدينة يتم تحريرها من سيطرة نظام صدام، وبخاصة مدن الوسط والجنوب، لهذا اختار معه في هذه المهمة اعيان وشيوخ عشائر وابناء تلك المدن، واذا كان وصولنا للنجف كأول مدينة ذلك لانها كانت اول مدينة تتحرر من سيطرة صدام، ولو كانت مدينة الحلة، او السماوة، او الناصرية، او العمارة، قد تحررت اولا لتوجهنا اليها. تخطيطنا الاولي

كان الاقامة في البصرة باعتبارها اكبر مدن الجنوب والانطلاق منها،
لكن القدر شاء ان تتحرر النجف اولاً.
وقد اعتبر الخوئي هذه المصادفة فأل خير، حيث ان النجف مدينة مقدسة
من قبل العراقيين عامة والشيعية من سكان الوسط والجنوب وفي كل
انحاء العالم خاصة لوجود مرقد الامام علي فيها، ثم انها تتوسط العراق
ويمكننا الانطلاق منها بسهولة الى اية مدينة في خارطة مشروعنا.
كان الخوئي ينطلق من معاناة ذاكرته حول ما حدث خلال انتفاضة
1991 عندما استغل بعض الغوغاء، ومن دخل من ايران، الفرصة
لانتقام العشوائى والعبثي، فقتل من قتل وانتهكت اعراض بعض
المسؤولين البعثيين والابرياء، كما سرقت مخازن الدولة ومؤسساتها
ومنازل ومحلات الناس، ما دفع الخوئي وقتذاك الى اصدار فتوة بتحريم
سرقة اموال الدولة والناس، كما حرّم القتل والاقتيال والانتقام والاخذ
بالثأر، وترك الامور للقضاء. وبذلك شوهدت بعض صور تلك الانتفاضة
البطولية التي قادها وراح ضحيتها رجال ونساء واطفال من اجل قضية
حقيقية. كان الخوئي حريصاً على ان تكون عمليات تحرير المدن نظيفة
وبيضاء، لهذا كان من المفروض ان توزع الاذاعات المحلية على
المحافظات وتذاع فيها الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واقوال الامام
علي وبقية أئمة آل البيت والبيانات التي اعدتها في لندن والبحرين
والداعية الى تهدئة الناس وتقديم النصح لشيوخ العشائر ورجال الشرطة
والجيش والعراقيين بعدم الانتقام او الاخذ بالثأر واللجوء الى القضاء او
شيوخ العشائر ورجال الدين من مسلمين ومسيحيين وصابئة، وتقديم
النصح كذلك للبعثيين ومن تورط من منتسبي الامن بجرائم ضد
العراقيين للجوء الى عشائريهم لتقديمهم فيما بعد الى القضاء العادل. ان
التفكير بضخامة مشروع الخوئي الانساني والاغاثي سيجعل الكثير من

العراقيين يكفون عن سؤالي: لماذا ذهبتم الى العراق في وقت مبكر..
وكأنهم يعتقدون اننا ذهبنا كغيرنا نبغي مناصب سياسية او الحصول
على قطعة من الحلوى المرة العراقية التي قسمت تحت تسمية
المحاصصة.

23

دماء على جدران الامام

وصلنا الى مرقد الامام علي عند الساعة التاسعة وعشر دقائق من
صباح يوم العاشر من نيسان. كالعادة خرج المئات من اهالي النجف
للترحيب بالسيد الخوئي وتحيته وهم يهللون لوصول نجل مرجعهم
الشهير آية الله ابو القاسم الخوئي، اشهر مرجع في تاريخ الحوزة
الشيعية الذي كان يلقب بـ(استاذ الاساتذة) لبقائه على منبر الدرس
اكثر من سبعين عاما.

انهمك عدد من افراد المجموعة الذين وصلوا من البحرين بالبكاء خلال
زيارتهم لضريح الامام علي والصلاة فيه حيث كانت تلك هي الزيارة
الاولى للامام منذ اكثر من عقد. بعدها قمنا بزيارة مسجد الخضراء

الملاصق للحضرة الحيدرية حيث قبري والده وشقيقه، توجهنا الى مكتب سادن الحضرة الحيدرية (الكليدارية)، وكان يفترض ان يلقي الخوئي كلمة في جموع الناس التي احتشدت من اجل تحيته. كنت أصور بواسطة كاميرا فيديو صغيرة عن بعد ما يجري، وكذلك فوتوغرافيا، ورصدت خلال التصوير وجود اشخاص وقد تكتلوا في مجاميع متفرقة داخل الصحن وهم يرتدون الدشاديش السود ويحدقون نحو الخوئي ومن معه بنظرات ملؤها الحقد والكراهية. تكررت تلك الحالة منذ آخر مرة زار فيها الخوئي مرقد الامام لكنها تختلف هذه المرة، فهم أكثر عددا من جهة، وموزعون بطريقة منظمة من جهة أخرى.

كان علينا، الخوئي والمجموعة، والحالة تلك، ترك الصحن فورا، لكن الخوئي وفي حمأة حماسته وفرحته لم يكن ليتقبل اي مقترح مثل ذلك خاصة مني إذ كان يعتبرني قليل المعلومات في اوضاع النجف وأهلها وتقسيماتها الاجتماعية والدينية. ثم ان الذين يعرفون الخوئي يدركون صعوبة إقناعه بفكرة هو لا يؤمن بها بل ينفذ ما في رأسه فقط، ولم يخطر بباله ان الامور ستتسارع باتجاه الاقتتال.. الاقتتال مع من وبين من؟ من قبل طرف شيعي مدجج بالسلاح ضد طرف شيعي آخر أعزل وهو هنا في زيارة؟ بين نجل مرجع اغتيل والده وشقيقه، ضد نجل اشهر مرجع هو الآخر فقد والده والعشرات من اقاربه وشقيقه محمد تقي وابراهيم من قبل نظام صدام. كان هذا آخر ما يخطر في بال الخوئي، ولم يخطر بباله على الاطلاق، ذلك لانه لم يعرف كيف غير صدام نفوس العراقيين بما فيهم نجل محمد صادق الصدر المحاط بـ«الزعاطيط والحثك وفدائيي صدام» حسب تعريفات وتأكيد النجفيين انفسهم. كانت صورة صدام حسين قد رفعت من باحة المرقد ووضعت بدلا منها صورة محمد محمد صادق الصدر، المرجع الشيعي الذي يقول اهالي

النجف الاصيليون عنه: ان صدام فرض الصدر الثاني (هكذا يصطلح التيار الصدري على محمد صادق الصدر باعتبار ان محمد باقر الصدر هو الاول، وللتقريب فيما بينهما، مع ان الاختلاف كبير في المنطلقات والطروحات والممارسات) على الحوزة، كونه عراقيا وليس اجنبيا، ثم انقلب على النظام وتمت تصفيته وسط مدينة النجف عام 2001 مع اثنين من أبنائه.

البعض من اهالي النجف يشيرون باصابع الاتهام، بمقتل محمد صادق الصدر وولديه، إلى جهات ايرانية لاسباب عدة، اهمها القضاء على المراجع العربية العراقية، لإتاحة الفرص امام المراجع الفارسية بالتصدي للمرجعية العليا، ثم ان الصدر الثاني كان يقدم نفسه باعتباره إمام المسلمين وهو ما يتعارض مع موقع خامنئي باعتباره امام المسلمين، حسب نظرية ولاية الفقيه في ايران. المبرر الثالث لهذا الطرح هو ان اجهزة صدام لم تكن لتحتاج وقتذاك قتل الصدر الثاني كونه (محمد الصدر) لم يقم بأي نشاط جدي ضد نظام صدام من جهة، ولم يكن (النظام) بحاجة لاثارة الشيعة ضده وقتذاك خاصة ان العالم كله كان يحاصره ويتهمه باضطهاد العراقيين عامة والشيعة خاصة.. يبقى هذا رأي بعض النجفيين اردت تثبيته من دون تبنيه.

الحوزة اعتبرت تورط الصدر في السياسة وقتذاك خروجاً على اعرافها وتقاليدها العريقة، بينما اتهمها الصدر الثاني بالجبن وسماها الحوزة الصامته، واطلق على منهجه تسمية الحوزة الناطقة او الثائرة. وكان اتباع الصدر قد حشدوا من نشاطهم وحركتهم في شوارع النجف فوق سيارات (البيك أب) الملصقة عليها صور الصدر وهم يحملون رشاشات الكلاشنيكوف تحت عباءاتهم. ولا ادري لِمَ لَمْ يَأْخُذ الخوئي حركة تلك الجماعات محمل الجد او الحذر على الأقل.

وصلنا الى مكتب سادن الحضرة الحيدرية (الكليدارية)، أو (الأورسي)، والأورسي هي الشباييك المصنوعة يدويا من الخشب المزخرف والتي تشبه شناشيل البصرة وبغداد، اما السادن، او المسؤول عن ادارة الحضرة وخدمتها، فيلقب محليا بـ(الكليدار) وهي تسمية فارسية مركبة تعني (حامل المفاتيح او حامل المفتاح) وتعني حامل مفتاح المرقد. كان برفقتنا الدكتور حيدر الرفيعي (الكليدار) الذي يزور مكتبه لأول مرة منذ بدء العمليات العسكرية لتحرير العراق، حيث امتنع عن الوصول الى مكتبه في مرقد الامام علي خشية من تصفيته على ايدي جماعة الصدر الطامعين بالكليدارية.

دخلنا الى مكتب الكليدار عند الساعة التاسعة والنصف صباحا، كانت الصالة مزدحم بما يقرب من مائة شخص عدا من كان يزدحم عند باب الكليدارية (مكتب السادن) ليحظى بالسلام على الخوئي. وبينما كنا نرتشف أقذاح الشاي العراقي الثقيل والمر، فوجئنا بهتافات تنادي بحياة الصدر (لا زعيم إلا الصدر) و(عاش مقتدى الصدر زعيم الحوزة). ومقتدى هذا هو النجل الاصغر للصدر (22 عاما) الذي لم يعرف عنه انه درس في الحوزة العلمية ولم يضع العمامة السوداء على رأسه من قبل، ففي اعراف وقوانين الحوزة لا يتصدى رجل الدين الشيعي للمرجعية إلا ويكون قد امضى اكثر من اربعين عاما في الاقل في الدراسة والاجتهاد، وان يعترف له الشيعة بالمرجعية، أي يجب ان يكون قد تجاوز الخامسة والستين عاما في الأقل.

اراد الخوئي الحديث عبر مكبر الصوت مع جموع الناس في الحضرة لكننا اكتشفنا ان هناك من قطع أسلاك مكبرات الصوت المنتشرة في ارجاء الصحن كي لا يتيح للخوئي بالتحدث مع الزوار، وهذا يعني ان هناك من بين المقربين للخوئي - الذين كان لديهم علم مسبق ببرنامجهم منذ

امس، والذي كان يتضمن الحديث مع الزوار عبر مكبرات الصوت في الصحن - من قام بإطلاع جماعة الصدر لقطع الاسلاك مقدماً.

هناك من أبناء النجف، خاصة سعد الخرسان وغيره، وبعضاً ممن كانوا يحيطون بالخوئي، قد تأكدوا من خطورة الموقف، لهذا حثوا الخوئي والمجموعة على ترك المكان فوراً لان ما سيحدث لا تحمد عقباه، وفي حالات كهذه يجب التصرف بسرعة من دون الحاجة الى النقاش او العناد او الاختلاف. كنا بحاجة الى قوة تجبر الخوئي على ترك المكان، وما دام هو غير مقتنع بالخروج وترك المكان فقد كان من الصعب اجباره. هذا من ناحية، ام من الناحية الثانية فإن جماعة الصدر رصدوا بدقة ومن خلال زيارات الخوئي المتكررة للمرقد انه لا يتمتع بالحماية وتحديد الاميركية التي لا تجرؤ على الاقتراب من المرقد لاوامر الخوئي نفسه، كما ان من عينهم الخفاجي من اقاربه وغيرهم كحماية، وعددهم كان قليلاً، لم يكونوا معنا بل بقوا خارج الصحن مع رشاشاتهم الكلاشنيكوف، ولا اعرف سبب عدم تدخلهم في الوقت المناسب لحماية الخوئي عندما انطلقت نيران بنادق جماعة الصدر باتجاهنا حيث كان يكفي تدخل خمسة من حاملي الرشاشات لصالحنا لإيهام جماعة الصدر ان هناك قوة جاءت لدعم الخوئي وإجبارهم على الانسحاب او التوقف، لكن شيئاً من هذا لم يحدث مع الاسف.

اشتدت الهتافات وتقدم حشد الغوغاء رافعين السيوف والسكاكين و(القمامات) وهي أسلحة تشابه السيوف لكنها اكثر قوة وحدة، نحو نوافذ المكتب، مطالبين بإعدام الرفيعي في باحة الحضرة وأمام الناس.

اقترحنا على الخوئي ترك المكان، لكن الحشود كانت قد احاطت بالمكتب من كل جهة، فقال «من يريد ان يخرج فليفعل»، وبالفعل خرج عدد كبير

ممن كانوا يرافقون الخوئي، وبقينا خمسة اشخاص معه، اضافة الى حيدر الرفياعي وبعض خدم الحضرة.

حاول الخوئي التحدث لجموع الغوغاء قائلاً لهم: «ان الرفياعي مسلم وشياعي كيف تريدون قتله وهو في حضرة الامام علي؟» ثم ان الرفياعي كان في صحبته وعليه ان يحافظ على حياته، ولم يدر في ذهن الخوئي ان الأمر سيتجاوز الهتافات، حتى تحطمت النوافذ وجرح البعض بشظايا الزجاج وقارب الغوغاء من الدخول علينا.

كنا نقرأ علامات الشر المتطاير من عيون الغوغاء ورغبتهم المعلنه بالقتل وتعطشهم للدم وهم ينادون «اقتلوهم، اقتلوهم»، وهذا ما يفند حجة الغوغاء في انهم كانوا يريدون الرفياعي فقط، بل كانوا قد خططوا مسبقا لقتل الخوئي ومن معه، بدليل انهم هياؤا انواعا مختلفة من اسلحة الرشاشات الثقيلة والقنابل اليدوية وقاذفات (آر بي جي 7) التي انهالوا بها علينا بلا سابق انذار، مع ان الاعراف تحرم حمل الاسلحة الى الاماكن المقدسة وخاصة مرقد الامام علي.

كان هناك احد اتباع الصدر، وهو رجل ضعيف وقميء، يتطاير الشرر من عينيه، يرتدي دشداشة سوداء ويضع عمامة سوداء كالحة مائلة للاصفرار على رأسه، يمسك بالشباك وكأنه طائر الخفاش (الوطواط) حاملا سكيناً طويلة يحاول ان يصل بها الى رقبة الخوئي، كنت اصور كل هذه المشاهد وأرصد أكثر من غيري ومن خلال عدسة الكاميرا الاحداث بدقة، وعندما شاهدت سكين ذلك الخفاش تكاد تصل الى رقبة الخوئي، الذي كان يتحدث مع الغوغاء بلطف قائلاً لهم: «صلوا على محمد.. صلوا على النبي» بدون ان ينطق احد منهم بالصلوات التي تعتبر واجبة على المؤمنين، سحبت الخوئي من الخلف، فقد كنت اصور من وراء كتفه اليسر ، عند ذاك انتبه للسكين وقد صدم، فقال للخفاش

«شدتسوي ولك اتريد تقتلني في حضرة أمير المؤمنين؟» فرد عليه ذلك القميء «أقتلك وأقتل اهلك بعد وكلكم ميتين اليوم»، خلال ذلك تحطم المزيد من الزجاج مما اسفر عن جرح أحد الحاضرين في عينه (تكفل جواد الخوئي فيما بعد بمعالجته بأحد مستشفيات عمان)، كما وصلت القامات والسيوف قريبا من وجوهنا في حركة اندفع فيها الغوغاء الى المكتب مثل موجة قوية رافقتها اطلاقات نارية من رشاش كلاشنيكوف لدعم تقدم هذه الموجة وتشجيع الغوغاء بالاندفاع أكثر وطمأنتهم ان هناك قوة داعمة لهم بالرشاشات من جهة، وتحطيم معنوياتنا ودفعا الى الاستسلام السريع من جهة ثانية. ادرك الخوئي عند ذاك حقيقة خطورة الموقف ومع ذلك تمسك بعدم تسليم حيدر الرفيعي، بينما ادركنا نحن ان نهاية مشوارنا ستكون هنا وعلى ايدي جموع الدهماء هذه.

احتاج الخوئي الى تصرف سريع، ولم يسعفه سوى ان يطلق رصاصة واحدة في الهواء من مسدس، لا ادري ان كان معه او اعطاه اياه احد حرس المرقد، لإجبار الجموع على التراجع وإشعارهم باننا نملك السلاح ايضا ومستعدون للدفاع عن انفسنا.

تحسست المسدس الذي كنت اخفيه في حزامي تحت فانيلتي السوداء، مسكت مقبضه المعدني فوجدته باردا جدا. كان ليث البهاش قد مد الي صباح ذلك اليوم هذا المسدس (ابو البكرة)، معدني اللون مع سبع او ست رصاصات اضافية. استغربت من ليث وهو يضع المسدس في حضني فسألته: «ما هذا»؟ قال: «مسدس»، قلت: «اعرف انه مسدس، ولكنني اسأل عما افعل به» قال: «لا تعرف الاوضاع هنا، ربما تحتاجه للدفاع عن نفسك او عن ابو حيدر (الخوئي) فالاوضاع غير مطمئنة، وهو مجرد مسدس يشعرك بالامان» قلت: «بل يشعرنني بالقلق، فانا أكره حمل السلاح، ثم اني لا اعرف كيف استعمله». ضحك ليث وقال: «هذا

مسدس ابو البكرة، قوي جدا وسهل الاستخدام، لا عليك سوى ان
تضغط على الزناد وهائي هية.»

اخذت المسدس ووضعتة في الحقيبة وفكرت باعطائه الى ماهر الياسري
فقد كان دائما يطالب ديفيد (ابو علي) بتجهيزه بمسدس او برشاشة
لحماية الخوئي، وكان ديفيد يرد عليه بصعوبة اتمام ذلك إذ لا تمنح
الاسلحة إلا الى المجندين من العسكريين الاميركيين، واذا منحه سلاحا
فهذا يحتاج الى ترخيص وهذه عملية صعبة. وفي احدى المرات التي
خرجنا فيها مع الخوئي، بينما كنا في القاعدة الاميركية ألح ماهر على
ديفيد بضرورة تجهيزه بسلاح وبدون علم الخوئي، فحمل ديفيد مسدسه
وسلمه لماهر كاستعارة، وقال له: «سأبقى قلقا لأني مسؤول عن هذا
المسدس»، ثم استعاده منه بعد عودتنا.

عندما التقيت ماهر في بيت محمد تقي واعطيته المسدس رفضه وقال
«شسوي بهذا المسدس، أني اريد رشاشة اميركية»، قلت له نحن لسنا
في حرب، قال: «بل اكثر، نحن لا ندري ما يجري هنا، ماذا سنعمل اذا
هاجمنا الغرباء؟.»

كنت ما أزال اتحسس قبضة المسدس وكأني استمد منه شعورا بالأمن
على حياتنا. كانت تتوفر في مكتب الكليدارية رشاشتان من نوع
كلاشنيكوف لاغراض حماية الحاضرة والمكتب عند الضرورة، فتسلم ماهر
الياسري رشاشة، وشخص آخر من اقارب الخفاجي الرشاشة الثانية،
بينما هناك مسدس مع الخوئي وآخر معي، وكان عدد الرصاصات في
كلا الرشاشتين لا يتجاوز الثلاثين رصاصة بمواجهة اكثر من مائتين من
الدهماء من انصار الصدر الذين جهزوا ومنذ ايام انواعا مختلفة من
الاسلحة وعينوا مواقع الرمي وأحكموا الحصار علينا.

فوجئنا بتفريق جموع الدهماء وتحصنهم بين أوابين الصحن وحسب خطة موضوعة مسبقا، وكان اطلاق عدة رصاصات في الهواء كفيلا بإفزاز زوار المرقد وهروبهم او لجوئهم الى داخل المرقد. الخطوة التالية كانت بالنسبة لهم هي بدء المعركة التي حشدوا وهياؤا لها فاعلنوا لحظة الصفر وامطرونا بالرصاص من جميع الجهات.

لم نكن قد تهيأنا لمثل ذلك الموقف الحرج وكان علينا ان نتصرف بسرعة، قبل ان يبدأ انهمار الرصاص علينا مثل المطر، صاح الخوئي «ليخرج من يريد الخروج» تطوع اولا الخفاجي بالخروج لطلب المساعدة لنا من القاعدة الاميركية والاتصال مع ديفيد بواسطة هاتف الثريا الذي كان معه. في الحقيقة جاء خروج الخفاجي منذ وقت مبكر، بحدود الساعة العاشرة والنصف، تبعه مباشرة سعد الخرسان الذي سلمه الخوئي هاتفه الثريا بعد ان وضع رقم ديفيد وطلب منه الضغط على اشارة التحدث وإخبار ديفيد (كونه يفهم العربية وان لم يكن يتحدث بها جيدا). بقينا، الخوئي وماهر الياسري وأحد اقارب الخفاجي، في الصالة بينما اختبأ كل من الرفيعي وصالح بلال واثنين من خدم الحاضرة، بينهم احد اقارب الخرسان في الحمام، كان الحمام مزدحما في الحقيقة، وانا لا ألومهم على ذلك فوجودهم في الصالة من غير سلاح يعني تعريض حياتهم للقتل بلا طائل، ومجرد بقائهم يعني شجاعة موقفهم ودعمهم للخوئي حتى اللحظات الاخيرة. اما حميد التميمي الشاب القادم من اميركا، بعد ان باع هناك محطة تعبئة وقود صغيرة كانت تعيله واسرته وجاء بالمبلغ ليشتري لعائلته قطعة أرض زراعية، فقد كان يقف في منطقة محايدة بين الصالة والحمام كونه لم يكن يحمل اي قطعة سلاح ووجوده في الصالة كان يعني تعريض حياته للموت المجاني.

قلت اننا لم نكن جاهزين لمثل ذلك الموقف الصعب خاصة بالنسبة للياسري الذي لم يخدم في الجيش ولم يتعرض ربما لمثل تلك المواقف، وكذلك الخوئي. اتخذت انا من عامود (دنكة) ومن المنطقة المؤدية الى الحمام مقابل باب جانبي صغير منطقة حماية لي، بينما كان الخوئي ما يزال وسط الصالة والياسري يقف بمواجهة الشباك مباشرة عند يمين الصالة وقريب الخفاجي حاميا نفسه عند يسار الصالة قرب الباب الرئيسي للكليدارية.. هذا يعني في الواقع أن لا أحد كان محمي من الرصاص، اذ اكتشفت خطورة المكان الذي انا فيه عندما خرقت بعض الرصاصات الباب الصغير في محاولة لفتحه للدخول والاجهاز علينا. كان الخوئي مصدوما، متفاجئا، حزينا، منفعلا، لا يدري ما عليه فعله، وهو ينادي: «الله اكبر شيعة يقتلون شيعة في مرقد أمير المؤمنين.. الله اكبر، نحن مسلمون يا ناس» لكن صيحاته كانت تضيع وسط أزيز الرصاص.

الصدمة الحقيقية الاولى.. المواجهة الحقيقية الاولى مع الموت.. الضربة الغادرة الاولى.. جاءت عبارة عن شريط من الرصاص الذي أصاب الياسري بمثانته.. على بعد مليمترات من الدرع الواقى. فجأة صاح ماهر بلهجته الجنوبية التي ما تزال تتسلل، بين حين وآخر، ذاكرتي السمعية «أتصوبت سيد».. رددت كل جدران الضريح وأرجاء النجف والديوانية، وكل نخلة وشجرة ونهر وعشبة، صدى صوت الياسري، حتى أيقنت ان الامام علي سمع صدى جرح حفيده السيد الياسري ماهر، الشاب الطيب البريء الذي نذر نفسه لخدمة العراقيين.. ترك في ديترويت محله الذي كان يبيع فيه قطع غيار سيارات، وسيارته الحديثة، ودراجته النارية التي كان يحدثني عنها.. «أتصوبت سيد»، وطارت

عيناه مثل عصفورين عطشين يبحثان عن ماء يطفئ حرارة الجرح الساخن.

أخذنا على حين غرة.. ماهر يتلوى فوق الارض مثل حمامة نصف مذبوحة، وعيوننا، وضمائنا، لا تصدق ما ترى وما تحس. رفع الخوئي عمامته السوداء التي تحمل تاريخ أهله وشعائهم وربماها ارضا وغرق في الدموع وصاح «الله أكبر قتلتم سيد شاب.. حرام عليكم ما يجري.. لا الله ولا نبيه ولا أئمة يرضون بهذا.. كيف ستواجهون أمير المؤمنين وانتم تقتلون حفيده». كان منحنيا على ماهر طالبا اخراجه للعلاج حتى لا يموت «أسألكم بأمير المؤمنين علي بن ابي طالب نريد إخراج هذا الشاب لإنقاذ حياته، اسمحوا لنا بنقله للمستشفى وافعلوا ما تريدون».. ذكرني صوته المتهدج بأخر محرم امضيناه في لندن، عندما جلس صباح يوم العاشر من محرم على منبر القارئ وهو يفتتح قراءة مقتل الحسين والدموع تغسل لحيته الملونة بالشيب رغم صغر عمره (عندما قتل السيد عبد المجيد الخوئي في العاشر من نيسان 2003 لم يكن قد أكمل الاربعين من عمره).

ضاع صراخ الخوئي في فراغ أثته صوت الرصاص.. تناول الخوئي الرشاش بصعوبة من يد الياسري الذي كان ينزف بغزارة، ادركنا ان لا فائدة من طلب النجدة للياسري الجريح. كانت هناك أريكة (قنفة) قرب باب الكليدارية، قلبها الخوئي وجعلها بمثابة الموضع وراح يرمي رصاصه إثر أخرى في الفراغ وقال لنا «ارموا مفرد كي لا ينفذ الرصاص وارموا في الهواء كي لا تصيبوا أحدا»، فكرت مع نفسي وقلت: يا لقلبك يا الخوئي. لقد قتل هؤلاء الغوغاء لتوهم الياسري ويريدون قتلنا جميعا وانت تخشى ان نصيب احدهم؟ ثم كيف سنصيبهم وهم يتموضعون في الأواوين بعيدا عنا وخارج منطقة رصدنا.

كان تبادل اطلاق نار غير متكافئ، فقد كان عددهم يربو على المائتين، وهم يتوفرون على اسلحة متطورة، وكان عدد العتاد الذي معنا محدودا للغاية، لهذا اقترح علينا لخوئي التقشف في استخدامه، فكانت تنطلق من جانبنا رصاصة لنستقبل مائة رصاصة.

كان لا بد من الدفاع عن انفسنا، كنا نحاول منع الخوئي من الحركة كي لا يسهل قتله، ونحن في غرفة لا تزيد مساحتها عن 5 في 6 امتار، ادركت اننا مقتولون لا محالة، وكنت انتقل هنا وهناك للدفاع عن الخوئي الذي صرخ بي لاكثر من مرة ان اترك المكان واحتمي مع الاخرين في الحمام فرفضت، ليس بدافع البطولة ولكن الموقف كان يحتم علينا القتال حتى آخر رصاصة.

اندفع الغوغاء نحو باب جانبي للمكتب محاولين اختراقه، رفعنا أريكتين (كنبتين) وجهازا للتبريد واسندناها خلف الباب لإيقاف الهجوم، كما اطلقنا الرصاص من خلال الباب لابعاد الغوغاء، لكن قسما منهم هاجمنا من الباب الصغير الذي كنت اقف قربه من الداخل، كاد الباب يتحطم فوق رؤوسنا، فاطلقت رصاصتين باتجاهها لابعادهم وإيهامهم باننا نملك الكثير من الاسلحة. كنا نناور بقليل من الرصاص، وكان الخوئي يرمي الرصاص ويصرخ بوجوه من يحاول التقرب من الباب «ارجع ولك.. ارجع»، كان صوته قويا ومهيبا يجبر الاخرين على التقهقر.

دخل الياصري مرحلة الاحتضار لكثرة ما نرف من دم، نظر الى الخوئي وقال له متوسلا «سيد بروح جدك ارميني بطلقة حتى أموت ما أريد اتعذب»، ثم وجه نظراته نحوي وكرر سؤاله طالبا مني ان اضع في رأسه رصاصة الرحمة، كنا نغرق بالبكاء ونحن نحاول الدفاع عن انفسنا، كيف لك ان تطلب مني انا ان اوجه رصاصة نحوك يا ماهر؟ انا

الذي لم أجرؤ على ذبح دجاجة او الدوس على نملة، هل لي ان اقتل من شاركني اصعب تفاصيل ايامنا.

سحب التميمي، حميد، ماهر الى منطقة شبه آمنة قرب الحمام وراح يسقيه الماء ويقراً آيات من القرآن قرب رأسه حتى غادرت روحه جسده، كان آخر ما شاهدته على وجهه الذي مال للاصفرار ثمة زبد ابيض فوق شفثيه.

بعد اكثر من ساعة ونصف الساعة لم يسُد الهدوء خلالها ولا للحظة وخاصة من جانبهم، دخلت انواع جديدة من الاسلحة، عرفت فيما بعد انها نقلت من مدرسة القوام الدينية الكائنة قبالة المقام العلوي، وسمعنا اصواتا تبشر بمجيء مقتدى الصدر، وتفاءل احد الخدم بأن مجيء مقتدى سوف يحل المشكلة، لكننا فوجئنا بعدها بشراسة الهجوم، وباستخدام القنابل اليدوية. وعندما تاكدنا بان نهايتنا اقتربت اقترح احد خدم الحضرة او شخص آخر على حيدر الرفيعي بتسليم نفسه لهم، لكن الخوئي رفض هذا الاقتراح وقال «انا من اصطحبته الى هنا، كيف اسلمه لهؤلاء الغوغاء.»

كانت الرصاصة، وخاصة من رشاش (بي كي سي) التي يزيد طولها عن 12 سنتيمترا، لا اعرف طولها بالضبط، تدخل الى الصالة فتصطدم بالجدار وتعود، وهذا يعني ان هناك فرصتين للاصابة، مرة عندما تدخل الرصاصة قوية وساخنة ويريق لمعانها يلتصق بنظراتنا، وأخرى عندما تصطدم بالجدار فتحدث شحنة من الشرارات وتعود ربما لتنفذ في جسد احدنا او ترتطم بالارض.

جرح جبار الخرسان برصاصة باردة في احد ذراعيه واصطبغت دسداشته البيضاء بالدم، كان جبار الخرسان احد خدم الامام، او ربما كان حضوره بسبب وجود الخوئي.

بعد ما يقرب من ساعة وخمس واربعين دقيقة من المشاغلة، صرخ الخوئي «لقد اصابوني»، كان كف يده الايسر ينزف دماً، إذ كان قد اقترب احد الغوغاء من الباب ورمى قنبلة يدوية انفجرت قرب الخوئي فمزقت ثلاثة من اصابعه. هرعنا لسحبه الى الداخل واسرعت لربط كف يده بقطعة قماش مزقتها من قميص كان متروكا هناك، ولففت كفه بقطعة منشفة الحمام، ما ادى الى ان تصطبغ ملابسي بدمه.

كان عتادنا قد انتهى وخاصة عتاد المسدس الذي كان معي ورشاشة الخوئي، ولم تبق سوى عدة اطلاقات مع احد المرافقين. هداً اطلاق الرصاص من جانبهم اعتقادا منهم ان القنبلة قضت علينا او في الاقل قد قتلت الخوئي، وكان ذلك هدفهم الحقيقي.

تطوع الخرسان الذي كان الدم يلطخ دشداشته بالخروج وهو يحمل قطعة قماش بيضاء والقرآن الكريم اعلانا باستسلامنا جميعا. توقف اطلاق النار، وهجم الغوغاء علينا، حاملين اسلحتهم ليتأكدوا من اننا لا نملك السلاح.

دخل علينا رياض النوري، هكذا عرّف نفسه بوصفه مدير مكتب مقتدى الصدر، وهو يتحدث معنا عبر مكبر للصوت يدوي يعمل بواسطة البطارية (وكان ذا لونين، احمر وابيض)، ولا ادري لماذا كان يتحاور معنا عبر مكبر الصوت مع ان المسافة بيننا وبينه اقل من نصف متر؟ وتعرف على الخوئي الذي عاتبه قائلاً «هل وصلت الامور لان يتقاتل الشيعة في مقام الامام علي؟» فأجابه النوري «لا تقل اية كلمة، انتم الان اسرى لدى السيد مقتدى».. استغربت من وصفنا كأسرى، كانت حشودهم تتوافد علينا وهم ينادون بضرورة قتلنا والتخلص منا، وبالفعل حاول احدهم اطلاق النار علينا لكن أحدهم رده قائلاً: «لنأخذهم الى السيد

مقتدى وهو يقرر مصيرهم في محكمة شرعية، ثم هم بين ايدينا الآن اين سيذهبون.»

كان هناك شاب يرتدي ملابس رياضية بدا اكثرهم حماسا لقتلنا، وآخر يرتدي ثوبا اسود حاملا رشاش كلاشنيكوف كان هو الآخر جاهزا للانقضاض علينا. قال الشاب ذو الملابس الرياضية، والذي عرفت فيما بعد من اهالي النجف بانه كان من اكثر المتحمسين لصدام، وانه قاتل مع ميليشيات «فدائيي صدام»، وهو يخاطبنا «عملاء، جواسيس» ثم انبرى شاب آخر كان يرتدي ثوبا ابيض، ويحمل سكيناً، فقال للخوئي: «انت كنت امبراطوراً في لندن لماذا جئت الى هنا؟ ماذا تريد ان تفعله في النجف؟ انت لا تعرف كم تغير العراقيون طول هذه السنوات، ما لك والنجف؟» ثم قام بتفتيشنا بحجة البحث عن السلاح، لكنه كان يبحث عن محافظنا، واول ما سرقه أمام اعيننا كان حفنة من الدولارات، تصل الى نحو خمسة آلاف دولار اميركي، وبعض العملات العراقية، التي كانت بحوزة الخوئي، ثم فتش حقيبة حميد التميمي فوجد في حوزته اكثر من 13 الف دولار (حسب رواية حميد لي فيما بعد)، ثم سحب حقيبتني التي كانت تضم آلة تصوير ديجتال (رقمية) واخرى فيديو جديدتين وهاتف نوكيا جوالاً (ذا الكاميرا) واكثر من خمسة الاف دولار، وخمسائة جنيه استرليني، كنت احتفظ بها لمساعدة الاهل والاصدقاء في العراق، جمع كل ذلك (وكان ثروة بالنسبة له) وهواتف ثريا، ووضعها في حقيبة حميد وقال هذه غنائم وسوف تستلمونها من مكتب السيد مقتدى الصدر.»

لم نكن نبالي بالاموال او آلات التصوير او الهواتف بل ما كان مهما هو حياتنا التي صارت رهن هؤلاء الغوغاء. لم يكن جميعهم سيئين او مجرمين ذلك ان البعض منهم استنكر الاعتداء على الخوئي لكن

الاصوات الضعيفة لهؤلاء كانت تتلاشى امام قوة اصوات الاخرين من حاملي الاسلحة والمتنفذين، والذين جاءوا لتنفيذ مخطط مرسوم مسبقا. اقترح أحدهم ان يتم نقلنا بسيارة الى بيت الصدر لانقاذنا من الغوغاء الذين كانوا يرفعون سكاكينهم وسيوفهم وقاماتهم توعداً بقتلنا، وقال «والله اذا اخرجناهم الان فسوف يقطعونهم إربا»، فردعه الآخرون لمقترحه، واقترح رياض النوري بصيغة الأمر ان ياتي مائة من طلبة الحوزة من اتباع الصدر لحمايتنا من الغوغاء ليرافقونا الى بيت الصدر، ولاقى مقترحه الموافقة من قبل زملائه المعتمدين.

تطوع احد النجفيين بأن يغير ملابسه بملابس الخوئي كي لا يتعرف من هم في الخارج على الخوئي فيعتدون عليه، وبالفعل خلع دشداشته البيضاء ، او قميصه، لا اتذكر تلك التفاصيل بالضبط، وألبسها الخوئي الذي بدا عليه التعب والإعياء بسبب نزيف الدم وبسبب الموقف الذي كنا فيه، اذ ادرك اننا أموات لا محالة، كنت أقرأ في عينيه أسفا عميقا للموقف الذي وصلنا اليه وكأنه يعتذر عما آلت إليه الاحداث. لم يوافق النوري وجماعته على تغيير ملابس الخوئي بل اکتفوا بإجباره على نزع الدرع الحامي من الرصاص. قلت لهم: «اذا كنتم لا تريدون قتله فلماذا تنزعون عنه الدرع؟» فصاح بي احدهم بان اغلق فمي «هذا مو شغلك»، عندها ادركت انهم قرروا قتلنا على ايدي الغوغاء وبتخطيط مسبق عندما نكون في الخارج.

كانت الروائح تختلط ببعضها.. روائح الاجساد المتعرقة برائحة البارود الذي عطر المكان، مع رائحة الخوف من الآتي، وقبل هذا كله رائحة الموت التي انبعثت من جسد الياسري معلنة مصيرنا المحقق بعد دقائق، إضافة الى رائحة الشر والإصرار على تلطيح ايديهم القدرة بدمنا.

عندما حضر طلبة الحوزة، وكان عددهم يقارب المائة، أمروا بتوثيق ايادينا خلف ظهورنا وعصب عيوننا باعتبارنا أسرى، استنكرتُ التسمية وقلت لهم «أسرى من؟ ولماذا توثق ايادينا واعيننا اذا كنتم تريدون الحفاظ على حياتنا حقا؟ نحن جئنا لمساعدتكم فكيف تتعاملون معنا كأسرى؟»

جاءني الرد مصحوبا بالصفعات والركلات: «اسكت، انت جاسوس واسير»، قلت لهم: «انا صحافي»، فقال لي الشاب الذي يرتدي ملابس رياضية ويشي منظره بالسقوط الاخلاقي التام من تصرفاته السوقية «يعني انت جاسوس صهيوني»، لكن قريب الخفاجي وفي سبيل مساعدتي قال له: «كلا هذا صحافي كبير في جريدة الشرق الاوسط»، معتقدا ان ذلك سيخفف من الموضوع، فرد الشاب ذاته قائلاً: «يعني انت وهابي وقتلك حلال»، حينذاك آثرت السكوت، فالحديث مع هذا النوع من البشر قد يكلفني حياتي مبكرا.

لم يكونوا قد تهيأوا لتوثيق ايدينا، لذلك استخدموا اسلاك الهاتف بعد ان انتزعوها من الجدران لشد ايدينا وتخلوا، او تغاضوا عن فكرة عصب اعيننا. تم شد وثاق الخوئي اولا ثم الآخرين، وشدوا وثاقي مع حيدر الرفيعي، لكنهم لم يشدوا وثاق الشيخ صلاح بلال، وعندما حاول احدهم شد وثاقه صاح به زميله مانعا اياه بالقول: «انه شيخ معمم، والمعمم لا توثق يداه»، لكن بلال ألح، بقوة اثارت استغرابي، على ضرورة شد يده حتى اني قلت مع نفسي «انه محظوظ، لم يوثقوا يديه، فلماذا يلح عليهم»، وبسبب إصراره قام احد اتباع الصدر برفع عمامة بلال ووضعها في جعبته وقال له «هذه كروتك (اي حديثك)» لانها بدت بالفعل مثل الحذبة البارزة من الصدر ثم شد وثاقه كما شاء.

كان الشخص الذي يحمل رشاشة كلاشنيكوف، ويرتدي دشداشة سوداء رفع اطرافها الى حزامه، قد صرخ بالجميع طالبا السماح له بقتلنا في المكان ذاته، وبالفعل سحب اقسام الرشاشة رافعا زر الامان.. لن انسى ذلك الصوت البطيء والسريع في آن واحد، لكن احد الشيوخ من انصار الصدر ردعه وأخذ الرشاش منه لينزع عنها مخزن الرصاص ويعيدها اليه بلا ذخيرة.

حين خرجنا الى باحة مرقد الامام علي كان اول ما التمع امام عيني بريق السيوف والقامات والخناجر الملوحة في الهواء، ونال كل منا نصيبه من الضرب، وسط صيحات مختلطة، بعضها من الناس الذين كانوا يقولون «حرام، لا تضربوهم» واخرى من جماعة الصدر «اقتلوهم، اقتلوهم» وهم ينادون «يا حسين.. يا حسين» وكأنهم قد قبضوا توا على قتلة الحسين.

كان هناك حشد كبير لم استطع تقدير عدده، لكنهم كانوا يزيدون عن المائتي شخص، يضاف اليهم زوار المرقد الذين كانوا محاصرين بسبب رمي الرصاص الذي انهال علينا مثل المطر. كان كل شيء مدروسا بعناية وبتخطيط اجرامي، ذلك ان جماعة الصدر الذين حجزونا في الكليدارية، بحجة كاذبة - مفادها انهم في انتظار حشد من طلاب الحوزة ليرافقونا الى بيت مقتدى الصدر وليمنعوا الغوغاء من الاعتداء علينا - كانوا في الحقيقة في انتظار، وعن سابق تخطيط ، موكب يدخل الى الصحن حيث كانت ذكرى ولادة الامام الحسن بن علي، او وفاته، لست متأكدا على وجه الدقة، ذلك ان شيعتنا في كلا المناسبتين يرفعون اللافتات السوداء ويلطمون على صدورهم ويطلقون شهيتهم للبكاء.

المهم كان المخطط ان يدخل هذا الموكب ويبدو الامر طبيعيا، لكن حقيقة الامر هي ان الموكب كان يتكون من المزيد من الغوغاء المسلحين بالقامات والخناجر وليختلط مشهد قتلنا مع (الهوسة) والضجيج الذي سيرافق دخول الموكب، الذي لم يخل من ابرياء سيقوا فيه بطريقة فطرية. وهكذا تزامن موعد خروجنا من الكليدارية بالضبط مع دخول الموكب ووصوله قريبا منا، عند ذاك رفعوا القامات والسيوف والخناجر المشحوزة بعناية، تلك القامات والسيوف والخناجر التي شاهدتها تلمع تحت اشعة شمس الظهيرة الساخنة تلك. كانوا قد خططوا بدقة لكل شيء وليبدو مقتلنا، او مقتل الخوئي في الاقل، نتيجة هيجان غوغائي فيضيع دمه بين هؤلاء القتلة الذين جاءوا من اطراف مختلفة.

كان حيدر الرفيعي طويل القامة وضخم الجثة بحيث وجدت نفسي وانا اسير الى جانبه بانني اقصر منه، وعندما تركنا الكليدارية ايقنت اني مقتول لا محالة، وقلت في نفسي «انهم يدعون ان حيدر هو هدفهم الاول لهذا سينهالون عليه بوحشية» كنت اتوقع ذلك من هؤلاء الغوغاء الذين ما احترموا حرمة الامام علي، ولا ضريحه، ولا حرمة العالم الكبير ابو القاسم الخوئي مرجعهم واستاذ اساتذتهم على مدى اكثر من سبعين عاما، وهو يرقد على مسافة امتار قليلة منهم ومنا في مسجده(الخضراء) المدمج ضمن الصحن الحيدري.

كانت طريقة قتل الرفيعي وحشية للغاية لا تجاريا اية وحشية في التاريخ. فبعد ان وعدونا بالأمان ومنحونا العهد بالابقاء على حياتنا حتى نصل الى بيت مقتدى حيث ستجرى لنا هناك محكمة شرعية، تصوروا، تركونا حال خروجنا من الكليدارية للغوغاء الذين كانوا في انتظارنا. هجم الغوغاء على الرفيعي من كل جهة وكأنه فريسة سهلة سقطت بين الضباع الجبانة التي تصرفت بفعل كثرة عددها وما تحمله من اسلحة

وما تم أمرهم به من قبل مقتدى ومنحهم الامان مثل وحوش، كانت يداه مقيدتين بيدي الى الخلف ولا حول له ولا قوة حتى للدفاع عن نفسه وان كان اعزلا، كانوا يغرسون خناجرهم وقاماتهم في جسده وينادون «يا حسين.. يا حسين» وكأن الذي يمزقون بجسده هو من قتل الحسين او انه ليس من نسل الحسين، او انه ليس بمسلم، او ليس ببشر. مع اول ضربة منهم في صدره فار دمه وانتشر على ملابسي ووجهي. لم يدرك اي من هؤلاء السفاحين اني مكبل معه، فما انقذني هو اني كنت ارتدي سروال جينز وتي شيرت (فانيلة) وأضع قبعة فوق رأسي فبدوت غريبا على المشهد الحافل بالدشاديش والعمامات، عندما سقط جثمان الرفياعي سحبني معه لثقله، لكنني لثوان قليلة قررت ان اتمالك نفسي بقوة وابقى واقفا، فلو كنت قد سقطت معه لتقاسمت معه استقبال الطعنات القاتلة. لم اكن واعيا لما يجري، تجردت تماما من المشاعر والاحاسيس، كخشبة صماء بدت مشاعري وانا الذي ما اقوى على مشاهدة دجاجة تذبح، كنت اراقب ما يجري وكأنه مشهد من فنتازيا القتل الجماعي والبطولة فيها هي الحفاظ على حياتي، وإلا ماذا يعني ان اقتل بصورة مجانية على ايدي الغوغائيين؟. مع سقوط جثة الرفياعي شعرت ان الوثاق الذي ربطوا ايدينا به، وهو عبارة عن سلك الهاتف الذي انتزعوه من الجدار والمصنوع من المطاط، قد تمطى بفعل سقوط جثة الرفياعي ما سمح بسعة كانت تكفي لتحرير يدي اليمنى.

كنت اراقب المشهد وكأنني متفرج، خاصة ان مشاعري كانت باهتة للغاية، حررت بصعوبة باللغة يدي اليسرى، كنت مرتبكا خشية ان يلاحظني احد الغوغائيين ويصرخ «هذا وياهم.. اقتلوه»، مثل تلك الصرخة كانت كافية للقضاء علي خلال لحظات.. تحررت يدي اليسرى

بينما كانت جموع الغوغاء تهتف «يا حسين.. يا حسين» احتفالاً بقتل أحد احفاده.

الآن، وحين استعيد المشاهد الدامية تلك اتساءل لماذا نستغرب حادثة مقتل الحسين وعائلته بذات الوحشية التي قتل فيها الخوئي والرفيعي وقبلهما الياسري. كانوا يرفسون جثة الرفيعي بذات الطريقة التي رفسوا فيها جثة الياسري عندما دخلوا الى الكليدارية، ولن انسى مشهد دخول احدهم وهو يرتدي دشداشة سوداء ووجهه اقرب منه الى الشياطين من البشر، حيث كان الشرر والضغينة يتطايران من عينيه، توجه مباشرة الى جثة الياسري وراح يضربه بقدميه ما افقدني صوابي فصرخت «حرام عليكم، هذا ميت ويجب احترامه، نحن في ضريح جده فهو سيد»، التفت إلي وقال «انتم تستحقون القتل، كلكم كفرة.»

كنت قد صرت خارج موكب الموثقة اياديهم، صرت امشي خلف جموع الغوغاء وانا اراقب المشهد كانني متفرج ليس إلا، عند السلام التي تؤدي الى خارج الصحن شاهدت الخوئي وهو يعارك الغوغاء بيد واحدة بينما هم يردون عليه بالسكاكين، تمنيت لو كانت بيدي في تلك اللحظة بندقية رشاشة لقتلت كل هؤلاء بدون أدنى ذرة من الرحمة، انا الذي لا اقوى على قتل حشرة، لكنني في تلك اللحظات أحسست بقوة هائلة ورغبة لإبادة هؤلاء الغوغاء.

كان الخوئي يتسلق السلام بصعوبة بينما احدى كفيه تنزف دما ويقاوم بالآخرى، ذكرني هذا المشهد تماما بالسيد المسيح وهو يحمل صليبه الثقيل ويجرجه الى اعلى التل حيث تم صلبه هناك. تساءلت اليس هؤلاء المحيطين به مسلمين وشيعة ومن مقلدي والده؟ اليسوا هؤلاء من كان يتوسل قبل ساعات لتقبيل يده او عبائته والان بينهم من يفتك به او يتفرج عليه؟ لماذا نستغرب وننتقد موقف اهل الشام يوم دخلت اليهم

عائلة الحسين اسيرة وكان بينهم من يسخر منها او من يتفرج عليها. هذه الحادثة تفسر الكثير من تناسخ صور التاريخ المخزي للعرب والمسلمين. وتفسر البناء النفسي لسقوط هؤلاء البشر من درجة الانسان الى الوحش الساقط.

كانت تلك هي المرة الاخيرة التي شاهدت فيها الخوئي عن قرب، ففي الوقت الذي تركت فيه الصحن باتجاه الهروب نحو القاعدة الاميركية كان موكب الضحايا قد اتجه يسارا نحو بيت مقتدى في (عكد الحمير) مثلما اخبرنا به من قبل.

24

وداعا.. سيدي

كنت على مسافة ما يقرب من مائة متر او اقل عندما القيت للمرة الاخيرة نظرة باتجاه موكب الخوئي، تذكرت آلام السيد المسيح وهو يجرجر صليبه صاعدا الى الجلجلة، الى احضان بارئه، تراءت لي روح الخوئي

شفافة مثل نور علوي تصعد نحو خالقها قبل ان يجهز عليه القتلة، قتلة المسيح وقتلة الامام علي وقتلة الحسين.

كان الموكب يبتعد حتى توقف قليلا بينما اندسست انا في الازقة الضيقة خشية ان يلاحقني احدهم. كانت هناك امرأة عجوز تولول عند عتبة بيتها وتلطم خديها، انتبهت لوجودي وسألت بهلع «يمّة صدك ذبحوا السيد الخوئي» لم اجبها، لم اكن لاصدق ان كارثة مثل هذه لتحدث. شاهدت الدماء فوق وجهي وعلى ملابسني فصرخت طالبة مني الدخول الى بيتها، لم اجب، لم اتوقف حتى للحظة. بعد اقل من عشرين مترا كان هناك حشد من الرجال يتحلقون جالسين في فسحة امام بيوتهم، هالهم ما شاهدوه من دماء فقاموا واقفين يسألوني، لم اسمع اي سؤال، مد الي احدهم بقدرح من الماء شربته من غير ان اشكره وواصلت السير، مسكني احدهم، كان رجلا كبيرا، قال: «عمي وين رايح، تعال ارتاح ابيتي واغسل، وبعدين اتوكل على الله»، اهملت عرضه وواصلت السير. كنت اسير بلا هدى، بلا تخطيط، بلا وعي، جسد أعمى مجرد من المشاعر والاحاسيس تقوده ساقان الى اللا هدف حتى فاجأتني سيارة أجرة، اشرت للسائق بالتوقف وصعدت السيارة من غير حتى ان اطلب من السائق التوجه الى اي مكان.

لم اكن اعرف الى اين اذهب، كنت اختلف في داخلي، كنت بحاجة لمن يقول لي شيئا، يطمئنني بان كل ما حدث ليس إلا حادثة عابرة وان الخوئي ما يزال حيا، يجلس هناك عند مقتدى يتفاوضان حول امور تهم النجف «فهما بالتالي سيدان وابنا مراجع ومن ولاية واحدة وسوف يتفقان، ومهما كبرت المشاكل بينهما فلن تصل حد الاقتتال.»

سألني سائق الأجرة وهو ينظر الي بدهشة عن وجهتي فطلبت منه ان يأخذني الى حي السعد حيث هناك أول بيت اقتادنا اليه الخوئي ونزلنا

فيه وشربنا وأكلنا، بيت البهاش، نجله الكبير عارف اقرب الاصدقاء الى الخوئي وكنت قد التقيته للمرة الاولى في عمان قبل ثلاثة أعوام لكنني لم التقه في النجف لسفره الى خارج العراق، وكان يقول الخوئي عن عارف «هذا مثل أخي» حتى اننا عندما دخلنا الى حي السعد للمرة الاولى أشار الخوئي الى ساحة كان بعض الشباب يلعبون كرة القدم فيها، قال «في هذه الساحة تعرفت على عارف حيث كنا نلعب طوبة (كرة) معا»، كما ان بيت الخوئي لم يكن بعيدا عن بيت البهاش في حي السعد. يطلق على الساحة الآن اسم (ساحة الشهيد عبد المجيد الخوئي) بعدما كانت تحمل اسم (ساحة جمال عبد الناصر).

خشيت ان اطلب من سائق الأجرة التوجه مباشرة الى القاعدة الاميركية فربما يكون منهم، من جماعة الصدر، وقد يوشى بي او يقودني اليهم فهم بالتالي ابناء مدينة واحدة.

التفت السائق نحوي، وكان شابا في أواخر العشرين من عمره، صدم من منظر الدم الذي كان يلون مظهري وجزءا من وجهي ويدي اليمنى، فقد اختلطت في ملابسني دماء الخوئي والرفيعي. دم الخوئي عندما كان ينزف وانا احاول مساعدته لوقف النزيف من يده، ودم الرفيعي الذي فار من هول الجريمة التي اقترفت بحقه وبحق الخوئي وبحقنا بالقرب من قبر ابن عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

سألني السائق عن سبب وجود الدم وما اذا كنت قد جرحت حيث عرض علي نقلي الى المستشفى، قلت: «لا ابدأ، انا جئت من البصرة لزيارة ضريح الامام واذا بي اجد نفسي وسط معركة قتل فيها شخص يدعى الرفيعي وهذه بعض آثار دمه، وهناك شخص آخر يسمونه الخوئي يقال انه ابن المرجع ابو القاسم الخوئي لا ادري إن كان قد قتل ام لا»، شهق السائق بحزن وقال «والله هذا السيد الرفيعي دمه اشرف منهم، ولكنني

لا اعتقد انهم سيقتلون الخوئي.. هل حان يوم القيامة أم ماذا»، ثم راح يشتم انصار الصدر وهو يردد «هؤلاء حرامية واولاد شوارع وساقطون كيف تمتد اياديهم الوسخة على سادتنا.»

عندما وصلت الى بيت البهاش خرج الي ابن خالة ليث وقد استغرب من هيئتي لكنني طلبت منه مباشرة ان يعطي للسائق اجرتة اذ لم اكن املك أي شيء بعد ان جردني اللصوص من اتباع مقتدى من كل شيء وقالوا هذه غنائم لمكتب (السيد) مقتدى.

لا شيء سوى الاسئلة

لم اكن وقتذاك اقوى على الاجابة عن اسئلة عائلة البهاش، طلبت قدح ماء، كان كل شيء داخلي يرتجف خوفا على مصير الخوئي الذي وقع في أيدي الدهماء. سرعان ما وصل ليث وقادني بسيارته الى القاعدة الاميركية. كان ليث يعرف بعض المعلومات التي لم يشأ ان يخبرني بها، كما اني لم اسأله خشية ان يصدمني بخبر مقتل الخوئي. وصلنا الى القاعدة الاميركية، وبعد اتصالات مع ديفيد (ابو علي) دخلنا مع سيارة ليث.

اول مفاجأة صدمتني عند وصولنا الى مقرنا السابق هو مشاهدتي لسعد الخرسان، ومعه جبار الخرسان الذي كان قد اصيب بجرح طفيف خلال حصارنا في الكليدارية، والذي خرج من الكليدارية بعد اصابة الخوئي رافعا الراية البيضاء ونسخة من القرآن الكريم، وكانت دشداشته قد تلطخت بالدم نتيجة اصابته طالبا من الغوغاء التوقف عن الرمي. سألت سعد الخرسان عما يفعله هنا، فقد كان اول من خرج مع عبد الحسين الخفاجي لغرض طلب المساعدة لنا، ومضت على خروجهما اكثر من ساعتين ونصف الساعة، وكنا نتأمل انهما سيقومان بجهود جبارة لانقاذنا، قال سعد: «جئت الى هنا لأطلب المساعدة ولم يلب طلبي» وكنت اصدقه في ذلك، فمن يعرف كيف يتصرف الاميركيون يستطيع تصديق سعد بسهولة. كانوا ما يزالون يدققون في الخرائط وحيث يمكن ان يكون الخوئي الآن، فهم لا يغامرون بحياة جنودهم من اجل نتائج غير محسوبة. صرخت بديفيد لان يقدموا اية مساعدة لانقاذ الخوئي وانا أشتم الاميركيين واسالبيهم. سحبني ديفيد جانبا مقدرا الحالة التي انا فيها، فقد كان يعرف مدى علاقتي بالخوئي، قال لي: «اذا أرسلنا الان

اية قوة لإنقاذ ابو حيدر (الخوئي) فعلينا ان نقتل ما لا يقل عن 300 شخص هناك، ثم اننا لا ندري هل سيكون ذلك مفيدا للخوئي ام لا، انت تعرف ان ابو حيدر هو الذي منعنا من الوصول قرب ضريح الامام علي».

كنت ابكي، ابكي بحرقة وأسى وانتحب «انقذوه ارجوكم، افعلوا اي شيء، عليكم ان تنقذوه، انه ابو حيدر يا ديفيد»، نظرت مباشرة الى وجهه فوجدته يبكي هو الآخر، ولا يفترض بعسكري مرسل للمهمات الصعبة ان يبكي مهما كانت الظروف، لكنه كان يبكي بعمق وبصمت. سألته ماذا يعني بهذا البكاء «لماذا تبكي يا ديفيد»؟ قال على الفور «معلوماتنا اننا تأخرنا عن إنقاذه.. ابو حيدر قُتل». مع سماعي الكلمة الاخيرة خارت قواي، شعرت ان الارض تميد تحتي، اختل توازني، فقدت جاذبيتي الارضية، شعرت اني احلق، اغادر الارض، لكنني سقطت فوق الاسفلت الساخن وقد جف كل شيء فيّ، لم أصرخ، لم اشهق، شعرت اني جزء من ارض سبخة مالحة وساخنة ايضا.

ما كنت اريد تصديق الخبر، قدرة الوعي الداخلي في دماغي رفضت بشكل قاطع تقبل الخبر، تماما مثلما يرفض جهاز كومبيوتر برنامجا جديدا لانه لا يتفق مع تركيبته.

فتحت عيني، كنت فوق سرير في المنزل الملاصق لمقر القيادة حيث كنا ننام قبل مغادرتنا للقاعدة، كان الطبيب العسكري الاميركي الشاب يداوي بعض الجروح او الخدوش في ظهري وصدري وذراعي، لم اكن قد شعرت بها من قبل. كانت كل الوجوه غريبة عني، اول من أمس فقط كنا ننام في الغرفة المجاورة ثلاثتنا، الخوئي والياسري وانا، والآن لا احد منهم هنا، كنت كطفل غريب ضائع يبحث عن اي قريب له في مأتم صامت.

رن هاتفي الثريا، كان الخفاجي يقول انه في البيت، ويعني بيت محمد تقي الذي نزلنا فيه قبل يومين، قال: «الجماعة عندي، بقية افراد المجموعة، ونحن لا ندري ماذا نفعل». اصدر الضابط الاميركي اوامره بتخصيص سيارات همر وثلاث مدرعات وشاحنة لنقل افراد المجموعة وحقائبنا من البيت ومنحنا ثلاث دقائق للبقاء هناك فقط، ذهبت مع ليث في سيارته التويوتا البيضاء (صالون)، كان ليث يقود سيارته وسط الرتل العسكري، لم ينبس بحرف، كما اني لم اقل اي شيء.

لم يكن حي السعد الذي يقع فيه بيت محمد تقي بعيدا، وصلنا هناك، قطعت كل الطرق المؤدية الى الشارع الذي يقع فيه البيت، لم يكن هناك سوى الخفاجي، سألته عن بقية افراد المجموعة فاجاب بانه وجه لنقلهم الى بيوت اقاربه خشية عليهم، (.. وسنكتشف ان ذلك لم يكن حقيقيا، فقد تفرقت المجموعة منذ ازمة الصحن، كل في اتجاه). عندما صعدت الى غرفة الحقائب التي حفظنا فيها حقائبنا نحن، الخوئي والخفاجي والياسري وانا، حيث كان المفتاح مع الخفاجي وجدت حقيبة الخوئي مفتوحة وأشياءه منثورة فوق الارض، هناك إذن من نبشها بحثا عن شيء ما! وكان هاتف الموبايل - الخط البريطاني، العائد للخوئي، ملقى على الارض بعيدا عن الحقيبة، كما كانت حقيبتي وحقيبة الياسري قد فتشتا بعناية ايضا.

لم أكن حينها في حالة من يمكن ان يسأل عن فتح الحقائب، حملت حقيبتي وتناولت موبايل الخوئي، وكانت هناك اكياس كبيرة معبأة بالعملة العراقية في زاوية الغرفة ما تزال هناك، تركت المكان بسرعة، وضعت حقيبتي في سيارة ليث ولا اتذكر ان كان الخفاجي قد جاء وهو يقود احدى السيارات التي كانت معنا ام انه جاء بواسطة سيارة اميركية (همر).

في القاعدة تأكد لنا تماما ان الخوئي قد قتل من غير ان نعرف التفاصيل، كنا نبكي انا وليث والخفاجي بحرقه، لم اكن ابكي موت صديق رائع وعزيز فحسب بل كنت ابكي شخصا لم يعرفوا قيمة خسارته على المستقبل القريب والبعيد، وماذا كان سيقدم للعراق والعراقيين. بدأ افراد المجموعة يتقاطرون علينا في القاعدة حيث كان بعضهم قد ذهب الى بيت محمد تقي واخبروه هناك باننا في القاعدة، واستنتج الآخرون اننا لا بد ان نكون هنا، لا اتذكر تسلسل وصولهم إذ ان هناك من جاء في اليوم التالي. كان وصول حميد التميمي، المقيم في الولايات المتحدة، مؤثرا للغاية، اذ كان يرتدي دشداشة بنية داكنة ملطخة بالدماء، فقد غرسوا سكاكينهم في رأسه وظهره وذراعيه، كان هادئا، لم يشك من اي ألم، لم يستعرض اية بطولة او يدعيها، فزعنا لمشهده حيث ناديت الطبيب بسرعة فأمر بنقله الى المستشفى الميداني الاميركي.

26

لحظات ساخنة أخيرة

دعوني اتوقف عند التميمي، الذي تعرفت اليه عن قرب في مخيمنا في البحرين، كان هادئا، طيبا، يتحلى باخلاق القرية بالرغم من وجوده لاكثر من 13 عاما في اميركا.

لم يتركنا التميمي، مثلما فعل الآخرون في الكليدارية، فقد بقي معنا وكان انيقا ذلك اليوم يرتدي بنطالا غامقا على ما اتذكر وقميصا ابيض مع جاكيت فاتح هو اقرب الى البياض ويعلق على كتفه حقيبة جلدية

صغيرة، لم يكن يحمل سلاحا بسبب شحة الاسلحة في الكليدارية، وهو من سحب الياسري الى الداخل قبل موته واسقاه ماء وقرأ الشهادتين عليه بينما كانت روحه تودع جسده.

كان هادئاً طوال الوقت، لكن عندما اشتدت المعركة غير المتكافئة واستخدم الطرف الآخر القنابل اليدوية ومدفع رشاش (بي كي 7) أدركنا اننا هالكون لا محالة، كان التميمي ضمن المتحمسين لان يسلم حيدر الرفيعي نفسه الى القتلة، كان هناك اكثر من شخص اقترح على الرفيعي تسليم نفسه من اجل ان تسلم حياة الاخرين، لكن الخوئي كان يرفض ذلك، بينما كان الرفيعي يندس في آخر المحتمين في حمام الكليدارية رافضا تقديم هذه التضحية، وهذا يعني أنهم لو داهمونا وارادوا البحث عنه فسوف يقتلون الجميع حتى يصلوا اليه، ولا ألومه، فالروح عزيزة مثلما يقولون، ثم اننا يجب ان لا ننتظر من الجميع ان يكونوا ابطالا ومضحين من اجل الآخرين.

تحدث التميمي لي بعد عودته من المستشفى، وحينما اختلينا لوحدنا ليكمل لي الحدث بعد انسحابي من المشهد الدامي. قال التميمي، وروايته تتطابق مع ما رواه صلاح بلال على رؤوس الشهود من افراد المجموعة، «تم اقتيادنا حتى مسكن مقتدى الصدر، المسكن الذي كان يتخذه والده محمد صادق صادق الصدر ومكتبا ومسكنا له والذي يقع في (عكد الحمير)، و(العكد) تعني باللهجة النجفية الزقاق، وهذا البيت هو وقف الملاية امينة وسيطر عليه الصدر الوالد، هناك عند باب بيت الصدر حيث كان من المفترض ان يجري مقتدى محكمة شرعية لنا، او يستقبلنا كأسرى، ويعيد لنا اموالنا وحاجياتنا التي نهبت منا في الكليدارية باعتبارها غنائم سيتم الاحتفاظ بها في مكتب مقتدى. لكن ما حدث هو عند وصول الخوئي وبلال والتميمي الى باب بيت الصدر

وبينما كان الخوئي ما يزال يتلقى الطعنات لكنه كان حيا وامامه فرصة كبيرة لانقاذ حياته، خرج احد اتباع الصدر من البيت وقال للغوغاء:

«السيد مقتدى يقول اقتلوا المجرمين في الخارج ولا تدخلوهم بيتي.»

كان ذلك أمرا واضحا وصريحا بالقتل يكشف ان العملية برمتها، منذ الهجوم علينا في الكليدارية، كان مخططا لها وبأمر مباشر من الصدر بقتلنا جميعا هناك. وحسبما نقل لي القاضي رائد جوشي، الذي حقق في القضية عندما كان قاضي تحقيق محكمة النجف، وحسب اعترافات الجناة فإن الخطة التي أمر الصدر بتنفيذها كانت تقضي بقتلنا جميعا في الكليدارية من غير السماح بنجاة اي منا، لكن تدخلات بعض الاطراف في الكليدارية ادت الى تغيير في الخطة يقضي بإخراجنا وقتلنا في الباحة من قبل اتباع الصدر.

عند ذلك، وحسب التميمي، فان الغوغاء هجموا على الخوئي، وكان قريبا منهم محل لتصليح مكائن خياطة ماركة «سنجر» يملكه احد اصدقاء الخوئي، واعتقد ان اسمه الحاج معين، وكنا قد زرناه في بيته قبل يومين، الخوئي والياسري وانا، لتحيته والسؤال عن صحته بعد ان كان قد تعرض لاطلاق نار، حاول الحاج معين إنقاذ الخوئي حيث ادخله مع التميمي وبلال الى محله لكن الدهماء هاجموا المحل وكسروا واجهته الزجاجية وسحبوا الخوئي وقتلوه في الخارج بينما اختبأ التميمي وبلال في مخزن صغير للعدد والادوات الاحتياطية داخل المحل، فيما كان بعض الدهماء يصرخون متسائلين «وين الباقيين.»

عرفت فيما بعد ان القتلة قطعوا احد اصابع الخوئي لسرقة خاتم فضي كان مرصعا بحجر من العقيق الاصلي قبل ان يسحلوه وهم يصيحون «يا حسين» ويرددون هتافات تمجد مقتدى الصدر.

كان الوقت الثانية عشرة وخمس دقائق ظهرا عندما انسحبت من المشهد الدامي، كان هناك مهرجان من الصراخ والاصوات المتداخلة التي امتزجت مع صوت أذان الظهر المنطلق من مسجد ضريح الامام علي، كانت بعض الاصوات تنادي بقتل الخوئي، وكنت أحاول ألا اسمعها، او لم اكن اشأ تصديقها، فمهما بلغ الخلاف بين الصدر والخوئي فلن يصل حد الموت. "نعم.. انهما من ذات الاصول الشيعية، ثم ان والد مقتدى، محمد محمد صادق الصدر، كان تلميذ والد عبد المجيد، ابو القاسم الخوئي... هكذا كنت افكر، وبكل سذاجة وبراءة".

بعد مجزرة مقتل الخوئي وحيدر الرفيعي وماهر الياسري في حضرة الامام علي وخارج الحضرة، عرفت من مقربين انهم مثلوا بالجثث الثلاث بطريقة بشعة لا تتناسب مع ابسط تعاليم وقيم الاسلام والروح الانسانية.

لقد سحلوا جثة الخوئي، ترسيخا لثقافة السحل، التي تحدثت عنها في مقدمة هذا الكتاب، لمسافة أكثر من ميل وتركوا الجثة هناك على مسافة قريبة من بيت مقتدى الذي ربما كان يتطلع اليها من شباكه ويضحك منتشيا بسقوط القيم الانسانية وانحدارها الى ذلك الدرك الاسفل. لم يكن خبر مقتل الخوئي قد وصل الى بيت عمه البهشتي بعد، بينما كانت جثته ما تزال مرمية عند (عكد الحمير) ممثلاً بها، لا احد يجرؤ على الاقتراب منها او رفعها، وقد استغربت من مقدار الخوف الذي زرعه مقتدى الصدر في نفوس أهل النجف، شبابا وشيوخا، مهما كانت منزلتهم الاجتماعية، هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون في الامس من اجل الوصول الى الخوئي وتقبيل يديه او السلام عليه، ها هم يغمضون عيونهم عن جثته.. أي بشر هؤلاء.

مر سائق البهشتي من الشارع الذي كانت جثة الخوئي مرمية فيه،
توقف. في الحقيقة لم يكن مروره من باب المصادفة بل كان يبحث عن
جثة الشهيد، فتح صندوق سيارة المرسيديس ووضع الجثة فيه وعاد الى
بيت البهشتي ليبلغهم بفداحة الفاجعة.
مساءً، وبصورة سرية تم دفن جثتي الخوئي والرفيعي من قبل بعض
المقربين القلائل من غير ان يجرؤ احد على تشييعهما او اقامة مجلس
الفاحة على رويهما.

لقد قتلوا الامام ثانية

عندما أفقت من نوبات البكاء كان الجميع حولي يؤكدون حقيقة مقتل الخوئي، استدركت ان نشرات الاخبار ستتداول الخبر ما قد يسبب صدمة لعائلتي التي ستعتقد بانني قتلت معه. اتصلت بعائلتي أبلغهم بانني ما زلت حيا، كنت اغرق بين الوقت والآخر في نوبة من البكاء. اتصلت بجريدتي «الشرق الاوسط» وكان على الطرف الآخر صديقي وزميلي الاثير عدنان حسين، المسؤول عن الملف العراقي، لاخبره بما جرى، كان عدنان حسين هو الآخر صديقا للخوئي، ويعرفه جيدا.. سرى الحزن العميق عبر أثير الاتصال الى صديقي عدنان الذي طلب مني ان اكتب خبرا مفصلا، قلت: «لا استطيع، انا في حالة يرثى لها»، ولكنه ألح قائلاً: «استرح قليلا، انا اقدر حالتك، اكتب لنا الخبر من اجل الخوئي نفسه، على الاقل.»

كانت «الشرق الاوسط» اول مطبوعة تنشر تفاصيل الخبر، ومن ثم تفاصيل الرحلة. كتبت الخبر وانا في حالة لا تسمح لي حتى بالحديث، فكان الخبر التالي الذي نشر في الصفحة الاولى من الجريدة، يوم الجمعة 08 صفر 1424 هـ، 11 ابريل 2003 العدد، 8900.

اريد ان اذكر هنا بان شر صفر(حسب التقويم الهجري) يشكل فألاً سيئاً لعائلة الخوئي، ففي العاشر من صفر توفي آية الله ابو القاسم الخوئي، وفي ذات اليوم تم اغتيال نجله محمد تقى الخوئي، وأغتيل عبد المجيد الخوئي يوم السابع من شهر صفر.

"اغتيال الزعيم الشيعي عبد المجيد الخوئي في النجف
«الشرق الأوسط» تشهد الهجوم عليه داخل مرقد الإمام علي
بالسكاكين والسيوف والقنابل

النجف: معد فياض

لقي عبد المجيد الخوئي، الأمين العام لمؤسسة الخوئي
الخيرية في لندن، مصرعه امس داخل مرقد الامام علي في
مدينة النجف العراقية مع مرافق له عراقي يحمل الجنسية
الاميركية، هو ماهر الياسري.
وكان موفد «الشرق الاوسط» قد حوضر خلال مرافقته للخوئي
في مرقد الامام علي وحتى مقتله على يد انصار مقتدى
الصدر في حادثة ماثلت في بعض جوانبها حادثة مقتل الامام
الحسين بن علي قبل الف واربعمائة عام.
كنت قد تناولت طعام الافطار في وقت مبكر من صباح امس
مع الخوئي في منزل شقيقه محمد تقي الخوئي الذي كان
نظام صدام حسين قد اغتاله عام 1994، ثم توجهنا الى مرقد
الامام علي عند تمام الساعة التاسعة صباحا مع مجموعة من
العراقيين المقيمين في بريطانيا والولايات المتحدة والذين
حضروا معه لتقديم الدعم والمساندة لبلدهم.
وبعد ان ادى الخوئي ومجموعته شعائر الزيارة توجه الجميع
الى مكتب خدمة الروضة الحيدرية داخل الصحن الشريف
يرافقهم حيدر الرفيعي سادن الروضة الحيدرية، الذي حضر
للمرة الاولى امس الى مكتبه منذ انهيار النظام العراقي،
لخشيته من ان يتعرض للقتل بتهمة تعاونه مع نظام الرئيس

صدام حسين. وعند الساعة العاشرة والنصف بدأت جماعات من مريدي مقتدى الصدر (22 عاما) نجل المرجع الشيعي السابق محمد صادق الصدر الذي كان قد اغتيل قبل عامين بالتجمع امام المكتب ونوافذه رافعين شعارات مؤيدة للصدر ومطالبين بتسليمهم حيدر الرفياعي لإعدامه امام الجماهير. وما كان من السيد عبد المجيد الخوئي إلا ان يتحدث معهم طالبا منهم الهدوء، ومذكرا اياهم انهم مسلمون وشيعة، وفي حضرة الامام علي، وعليهم احترام المكان المقدس الذي هم فيه. لكن موجات مريدي مقتدى الصدر بدأت بالهيجان والانتعاش. وكانت وجوههم منذرة بالشر وبالتعطش للقتل وهم يقتربون من نوافذ مكتب خدمة روضة الحيدرية حاملين السكاكين والخناجر والسيوف ومطالبين بقتل جميع من في المكتب. وبينما كان الخوئي يتحدث معهم حطم بعضهم النوافذ وقاموا بالهجوم محاولين الدخول الى المكتب غير مبالين بما يحدثهم به الخوئي.

بعد دقائق قليلة اطلق مريدو الصدر وابلا من الرصاص باتجاه نوافذ المكتب ما ادى الى مقتل ماهر الياسري، 33 عاما، وهو عراقي يحمل الجنسية الاميركية ومقيم في ديترويت، وهنا قام بعض افراد حماية المكتب بالرد على المهاجمين من اجل حماية الخوئي ومجموعته. وبعد دقائق قليلة ظهرت انواع مختلفة من الاسلحة بين ايدي المهاجمين داخل حضرة الامام علي، وانهمر على المكتب وابل من الرصاص والقنابل اليدوية وقاذفات «ار بي جي 7» وتحول المكان الى ساحة قتال ساخنة للغاية، فيما لم يكن

الأشخاص الذين معنا في مكتب الخدمة يحملون سوى
رشاشة كلاشنيكوف واحدة انتهى عتادها ومسدسين
بسيطين.

ولم تنفع صرخاتنا بضرورة إيقاف الرمي والتفاهم لمعرفة
مطالبهم لكن الاجابات كانت تأتي سريعة على شكل وابل من
الرصاص.

وبعد اكثر من ساعة ونصف الساعة من الرمي من طرف واحد
من جانب المهاجمين رفعنا الراية البيضاء والمصحف الكريم
ودخل عدد من المهاجمين الذين يضعون العمائم البيضاء
والسوداء على رؤوسهم، وكان عبد المجيد الخوئي وقتذاك قد
اصيب اصابة بالغة باليد اليمنى.

دخل علينا المهاجمون وهم يصرخون «اقتلوهم.. اقتلوهم»، الا
ان الخوئي اجابهم: «هذا حرام، كلنا مسلمون وكلنا شيعة،
ونحن في حضرة الامام علي، لقد قتلتم شاباً عراقياً مسلماً
لماذا»، وهنا تعالت اصواتهم وهم يقولون «اسكتوا سنقتلكم
الان». وبالفعل وضعونا في مواجهة الجدار لتنفيذ حكم
الاعدام فينا الا ان احدهم قال يجب ان نأخذهم الى بيت
مقتدى الصدر، وهكذا كبلوا ايدينا بالحبال وصادروا كل ما في
جيوبنا من اموال واوراق واجهزة هاتف وكاميرات وهم
يضربوننا.

ثم اقتادونا مكبلين وكنا خمسة اشخاص، السيد عبد المجيد
الخوئي وانا والشيخ صلاح بلال وحيدر الرفيعي وشخص
اخر عراقي مقيم في اميركا، وما ان خرجنا حتى انهالت علينا
السكاكين والخناجر والهاوات.

وعند اجتيازنا الشارع المؤدي الى بيت مقتدى الصدر بلغ الضرب والهجوم ذروته ولا ادري كيف استطعت ان افك وثنائي وأندس بين الناس واهرب من المكان، وعندما وصلت بقية المجموعة الى بيت مقتدى الصدر رفض فتح الباب وقال لمريديه اقتلوهم في الشارع ولا تدخلوهم الى بيتي، وكانت جماعة الصدر قد منحتنا الامان.

وعند الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق، وعندما كان اذان صلاة الظهر يعلو من مآذن مرقد الامام علي كان الخوئي وحيدر الرفيعي قد قتلا على ايدي المهاجمين.

من ناحية اخرى، يتوقع اهالي النجف ان تستمر حالات الاغتيالات والتصفية بين مجموعة مقتدى الصدر ومجموعات شيعية اخرى منافسة."

بعد الاعلان عن مقتل الخوئي بقليل انهالت علي الاتصالات الهاتفية من عدة قنوات تلفزيونية واذاعية وصحف تريد مني تصريحات حول تفاصيل

الحادث، ومن بينها قناة «الجزيرة»، والقناة الرابعة في التلفزيون البريطاني، واخبار (بي بي سي)، ورايو (بي بي سي)، و(أي تي في) البريطانية، والاذاعة الفارسية في (بي بي سي)، وغيرها.

كانت بعض الجهات قد حصلت على رقم هاتفي من صحيفة"الشرق الاوسط"، والبعض الآخر من مؤسسة الامام الخوئي في لندن/وهناك من كان يتصل برقم هاتف الخوئي ذاته، وهؤلاء من معارفه والمقربين منه، حيث لم يكونوا يصدقون ما سمعوا، وكان هاتفه الثريا مع سعد الخرسان الذي اعطاه(الخوئي) اياه منذ اللحظات الاولى لتعرضنا للحصار في الكليدارية لكي يتصل بديفد لمساعدتنا، واعاد الخرسان هاتف الخوئي لي عندما التقيته في القاعدة اذ كانت ترد اتصالات باللغة الانجليزية لم يعرف الخرسان كيف يجيب عليها.

كنت مقتضبا في تصريحاتي مؤكدا ان من قتل الخوئي هو مقتدى الصدر وانصاره.

بدأ يتقاطر علينا في القاعدة لاميركية بقية اعضاء المجموعة بشكل بطيء، كان هناك عبد الحسن الخفاجي، الذي تحدثت عن الطريقة التي جننا به من بيت محمد تقي الى القاعدة، وهناك كان سعد الخرسان وليث البهاش الذي قرر البقاء معنا خشية اغتياله من قبل انصار الصدر، وطالب القوات الاميركية بتسهيل امر ترحيله الى الولايات المتحدة او بريطانيا كلاجئ يخشى على حياته لانه وقف الى جانب الخوئي، وقد حاولنا جهدنا تحقيق ذلك لكن السلطات الاميركية والبريطانية رفضتا الطلب.

لا أتذكر بالضبط تسلسل وصول بقية افراد المجموعة، فهناك من جاء بعد الحادث بساعات، مثل الشيخ صلاح بلال الذي كانت دشداشته ملطخة بالدم، من غير ان يتعرض للاصابة، فقد كان ذلك دم الخوئي الذي كان

معه حتى اللحظات ما قبل الاخيرة، حسب ما اكده لنا. ثم وصل حميد التميمي الذي كان، ومثلما اوضحت، مصابا بطعنات سكاكين في رأسه وظهره. وفي المساء وعند اليوم التالي وصل البعض الاخر، بينما هناك من ذهب لزيارة اهله في الناصرية والسماوة والحلة والديوانية، وبقي هناك، ومنهم من التحق بنا بعد يومين ليكون عددنا اربعة عشر شخصا. هناك من اراد البقاء لمواصلة المشروع الذي جننا من اجله، لكننا، عبد الحسن الخفاجي وانا، اصررنا على العودة الى لندن وبسرعة، طالب الاميركان من الخفاجي ومني بالتحديد البقاء اذا اردنا إكمال مشروع الخوئي، وكان الطلب واضحا من الخفاجي كوني اوضحت موقفي منذ البداية بالعودة الى لندن، ثم اني كنت قد ذهبت مع الخوئي وليس لي أي مشروع سياسي او غيره، سوى اني اردت مساعدة الناس بذات الطريقة التي كان يفكر بها الخوئي. كان من المستحيل علي البقاء في النجف بعد ان خرجت تصريحاتي لـ«الشرق الاوسط» في اليوم التالي والتي تناقلتها بعض المحطات التلفزيونية والاذاعية وتحدثت خلالها بصراحة عن مقتل الخوئي، واشرت بوضوح الى الجهة التي قتلته وكادت ان تقتلنا.

جاء عدة اشخاص الى بوابة القاعدة مطالبين بلقائي بزعم انهم من اهلي او اقاربي، وكنا نعرف انهم من انصار الصدر الذين شعروا بندم عميق لعدم التخلص مني في الكليدارية إذ لم يدركوا مدى الخطر الذي يشكله صحافي كان موجودا طوال الاحداث كشاهد عيان بعد ان صمت غالبية من المجموعة خشية على حياتهم، حتى ان احدهم عاتبني لمجرد اني ذكرت اسمه باعتباره شاهدا على ما حدث. تذكرت وقتذاك وثيقة التضحية بحياتهم من اجل الخوئي ومشروعه؟ اية تضحية هذه امام ذلك

الهروب من المواجهة الاولى؟ واية تضحية وهم يخشون حتى من مجرد ذكر اسمائهم كشهود؟!

رفض الخفاجي البقاء وقرر العودة الى لندن، ولم تنفع الاتصالات التي قام بها بعض اعضاء المجموعة مع الاميركان لغرض البقاء والعمل هناك على ان يقدم لهم دعم مالي وامني كاف. واقترح المسؤول الاميركي في القاعدة (س. ت) للذين ارادوا البقاء ان يعملوا أولا، ومن ثم يقدر الاميركان اذا كان بالإمكان توفير الدعم المادي والامني ام لا، باعتبار انهم متطوعون لمهمة وطنية تهم الشعب العراقي، واوضح بصراحة ان هذا المشروع لم ولن يكون اميركيا بل كان مشروعا مقترحا ومخططا ومصروفا عليه من قبل الخوئي اولا واخيرا، وهو الذي انفق عليه من حسابه الخاص، وان مهمتهم كانت تتلخص بمساعدته على الوصول الى العراق وتوفير الحماية الامنية لفترة محددة هو يقررها، وقد قررها، ولذا ليس من مسؤوليتهم توفير الدعم المادي لمن يريد ان يعمل من اجل بلده وشعبه. لكن هذا الحديث لم يعجب من اراد البقاء، وربما تصوروا ان الاميركيين فعلا قد دفعوا الملايين للخوئي وقد يدفعون ذات المبالغ لمن يريد البقاء والتعاون معهم.

أحد أفراد المجموعة الذي لم اكن، وغيري الكثيرون، نطبق وجوده وطروحاته، جاء بعد يوم أنيقا معطرا حيث امضى الليلة الماضية عند اهله وذكر انه خطف من قبل انصار الصدر الذين سرقوا امواله، وعندما تحققت من القصة بحجة اني اريد كتابتها للجريدة اكتشفت كذب ادعائه وأن القصة كلها من اجل تعويضه المبلغ الذي منحه إياه الخوئي (عشرة آلاف دولار) حيث ادعى انه سرق منه .. هذا الشخص كان يتشاجر مع المسؤولين في قاعدة البحرين من اجل نوع الطعام المقدم لنا، وعندما وصل عندنا في القاعدة بعد يوم من الفاجعة، وكان قد جاء من بيت

عائلته، أخذ يصرخ مطالبا بتوفير الطعام له بدلا من ان يأتي الينا بالطعام من بيت عائلته، وهو نفسه من طالب بالبحث عن الاموال واعطاء قسم منها له.

كانت عائلة البهاش، مشكورة، توفر لنا الطعام كل يوم سواء مما يطبخونه لنا في البيت او ما يشترونه لنا من المطاعم، كانت هذه العائلة الكريمة تعتبر ذلك واجبا اخلاقيا ليس بسبب وجود ابنهم ليث معنا بل لانهم كانوا يكملون خدماتهم من اجل الخوئي.

استغربت كثيرا، واستهجننت ان يثير البعض وبعد ساعات من مقتل الخوئي موضوع الاموال التي كانت معه، والتي قدروها بعشرة ملايين دولار، او ثلاثة ملايين دولار، ولا ادري من اين لهم بتلك الارقام، او كيف تخيلوا ان هناك امولا كانت مع الخوئي وهم ما التقوا به منذ ان تركنا البحرين إلا ليلة امس.

كان هناك شخصان في الغالب يطالبان بهذه الاموال باعتبارهما الورثة الشرعيين للخوئي، احدهم (....) كان يضع كل الاحتمالات عن وجود وضيا ع هذه الاموال، بينما كنت انا احترق في داخلي لفقدان الخوئي الذي لا يعوض بأي ثمن.

إن كانت هناك اموال فيجب ان تكون مع الخوئي بالتحديد وفي حقيبته الشخصية الصغيرة التي كانت ترافقه ولا نعلم اين بات مصيرها ومصير كومبيوتره الشخصي (لاب توب) الذي حمله معه من لندن، وثمة دفتر ملاحظات كبير كان يسجل فيه بعض النقاط.

ما اتذكره جيدا هو ان الجناة كانوا قد فتشوا جيوبنا عندما دخلوا علينا وسرقوا كل شيء، من اموال وآلات تصوير ووثائق شخصية، ووضعوها في جيوبهم على انها غنائم، فيما قال احدهم اننا سوف نتسلم محافظنا وآلات التصوير وهواتفنا الفضائية من مكتب (السيد) مقتدى الصدر،

لكننا اذا كنا لم نسلم على ارواحنا، مع انهم اعطونا الامان، فكيف سنؤمن على اموالنا وحاجاتنا التي وقعت بأيدي هؤلاء اللصوص. كان الخفاجي وحده يعرف كم حجم الاموال مع الخوئي، فقد كان يمارس مهمة أمين سر وحسابات الخوئي، وهو الذي كان يمنح النقود لهذا وذاك حسب توجيهات الخوئي، وكان رجلا امينا وحريصا كل الحرص على اموال الخوئي وأسراره ورافقه كظله طوال الرحلة باستثناء البقاء معنا في الكليدارية حيث خرج مبكرا لطلب النجدة واختفى لظروف غير معروفة، حتى الان، وسأتى الى هذا الجزء من القصة.

قدر الخفاجي ان ما تبقى مع الخوئي في حقيبته التي كان يحرص على ان تكون معه ما بين 380 الى 400 ألف دولار. ومنذ وصولنا الى النجف لم يعد الخفاجي مسؤولا عن هذه الحقيبة كونه كان منشغلا بامور أخرى ادارية في الغالب، ولا يعرف الخفاجي كم منح الخوئي لهذا وذاك، لكنه أكد، كما قال لي الخوئي شخصيا ان السيارات التي كانت معنا دفع كل اثمانها لليث البهاش ولشخص آخر اسمه فاضل، واذا كان ليث قد اكد لي ونحن في القاعدة ان الخوئي قد دفع اليهم ثمن السيارتين الـ(تويوتا) والـ (بي إم دبليو)، فاننا، الخفاجي والياسري وانا، شهدنا دفع الخوئي لفاضل سعر سيارة التويوتا. الغريب في الموضوع ان تعود السيارات بعد الفاجعة الى اصحابها مدعين بانهم لم يتسلموا اثمانها.

أما حقيبة الاموال السوداء واللاب توب فقد كانا مع الخوئي عندما غادر بيت شقيقه محمد تقي في الليلة الاخيرة، 9/4/2003، حيث كنا قد خططنا للمبيت في بيت البهاش لكنه طلب مني البقاء مع المجموعة التي كانت قد وصلت توا من البحرين وذهب هو وسعد الخرسان الى بيت البهاش بعد ان قال انه ذاهب الى بيت عمه الهشتي (والد زوجته)

واتضح لي، بل تأكد لي، انه لم يذهب الى بيت عمه بل نام في بيت
البهاش بعد ان شاهده بأم عيني ينهض من فراشه في صالة بيت
البهاش صباح يوم العاشر من نيسان، كما اخبرني ليث بان الخوئي
بات عندهم.

كانت الحقيقية معه ليلة تركنا في بيت محمد تقي، لكنه عندما ترك بيت
البهاش، وكنت معه وكذلك الخرسان، لم تكن الحقيقية معه، هذا يعني انه
تركها في مكان ما لا يستطيع ان اجزم موقعه، بعد ذلك اختفت الحقيقة.
في لندن سرب بعض افراد المجموعة ان الخوئي كان معه ما يقرب 30
مليون او 10 ملايين دولار زودته بها الادارة الاميركية، ونشرت الصحافة
الغربية ذلك، وكان ردي حول هذا الموضوع على صفحات «الشرق
الاوسط» - الاحد ربيع الاول 1424 هـ 4 مايو 2003 ، حيث نشرت
الموضوع اعتمادا على افادات موثوقة:

=====

**"مقربون من عبد المجيد الخوئي ينفون حصوله على أموال
من الإدارة الأميركية**

لندن: معد فياض

نفى مصدر مقرب من عبد المجيد الخوئي، الامين العام السابق
لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية في لندن ان يكون قد تلقى اية
اموال من الادارة الاميركية. وقال جواد الخوئي، ابن شقيق
عبد المجيد الخوئي في اتصال هاتفي مع «الشرق الاوسط»
في لندن امس: «فوجئت بالانباء التي تتحدث عن تسلم عمي
اموالا من الادارة الاميركية، وان كل ما اعرفه هو ان عمي قد
انفق اموالا من حسابه الشخصي من اجل تنفيذ مشروعه
الانساني والاغاثي في داخل العراق». و اضاف قائلاً «لقد كنت

على اتصال مباشر مع عمي منذ ان فكر بمشروعه الانساني
لمساعدة العراقيين في الداخل، وعملت معه لانجاح هذا
المشروع، عندما كنت في ايران وانا على اطلاع مباشر بأرقام
الأموال التي كان يحولها من حسابه الشخصي لأغراض
المشروع، كما انه كان يؤكد باستمرار أنه هو الوحيد الذي
ينفق على مشروعه هذا".

واستغرب جواد الخوئي نشر مثل هذه الاخبار التي وصفها
بالعارية من الصحة بعد رحيل عمه، وقال «لقد ضحى عمي
بحياته من اجل إرساء تقاليد الحوار والابتعاد عن استخدام
السلح لتنفيذ عمليات الاخذ بالتأر وتصفيات الحسابات،
واليوم يتحدثون عن اموال وهمية لم يتسلمها عمي حسب
علمي»، مشيرا الى ان الادارة الاميركية اذا كانت قد حولت
بعض الاموال الى العراق لاغراض هذا المشروع فان من المؤكد
ان هذه الاموال ما تزال مع الاميركيين «بل اني علي يقين من
ان عمي فقد امواله التي اخذها معه من لندن لاغراض انجاح
المشروع في النجف، ولا نعرف مصير هذه الاموال حتى اليوم،
ونطلب من الادارة الاميركية التحقق من ذلك واخبارنا عن اموال
عمي المفقودة في النجف.»

واضاف جواد الخوئي الذي كان يتصل عدة مرات يوميا من
مقر سكنه في مدينة قم الايرانية بعمه في النجف «لو كانت
هناك اية اموال تسلمها عمي من الادارة الاميركية لكان
اطلعتني عليها، لكن هناك اصواتا مغرضة تحاول اليوم
الاساءة لمشروع عبد المجيد الخوئي الذي كان اول شخصية

عراقية تصل الى العراق قبل ان يتحرر من سيطرة نظام صدام حسين ليساعد العراقيين وهم على ابواب حياة جديدة.»

واتصلت «الشرق الاوسط» هاتفيا امس بموظف في الادارة الاميركية كان مكلفا بمرافقة الخوئي في رحلته الى العراق، وسألته حول ما اذا كانت الادارة الاميركية قد منحت عبد المجيد الخوئي اية اموال من اجل دعم مشروعه الانساني داخل العراق، فنفى ذلك. وقال الموظف الاميركي الذي رفض نشر اسمه «ان هذه الانباء تدعو للسخرية. كنت على اطلاع كامل بمشروع الخوئي واتصالاته بالادارة الاميركية، وقد رافقته الى داخل الاراضي العراقية مع مجموعته ولم اطلع على اية اموال سلمت للخوئي، واذا كانت هناك اموال فكان يفترض ان تسلم بواسطتي وليس عن أي طريق آخر كوني انا المشرف من قبل الادارة الاميركية على هذا المشروع الذي هو مشروع الخوئي اولا واخيرا وان دور الادارة الاميركية كانت تسهل عملية وصول المجموعة الى داخل الاراضي العراقية وتأمين حمايتها.»

كما نفى عبد الحسن الخفاجي، الذي كان من اكثر المقربين للخوئي وامين اسراره والمشرف الاداري على الرحلة الى العراق، ان يكون عبد المجيد الخوئي قد تسلم اية اموال من الادارة الاميركية. وقال في حديث لـ «الشرق الاوسط» امس: «انا اعرف عبد المجيد الخوئي منذ ان كنا في النجف، وقد تركنا العراق في مارس (آذار) 1991 خلال احداث الانتفاضة لطلب مساعدة قوات الحلفاء لدعم الانتفاضة، لكننا، الخوئي وانا، لم نعد الى النجف إلا بعد اكثر من اثني عشر

عاما، وكنا نعتقد اننا سنعود اليها وقتذاك في اليوم التالي.
وانا اعرف نزاهة وصدق وامانة السيد عبد المجيد الذي خطط
لذلك المشروع الانساني لمساعدة العراقيين في الداخل وليس
من اجل منصب سياسي او اموال كونه لم يكن بحاجة للاثنين
والكل يدرك ذلك». و اضاف «لقد كنت اعرف تفاصيل هذا
المشروع بدقة كوني المشرف الاداري وامين سر المشروع الذي
معي كل تفاصيله على الاوراق الموثقة، وانا من كنت اخاطب
الاخرين واجري كافة الاتصالات بهم، بل وانا من كان الخوئي
يأتمنني على اسراره وامواله ودفاتره في هذه الرحلة، وانفي
بشكل قاطع ان يكون الخوئي قد تلقى اية اموال اميركية وغير
اميركية، بل ان كل نفقات الرحلة كانت من الحساب الشخصي
للخوئي وليس من اية جهة اخرى.»
واشار الخفاجي الى ما ذكرته شخصيا عن ان قائد العمليات
الاميركية في النجف، وبعد حادث مقتل الخوئي، كان قد
اجتمع مع بقية افراد المجموعة للتعليق حول نية البعض ممن
ارادوا البقاء لاكمال المشروع مقابل الدعم المادي والامن
الاميركي، وقد اكد للجميع أن هذا المشروع هو مشروع
الخوئي وليس مشروعا اميركيا، وان الخوئي هو من انفق
عليه وليس الادارة الاميركية وان مهمة الاميركيين كانت تسهيل
عملية النقل الى داخل العراق وتوفير الحماية، وان من يريد
البقاء لمساعدة شعبه عليه العمل اولا ثم يتم تقييم عمله فيما
اذا كان يستحق الدعم المادي ام لا. وقال «ان الجميع يشهدون
على هذا الحديث الصريح، وطوال بقائنا هناك وعملنا مع
الخوئي لم نسمع بموضوع اية اموال اميركية، وخاصة نحن

الذين رافقنا الخوئي في رحلته الى العراق». وختم قائلاً
«اعتبر ان حديثاً من هذا النوع يثار لاسباب تتعلق بالاساءة
للخوئي الذي نعرف نزاهته وكرمه وصدقه، وان اهم ما عند
الخوئي هو حياته، وقد ضحى بها من اجل العراق والعراقيين،
واستنكر كل هذه الاخبار، والله على ما اقول شهيد.»

29

الطريق الى العودة

كانت الايام الاربعة التي امضيتها في القاعدة الاميركية بعد فاجعة مقتل
الخوئي اقسى علي من السجن، بينما كان البعض يخرج الى النجف
ويعود الينا في اليوم التالي او في اليوم ذاته.
كان يجب ان يتم نقلنا من النجف في اليوم التالي لمقتل الخوئي لكن
الطائرة كانت تتأخر لاسباب فنية او عسكرية، شعرنا ان المسؤولين
الاميركيين يريدون التخلص منا بأي ثمن وترحيلنا من القاعدة، الاكثر من
هذا انهم لم يعودوا ليهتموا بنا باستثناء ديفيد (ابو علي) الذي كلف
بمهمة في مطار بغداد، اختلى بي في اليوم الثاني وقال لي «اعرف
مدى تأثير الفاجعة عليك وانا آسف جدا واتوقع لك مستقبلا سياسيا
كبيراً، واذا كنت تريد تحقيق هذا المستقبل تعال معي الى مطار بغداد
لأقدمك الى القيادة الاميركية هناك، ودع جماعتك يعودون الى بيوتهم.»

كان ردي واضحاً، وهو انني في حالة نفسية لا استطيع معها تقدير الامور او اتخاذ اي قرار، «دعني اعود الى لندن واتصل بك من هناك لابلاغك موقفي» وبالفعل عندما عدت جرت اتصالات فيما بيننا اعتذرت خلالها عن عدم الذهاب الى مطار بغداد.

صباح 14 نيسان اخبرنا من قبل المسؤولين في القاعدة بان موعد سفرنا سيكون عند الثامنة والنصف ليلاً.

حلقت بنا الطائرة من مطار النجف العسكري بعد ان ودعنا (ابو علي) متأثراً لما حدث. نقلتنا طائرة عسكرية الى مطار الكويت الدولي بعد توقف بسيط في قاعدة طليعة.

استقبلنا مارك، الشاب الاميركي الذي كان قد رافقنا في قاعدة البحرين وكان حزيناً لمقتل الخوئي وماهر الياسري ولعودتنا قبل اتمام المشروع. استمتعنا باستقبال مترف ولأول مرة بعد ثلاثة اسابيع من التعب والحزن والمشقة في فندق مطار الكويت (السفير) اذ خصصت غرفة لكل منا. في صباح اليوم الثاني كنت اشعر بالاعياء والبرد، ولا ادري هل كان إعياء وتعب الايام الماضية ام هو الحزن العميق على فقدان اقرب اصدقائي الى نفسي وهو السيد عبد المجيد الخوئي، هذا الحزن الذي سيبقى ملازماً لي لفترة طويلة من الزمن. فقد خسرتنا شخصية معتدلة كان بإمكانها ان تقدم الكثير للعراق وللعراقيين.

نقلتنا من مطار الكويت نهار اليوم التالي طائرة خاصة هي ذاتها التي كانت قد حملتنا من لندن الى البحرين، غرقت في نوم عميق، ولم استيقظ الا في مطار (لوتن) البريطاني. ودعنا زملاءنا الذين واصلوا رحلتهم الى الولايات المتحدة لنختتم وقائع رحلة صاخبة.

من قتل الخوئي ؟

هناك من يعتقد بنظرية المؤامرة، وان القوات الاميركية كانت قد خططت لاغتيال الخوئي، وهذا اعتقاد واهم تماما.. ذلك لاننا كنا نعرف كم كانوا حريصين ليس على حياة الخوئي وحسب بل على حياتنا، وكان موضوع حمايتنا من مقدمات اولوياتهم. والاكثر من ذلك هو ان الادارة الاميركية، التي استنكرت الحادث على لسان المتحدث باسم البيت الابيض، فتحت على الفور تحقيقا بالحادث. وهنا انا لا اذافع عن الاميركان بل اجد ان من مسؤوليتي إدراج الحقائق مثلما اعرفها.

ثم لماذا يقتل الاميركان عبد المجيد الخوئي وهم من ساعدونا على الوصول الى العراق وتكبدوا الكثير من المشاق وتكاليف النقل بطائراتهم الهليكوبتر والعادية مخصصين لنا العديد من عناصر قواتهم للحفاظ على حياتنا؟ كان بإمكانهم رفض المشروع اساسا وعدم الانشغال بنا. كما ان مشروع الخوئي كان قائماً على مساعدة العراقيين وحثهم على الهدوء وعدم الاقتتال فيما بينهم، وهو ما يلتقي مع مصالح القوات الاميركية التي كانت تبحث عن شخصية شيعية معتدلة تكبح جماح الناس بعد سقوط النظام وتشجيع الاستقرار في البلد، وذلك كان احد اهم

اهداف الخوئي الذي وصفه قتلته بالعميل الاميركي والبريطاني وهو
ابعد ما يكون عن ذلك.

ولماذا نذهب بعيدا ونتهم القوات الاميركية باغتيال الخوئي ونحن نعرف
من قتله؟ بل ان القتلة ذاتهم كانوا قد عرفوا بانفسهم منذ ما قبل تنفيذ
الجريمة عندما رفعوا الشعارات التي تنادي بالصدر كزعيم اوجد للحوزة
والمرجعية؟ وهم من دخل علينا واعتبرنا اسرى لدى (السيد) مقتدى
الصدر ووثقوا ايدينا لغرض قيادتنا الى بيت مقتدى الذي رفض دخول
الخوئي وحמיד التميمي والشيخ صلاح بلال الى بيته لغرض اتاحة
الفرصة لاتباعه بقتل الخوئي؟ فقد كان بإمكانه انقاذ الخوئي وتهدئة
الاضاع عن طريق تدخله المباشر ومنع الفتنة لا سيما انه كان يسمع
الشعارات التي تمجده وإطلاق النار من بيته الذي يقع على بعد اقل من
خمسمائة متر من مرقد الامام علي الذي دارت فيه احداث الفتنة؟
كان قد سقط في ايدينا، السيد عبد المجيد الخوئي قتل. قتلوه وهو بيننا،
الذين كانوا يهتفون ويزايدون بان يقدموا حياتهم في سبيله تركونا
لوجدنا.. هربوا، لم يدافع عنه احد سوى من كان حوله واولهم ماهر
الياسري. استطعنا الصمود طوال ما يقارب الساعتين ولم يكن معنا
سوى رشاشتي كلاشنيكوف مجموع ما فيهما من الرصاص اقل من 21
طلقة ومسدس محشو بست رصاصات مع سبع اخرى احتياط.
من اقترح في اجتماعات لندن توقيع وثيقة عهد للخوئي كان اول من ترك
الكليدارية... اتساءل الآن لو كان هذا الحشد الذي زاد على الستين
شخصا وقتذاك في الكليدارية قد اصر على البقاء، فهل كانت النتائج
ستنتهي بما انتهت اليه؟ أشك في ذلك اذ ليس من المعقول ان يتحمل
الصدر مسؤولية دماء كل هؤلاء وبينهم ابناء عوائل وعشائر معروفة في
النجف.

الاسئلة كثيرة وموجعة. لماذا لم يتصرف كل من عبد الحسن الخفاجي وسعد الخرسان اللذين تركانا قبل ساعة ونصف الساعة من مقتل الخوئي؟ لماذا لم يستجما مثلا بعض من الاوفياء للخوئي، او لهما، ومعهم بعض الاسلحة لدعم موقفنا، وهما من ابناء النجف اصلا ولهما علاقات واسعة؟

انا هنا لا اتهم احدا بقدر ما اطرح أسئلة ما تزال تؤرقني ولا اجد لها اية اجوبة منطقية.. فانا لا استطيع ان افسر خروج الآلاف من اهالي النجف وزوار ضريح الامام علي لملاقة الخوئي ومحاولة تقبيل عباةته قبل ساعتين ثم اختفائهم عندما وقع السيد بأيدي الغوغائيين والقتلة ولم ينبر للدفاع عنه سوى رجل صاحب دكان صغير يحاول اخفاه فيما البقية يتفرجون على مقتل إمام آخر من أئمتهم.

ربما تفسير جواد الخوئي، نجل محمد تقى، والذي تولى عبد المجيد الخوئي جانبا من تربيته او الاشراف على تعليمه، يبدو منطقيا بالنسبة لي عندما قال حين التقيته في لندن، بعد عودتي من النجف، « نحن نقتل أئمتنا لنبقى نبكي عليهم.. سنبقى بحاجة لمن نقتلهم ونبكي عليهم». هل هذه فلسفة شيعية بحتة يصعب علي فهمها؟ ام هي محاولة للاستمرار بجلد الذات ومعاقبة النفس وايدائها منذ مقتل الحسين كنوع من التطهير الروحي.

كان سعد الخرسان قد اعطاني هاتف الثريا الخاص بالخوئي بعد مقتله وفي القاعدة الاميركية، كان الخوئي - مثلما ذكرت سالفا - قد اعطاه الهاتف في بداية الازمة داخل الصحن للخروج والاتصال بديفيد (ابو علي). بعد مقتل الخوئي بدأت الاتصالات تنهال علي وعلى هاتف (الثريا) العائد للخوئي لهذا اعاده الخرسان لي للاجابة على تلك المكالمات.

يجب أن أعود واتسلسل في الاحداث، كي لا تتشابك علينا بتفاصيلها وحيثياتها... مع بداية تظاهرة الغوغاء من انصار الصدر (الابن) وخروج قسم كبير ممن كانوا معنا، سواء من مجموعتنا او من الضيوف الذين جاءوا يتشرفون بتحية الخوئي، كان عددهم بلا شك يزيد على الستين شخصا.

طلب المحيطون بالخوئي ان نترك الكليدارية فورا لكنه كان يخشى على حياة حيدر الرفيعي إن خرجنا، فقد تظفر به جموع الدهماء في الخارج، لهذا اعطى الخوئي جهاز هاتف الثريا الخاص به لسعد الخرسان وارشده كيف يستخدمه لطلب المساعدة من ديفيد (ابو علي)، بينما كان عبد الحسن الخفاجي (ابو طارق) هو الآخر قد ترك الكليدارية ومعه هاتفه الثريا لطلب المساعدة، حدث ذلك قبل مقتل الخوئي باكثر من ساعة ونصف الساعة وربما ما يقرب من الساعتين، ومن البديهي وفي اي مكان في العالم ومهما كانت الظروف ان يتصرف المنقذ بذكاء وبسرعة اعتمادا على طريقته في ايجاد الحلول لمساعدة الاخرين الذين يتعرضون للموت، سواء بإطلاق النار عليهم او لانهم وسط حريق او وسط زورق يغرق في بحر، المهم ان حياة الاخرين في خطر شديد وانقاذ حياتهم يعتمد على مبادرة من تطوع لإنقاذهم.

كان لنا في الخارج أكثر من شخص: سعد الخرسان وعبد الحسن الخفاجي وبقية الاشخاص الذين كانوا معنا في الكليدارية وافترض ان غالبيتهم من انصار الخوئي ومحبيه ومعارفه وهم من أهالي النجف الاصليين، كما يحلو لهم ان يميزوا انفسهم عن باقي سكان النجف. الاتصال بديفيد لم يكن يستغرق في اصعب الظروف من خمس الى عشر دقائق، والوصول اليه بسيارة خاصة لم يكن يتطلب اكثر من ربع ساعة، وقد كان على الخرسان او الخفاجي اتخاذ القرار المناسب

لانقاذنا اذا كان رد ديفيد سلبيا، كأن يبلغهما بصعوبة الموقف وان القوات الاميركية لا تستطيع ان تتصرف بحرية لأن ما يجري يتم وسط حضرة الامام علي، ومحرم عليهم الوصول اليها. اذن لنسقط افتراض مساعدة القوات الاميركية.

سيكون الآن امامنا اكثر من افتراض، يستطيع كل من الخرسان والخفاجي وبقية من كان معنا في الكليدارية القيام به وأسهله هو جمع بعض الرجال من النجفيين المحبين للخوئي او المناصرين لوالده او من المخلصين للمذهب الشيعي او من الحريصين على قدسية مرقد الامام علي.. ولا اعتقد ان النجف خلت من هؤلاء الرجال. وكان يكفي ان يدخل خمسة رجال مسلحين بالكلاشنيكوفات ليصدوا عنا الهجوم وليوهموا انصار الصدر بان هناك قوة مناصرة للخوئي جاءت لإنقاذه، وكان باستطاعة الخرسان او الخفاجي جمع هؤلاء خلال عشر دقائق لا أكثر. لكن الغرابة، وهو ما لم استطع ولن استطيع تفسيره حتى اليوم، هي اننا وجدنا الخرسان في القاعدة الاميركية، وشخص مثله من اهالي النجف وله علاقات عميقة وواسعة بين اهالي المدينة ما كان يفترض به ان يكون في القاعدة الاميركية بل كان عليه منذ البداية ان يتصرف من تلقاء نفسه ليجاد طريقة أكثر عملية وسرعة وحسما لمساعدة صديق عمره.. الخوئي. لو كان اي شخص قد وقف وسط الشارع ونادى باعلى صوته بان هناك من يريد قتل الخوئي وسط مرقد الامام علي لهب من يساعده على انقاذ حياة الخوئي لا سيما ان مقتدى الصدر وقتذاك لم يكن قد كرس اسمه كقائد مجموعة من الغوغائيين، ولا كان يحظى بمنزلة بين اهالي النجف الاصليين، بل انه لم يكن محبوبا بينهم.

اما الخفاجي الذي شكل الصدمة الثانية بالنسبة لي وهو الذي كان يردد طوال الرحلة بانه جاء ليفتدي الخوئي بحياته، وانه الحارس الامين عليه،

بل انه لن يثق بأي شخص لحماية الخوئي سوى شخصه، فلم يكن لوجوده في بيت شقيق الخوئي الراحل محمد تقي أي معنى أو تفسير على الاطلاق.

فاذا كان وجود الخرسان في القاعدة الاميركية لغرض طلب النجدة، وأنا اعرف ان القوات الاميركية لا تتحرك إلا بأوامر عليا ووفق مخططات دقيقة وخرائط موثوقة، مبرراً، ولو كان ضعيفاً جداً، فما مبرر وجود الخفاجي في بيت محمد تقي طوال ذلك الوقت الحرج للغاية؟ هل كان يحاول طلب المساعدة من أحد مثلاً؟ أم أن ذكائه العسكري، وهو الذي يحمل رتبة عقيد في الجيش العراقي، قد غدر به؟ أم ان شجاعته قد تصرفت بطريقة مغايرة؟

بعد الحادث هناك من نقل لي، وأقول نقل لي من غير أن أتأكد من المعلومة، التي نقلت كذلك لابن شقيق الخوئي جواد محمد تقي الخوئي، على لسان أحد النجفيين الذي ذهب مع مجموعة من المسلحين إلى الخفاجي في بيت محمد تقي وطلبوا منه التوجه الى الحضرة لإنقاذ الخوئي لكنه (الخفاجي) اخبرهم بأن الخوئي بخير وقد اتصل به و«هو في طريقه الى هنا». لا اعرف شخصياً مدى صحة هذه الرواية بالضبط، ولماذا تصرف الخفاجي بتلك الطريقة.. إن صحَّت الرواية. تبقى قضية مسؤولية تفتيش حقائبنا واولها حقيبة الخوئي ونبشها التي تبرأ منها كل من الخفاجي والحارس على بيت محمد تقي. نسخة مفتاح الغرفة كانت مع الخفاجي، رغم ان الحارس كان بمقدوره الوصول الى حقائبنا ايضاً.

بعد مرور ما يقرب من تسع ساعات على مقتل الخوئي دخلت سيارتان نوع شوفروليه (ستيت) او (ستيشن) معتمتا النوافذ الى القاعدة الاميركية في النجف، اعتقدت ان قائداً عسكرياً قد وصل الى هناك، لكن

احدى السيارتين وقفت في كراج قريب من مقر القيادة ونزل منها شخص ما لم نستطع رؤيته إذ فرضت حالة من السرية التامة. كان الزائر السري مقتدى الصدر.. الذي جاءت به القوات الاميركية للتحقيق معه ثم اعادته الى محل اقامته، لكن السيارتين التابعتين للقوات الاميركية لم تكونا من ضمن سيارات القاعدة بل كانتا عائدتين لقوة أميركية أخرى ربما هي التي كانت تحتضن مقتدى الصدر ودافعت عنه لاطلاق سراحه تلك الليلة بالرغم من ان ديفيد وقيادة القاعدة الاميركية كانوا قد تأكدوا تماما ان من قتل الخوئي هو مقتدى وأنصاره. روى لي حازم الشعلان، بعد ان التقينا في بغداد بعد عام من حادث مقتل الخوئي وكان وزيرا للدفاع وقتذاك، ما هو أكثر غرابة من ذلك. كان الشعلان احد افراد مجموعتنا، ودخلنا معا الى العراق عن طريق قاعدة الناصرية، ثم انتقلنا الى معمل اسمنت الكوفة قرب النجف حيث كان مقر القاعدة الاميركية.

فجر اليوم التالي من وصولنا الى معمل اسمنت الكوفة حيث خصصوا لنا غرفة مهندس المكائن الثقيلة في الورشة للمبيت فيها، سافر الشعلان مع مجموعة اميركية كانت متوجهة الى الديوانية، كانت مهمة المجموعة هي إيصال الشعلان الى مدينته خلال رحلتها، أي لم تكن ذاهبة الى هناك من اجل الشعلان، كما ان لا علاقة لها بمشروعنا او بالجهة التي اقلتنا الى العراق.

كان الشعلان متحمسا لإنجاح مشروع الخوئي بإخلاص، وهو شيخ عشيرة ورجل أمين ومحل ثقة الخوئي الذي كان فخورا به كونه أول من حقق اهداف الرحلة في مدينة الديوانية التي صار محافظا لها ومن ثم وزيرا للدفاع زمن الحكومة المؤقتة التي ترأسها الدكتور اياد علاوي.

لقد تأثر الشعلان وحزن جدا لما جرى للخوئي وحتى اليوم تربطنا علاقة حميمة لاننا كنا رفاق هذه الرحلة، كما ان آثار الحزن ما تزال محفورة في نفسه.

في مكتبه بوزارة الدفاع ذكر لي إنه ألح علينا، الخوئي وانا، للتوجه الى الديوانية صباح يوم العاشر من نيسان، يوم مقتل الخوئي، كونه كان يتوفر على معلومات غير دقيقة او واضحة عن ان شيئا ما سيحدث للخوئي في النجف.

قال: «عندما غادرتكم ذلك الفجر وتركت معمل اسمنت الكوفة مع مجموعة من القوات الخاصة الاميركية، وكان ضمنها الشخص العراقي (ع. م) الذي تهجّم على الخوئي ومشروعه واستغرب وجوده، مؤكدا انهم مع مقتدى الصدر ولا مكان للخوئي في النجف وسوف يلقتونه درسا قاسيا... لقد اقلقني ذلك كثيرا وعندما حاولت الاتصال بكم صادروا هاتفي الثريا الذي تم تشفيره بطريقة تمكنهم الاصغاء الى مكالماتي، حتى وصلت الى الديوانية التي حدثتكم منها بضرورة المجيء الى هناك لاتحدث معكم مباشرة فقد كنت على يقين ان هاتفي الثريا مراقب.»

المعلومات التي تم الكشف عنها هي ان القوات الخاصة الاميركية كانت قد اتصلت بمقتدى الصدر قبل دخولها الى مدينة النجف. كانت هذه القوات عند صحراء النجف عندما اقترح عليها (ع. م) وهو دليمي شيوعي الاتصال بمقتدى للسيطرة على الشيعة وعلى المدينة.

كان مقتدى وقتذاك رقماً لا معنى له في المعادلة الشيعية او الوطنية ولا حتى الدينية، فقد جمع حوله متطوعي «فدائيي صدام» وبعض اللصوص والخارجين على القانون وبعضاً من المجرمين العاديين من نزلاء السجون لارتكابهم جرائم قتل وسرقة وسلب وسطو مسلح واغتصاب الذين اطلق صدام حسين سراهم قبل سقوط نظامه بشهرين، ولم يعرف

عنه (مقتدى) انه كان زعيم جماعة فيها شخص واحد يمكن قبوله اجتماعيا او دينيا.

وكان مقتدى يتهياً مثل غيره لـ«حوسمة» النجف وبالفعل هذا ما فعله مع الغوغاء من اتباعه حيث سرقوا المصارف ودوائر الدولة وسياراتها وسيطروا على اسلحة معسكر النجف. لهذا عندما طلب منه التعاون مع القوة الخاصة الاميركية اعتبر ذلك تكريما له كون ذلك سيمنحه المزيد من الشرعية للقيام بأعمال النهب والقتل.

وصل مقتدى مع بعض مساعديه الى صحراء النجف، لم يكن يرتدي الزي الديني، بل ارتدى سروال جينز أزرق وقميصا عاديا وصافح القائد المحلي باعتباره قائداً شيعياً. كان نظام صدام ما يزال يسيطر على النجف أمنياً في الأقل، تم تسليم مقتدى 13 جهاز هاتف ثريا ليقوم بالتجسس على اوضاع النجف لصالح القوات الخاصة الاميركية، كما تم تسليمه اكثر من 50 الف دولار كوجبة أولى اسعدت صدر الزعيم الشاب ومافيا القتل والسرقة.

وزع مقتدى هواتف الثريا على المقربين منه مع بعض الدولارات للتجسس على الاجهزة الامنية والقوات العراقية، وكان احد المخبرين الامنيين التابع لنظام صدام قد أخبر مسؤوليه عن ثلاثة من اتباع مقتدى لحوزتهم اجهزة ثريا وتم القبض عليهم ومصادرة الاجهزة وإعدامهم، ما دفع مقتدى الى الاختفاء مع معاونيه وعدم الظهور إلا مع سيطرة القوات الاميركية على النجف ومساعدته للقيادي البعثي مزبان خضر هادي عضو القيادة القومية للبعث العراقي، الذي كان مكلفا قيادة الحزب في النجف، حيث كان هذا يتخذ من حضرة الامام علي ملجأً له ولـ«فدائيي صدام» حتى يوم الخامس من نيسان، وعندما علم بان القوات الاميركية اصبحت في المدينة تفاوض مع مقتدى ومنحه الاموال والاسلحة انضم

«فدائيو صدام» مع مقتدى ضمن البيعة وتمت مساعدة مزبان للهروب من المدينة ليلاً.

وجد مقتدى في (ع. م) خير من يدعمه في تنفيذ جريمة قتل الخوئي، ويؤكد شهود العيان على جريمة قتل الخوئي ان شخصا كان يرتدي ملابس عسكرية اميركية مرقطة تعود للقوات الخاصة الاميركية ويخفي وجهه بكوفية (شماغ) احمر كان يقف عند رأس جثة الخوئي وهو من اطلق الرصاص على الجثة القتيلة، ثم أزاح لثامه وقال للآخرين «هذا يكفي»، كان ذاك هو (ع. م) ولا أحد غيره، وثمة شخص ايراني كان يتظاهر ببيع الحمص او الفول (اللبلي والباقلاء) قد اخرج من عربته خنجرا مزق به ظهر الخوئي ثم اختفى عن الوجود. مقتدى الصدر قاد كل هؤلاء لتنفيذ جريمته ضد الخوئي.

الملحق الوثائقي الذي يتضمنه هذا الكتاب يؤكد، بما لا يقبل الشك، ضلوع مقتدى الصدر، بالتخطيط والتنفيذ، في جريمة قتل عبد المجيد الخوئي. وقرار قاضي محكمة النجف رائد جوشي بالقبض على مقتدى خير دليل، لذا أرجو قراءة الملحق بتمعن.

صحيفة"الشرق الاوسط" الاثنين 11 صفر 1424 هـ 14 ابريل 2003

علماء دين شيعة يستنكرون اغتيال **الخوئي** ويحذرون من «فتنة» تدبر لها «عصاة مشبوهة»

لندن: «الشرق الأوسط»

حذر عدد من علماء ورجال الدين العراقيين الشيعة من «الفتنة» التي قالوا ان «عصاة غادرة مشبوهة تربت في اجواء النظام الصدامي» تدبرها اثر اغتيال **عبد المجيد الخوئي** في النجف. وجاء في بيان وقعه كل من محمد بحر العلوم وفاضل الميلاني وحسين الصدر وحسين الشامي ومحمد الموسوي ان «العصاة» التي اغتالت **الخوئي** «رُضعت» من اساليب النظام المخلوع «وان تسترت بأغطية وشعارات بعيدة كل البعد عن القيم الدينية والانسانية والاخلاقية».

واضاف البيان الذي تلقت «الشرق الأوسط» نسخة منه امس «ان اكبر دليل على هوية هذه العصاة واجرامها هو تجردها من كل تلك القيم، وارتكابها الجريمة في حرم الامام علي بن ابي طالب (ع) الأمن المقدس، وتهديدها للمراجع العظام ورجال جامعة النجف العلمية وتعريضها لحياة المواطنين الأمنين لآخطار داهمة».

ودعا البيان «العلماء الاعلام في العالم الاسلامي كافة، وبوجه خاص المراجع العظام والعلماء الاعلام في ايران وسورية ولبنان والخليج الى التيقظ لهذه الفتنة والدعوة الى وقف العنف وقرار السلم الاهلي في العتبات المقدسة وانهاء العراق كافة، واتخاذ المواقف الرادعة مع كل من مارس ويمارس مثل هذه الاعمال الاجرامية».

الخبوي يتحدث عن نفسه

لم يكن عبد المجيد الخوئي يحيا مع شقيقه الاكبر محمد تقي حياة طبيعية في مدينة النجف، فهما نجلا أكبر وأهم مرجع ديني ليس في العراق وحده بل في جميع انحاء المعمورة. وكانت تترتب عليهما مهام اجتماعية وسياسية اضافة الى الدينية بالطبع.

كنت اسمع الكثير عن نشاطات نجلي الخوئي في العراق قبل التعرف على عبد المجيد، وفي لندن سمعت تفاصيل اكثر اهمية مما عرفتھا في العراق خاصة بعد تعرفي شخصيا على عبد المجيد والتعمق في علاقة صداقة من النادر ان تتكرر في حياتي.

لكنني وبحكم مهنتي الصحافية كنت اريد التعرف على المزيد، ليس من الاخرين بل من الخوئي ذاته، كنت اشتغل على إقناعه بأن أضع عن عائلته، ومن خلاله هو، كتابا يعرف القارئ بتفاصيل حياة أسرة المرجع ابو القاسم الخوئي.

في شتاء عام 2001 فاتحت الخوئي بفكرة تسجيل وقائع من حياته صوتيا، أي اسجل صوتيا بعضا من ذكرياته.. نظر الي مستغربا وقال: «جوانب من حياتي انا ؟ لماذا» اجبت: «ربما اضعها يوما ما في كتاب عنك» قال: «كتاب عني انا، من اكون حتى تضع عني كتابا؟» قلت: «ليس الآن، ربما بعد عشر سنوات، من يدري، المهم ان نجلس ونتكلم عن كل ما يخطر على بالك.»

كان من الصعب إقناعه بالفكرة، فالمعروف عن الخوئي تواضعه الجم من غير ان يستصغر نفسه، وغالبا ما كان يردد قائلا «انا أمير بين الأمراء، وأفقر شخص بين الفقراء»، كان يشغل المكان الذي هو فيه من غير تصنع او تظاهر او تمثيل، يضاف الى ذلك انه كان من الصعب إقناعه بفكرة لا يقتنع بها هو اولا، والذين كانوا حوله يعرفون هذه الحقيقة، فهو يستمع للآخرين بكل دقة، ويناقشهم أفكارهم ومقترحاتهم، لكنه لم يكن

يرد مباشرة عليهم، فيخيل للآخر ان الخوئي نسي هذه الفكرة او تلك، لكنه كان يفاجئ الاخر بموافقته او رفضه للفكرة بعد ايام، وبعد ان يكون قد درسها بهدوء من كل جوانبها، أما ان تُفرض عليه فكرة او مقترح، مهما كان ذلك المقترح او مصدره، فكان ذلك امرا في غاية الصعوبة إن لم اقل مستحيلا، وبالتالي فلم يكن ينفذ إلا الذي يقتنع ويتمسك به من الافكار والمقترحات.

لكن الفكرة، ولا ادري لماذا، ألحت علي، ربما بسبب الهاجس الصحفي الذي اتمتع به بحكم مهنتي، او لأن الايام كانت تخبئ له ولي ولنا مفاجآت غير السارة والتي اعلنتها برحيله المبكر. المهم انني كررت عليه طلبي بتسجيل ابرز المحطات التي مر بها في حياته وحاصرته بهذه الفكرة.

لقد انطلقت من ان عبد المجيد الخوئي لم يكن مجرد ابن مرجع اعلى، وزعيم للطائفة الشيعية وحسب، بل ما كنت اسمعه من الاخرين عن نشاطاته مع شقيقه الراحل محمد تقي، وبشكل فاعل في كثير من الامور الاجتماعية والدينية والسياسية، حتى صار اهم قطبين في مدينة النجف في فترة عصيبة للغاية ألا وهي سنوات الحرب العراقية الايرانية، فقد عرض حياته للمخاطر وهو يدافع عن الشيعة في محاولة لإنقاذ هذا الشخص من الاعدام او تسفير ذلك الطالب الى ايران بحجة عدم عراقيته، وهي تهمة كانت تطلق جزافا على غير المرغوب فيهم من طلبة الحوزة العلمية في النجف وسواهم، وهذا ما توضحه التسجيلات الصوتية التي جرت بيننا فيما بعد.

عندما لم يقتنع الخوئي بمقترحي بحثت عن ثغرة تمكيني من النفاذ اليه لأخرجه واضعه امام الخطوة الاولى لتنفيذ الفكرة، وبدأت بحجة تسجيل حوار صحفي طويل، ثم طلبت منه ان يستقبلني في بيته في شمال لندن

لأشرب الشاي معه، متأكدا من انه لن يرفض مثل ذلك الطلب، وافق الرجل وهو يدري بداخله انني سأنفذ فكرتي لا محالة.

كنت قد اجريت حوارات صحفية مطولة مع الخوئي، وكانت غالبيتها تتضمن افكارا جريئة وغير متوقعة من رجل دين في مثل موقعه، وكان يقول لي، وبسبب هذه الافكار «هذا الحوار لن تجد له جريدة لتشره» لكن صحيفة «الشرق الاوسط» اللندنية كانت تنشر تلك الحوارات بأكملها من غير اي تعديل او حذف، مؤكدة مصداقيتها المعهودة. وهكذا ابتدأنا، كنا نجلس لاكثر من ساعتين نتحدث، وفي بعض الليالي وعندما كان الحديث يأخذنا وننسى تناول وجبة العشاء ثم نشعر فيما بعد بالجوع، كان يدخل الى المطبخ ليهيئ لنا وجبة عشاء من دون ان يزعج زوجته لإعدادها.

كان الخوئي كثير السفر لمتابعة مهامه كأمين عام لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية من جهة، ولعلاقاته الكثيرة التي تربطه بالمفكرين ورؤساء المؤسسات الفكرية ومراكز الدراسات والبحوث والمنظمات غير الحكومية والشخصيات المسؤولة في مختلف ارجاء العالم، من غير ان يحدد هذه العلاقات لاسباب دينية او طائفية او قومية، ولحضور الاجتماعات والندوات والمؤتمرات التي كانت تعقد هنا وهناك من ارجاء المعمورة، وكان يسخر كل علاقاته ونشاطاته لخدمة قضايا العراقيين من غير ان يتدخل بالموضوع السياسي.

لقد كان الخوئي سياسيا بارعا، من دون ان ينتمي او يؤسس حزبا سياسيا، وعندما كان البعض من المقربين منه يلحون عليه لتأسيس تنظيم سياسي لخدمة العراقيين كان يرد قائلا «السياسة ليس لها مبادئ، واذا خضت في غمارها فعلي ان اتخلى عن الكثير من مبادئ، وعلي ان اكذب، ولماذا اضع نفسي في مثل هذا الموقع الذي انا لست

بحاجة له، استطيع ان اخدم شعبي من خلال المؤسسة، ومن خلال علاقاتنا مع الاخرين وان احافظ على مبادئني في ذات الوقت.»
كان معلما من طراز خاص، يعلم ويوجه الاخرين من غير ان يشعرهم بدوره التعليمي، وكان مثقفا من دون ان يدعي اي دور في الساحة الثقافية العربية، وكان مبدعا في كتابته للشعر الذي لم ينشر منه لاسباب اجهلها حتى اليوم، والاكثر من ذلك كان إعلاميا من طراز متطور.

وبالرغم من الظهور الواسع الذي كان يتمتع به في وسائل الاعلام العربية والغربية، الا انه كان يعتذر عن عدم اجراء العديد من الحوارات التلفزيونية والصحفية كونها «ليست في وقتها، ولا تخدم الآن اية قضية، فليس من المهم ان اظهر في وسائل الإعلام وحسب بل يجب ان يكون هناك ما اتحدث به.»

كنا نتوقف عن التسجيل أياما وأسابيع، ثم نعاوده، ثم اخذته المشاغل، ولم نتواصل في جلساتنا على امل ان يتفرغ لاستكمالها لاحقا، وحرمتنا مشاغله الكثيرة والمتشعبة عن استكمال التسجيلات، وكنت كلما سألته «متى سنواصل تسجيلاتنا؟» يطلق ابتسامته المعهودة التي تميزه، ويقول: «ان شاء الله خير، نحن موجودون وسوف نستكملها قريبا.»
حفظت الاشرطة معي وانا آمل ان تتاح لنا فرصة استكمالها، لكنني كنت اعرف ان ما معي يشكل حصيلة جيدة، والغريب انه سألني ونحن في النجف، في نيسان عام 2003، عن تلك الاشرطة وفوجئ عندما اخبرته انها ما تزال معي وطلبت منه ان نستغل فرصة وجودنا في النجف ونستكمل الحديث، صمت وقال: «ان شاء الله» ثم أضاف: «لقد لزممتني طويلا والآن انت تعرف الكثير عني، فهل تحتاج الى صوتي لتوثق مراحل حياتي؟ ان اهم مرحلة هي تلك التي نخوضها اليوم، نحن

في خضم تاريخ جديد للعراق والعراقيين، ومن الاجدر توثيق هذه المرحلة.»

وعندما استرجع اليوم بعض التفاصيل في علاقتنا، التي امتدت على مدى ما يقرب من ست سنوات، ادرك تماما لماذا كان الخوئي يزجني في مواضع كنت استغرب ان أحاط علما بها، من قبيل الحديث عن علاقته بهذه الشخصية او تلك، ام اصراره على ان ارافقه لزيارة صديق له، او وضع بعض الرسائل والاوراق امامي لأقراها. وخلال وجودنا في النجف كان ياخذني الى البيوت التي يزورها لأسمع الاحاديث السرية التي يفترض ان يتداولها هو ومن يلتقيهم فقط. ادرك اليوم انه كان يحتاجني كشاهد عيان، شاهد حرص على ملازمته حتى لحظة رحيله بطريقة مأساوية، وكان متأكدا، انطلاقا من تجاربه وممارساته الحياتية وحده الذي كان غالبا يأتي واقعيا، من انني لن اكون شاهد زور، واتمنى ان لا اكون قد نسيت بعض التفاصيل المهمة، ليكون الخوئي مطمئنا من انني لم ولن اخيب ظنه.

وهنا ابرز المحطات التي تحدثنا، الخوئي وانا، عنها.

حياة السيد عبد المجيد الخوئي

* دعنا نتحدث عن البدايات الأولى لعبد المجيد الخوئي؟

- البدايات الاوّل طبعا تستهل بمدينة النجف، وفي محلة العمارة، وهي محلة مشهورة بالنجف سميت على اسم مدينة العمارة باعتبار ان معظم ساكنيها يتحدرون من العمارة، بينما يقول البعض انها سميت بذلك حين بنيت فيها اول عمارة، وتوسعت المدينة شيئا فشيئا، وكانت المدينة القديمة محاطة بسور عظيم يقال انه كان من اهم الحصون التي حمت الاهالي خلال حربهم ضد الانكليز عام 1919، وخلال الحصار الشهير الذي فرض على المدينة عندما اغلق اهل النجف بوابة السور ومنعوا الانكليز من دخولها، السور تهدم الان بفعل التوسع العمراني وبفعل إلغاء تاريخ المدينة. وكنت قد شهدت اجزاء من هذا السور في اماكن مختلفة من المدينة التي تنقسم الى اربعة اقسام هي: العمارة والمشراق والبراق والحويش، هذه هي المدينة القديمة.

* ما هو تاريخ ميلادك بالضبط؟

- ولدت في محلة العمارة بمدينة النجف بتاريخ 16/8/1962

* وما ظروف ولادتك ونشأتك؟

- ولدت في بيت صغير وسط سوق العمارة، ثم انتقلنا الى بيت آخر ايضا يقع في محلة العمارة، انا لا اذكر البيت الذي ولدت فيه لكنني اذكر البيت الثاني في منطقة (راس الاربعة عقود) والعقد يعني زقاق.

وكان تسلسلي في العائلة الرابع، وبين الاولاد الثالث، اتذكر الآن ازقة النجف الترابية المؤتثة بالنفايات التي كنا نلعب فيها.

* ألم تتوفر لكم، كونكم عائلة اكبر مرجع للشيعية في العالم، حياة مترفة؟
- لم تكن هناك اية علامات للترف، بل كنا نحيا في الستينات بمستوى دون الوسط، ووالدي لم يكن ليرضى ان نعيش بمستوى أعلى من بقية رجال الدين او طلبة الحوزة، فرجال الدين كانوا يعيشون حياة متواضعة، واتذكر ان اهلي، في صيف عام 1967، كانوا يرسلونني في وقت الظهيرة الساخنة الى سوق العمارة لاشتري قطعة من الثلج واعد به فأجد ان نصفه قد ذاب بسبب حرارة الجو، بينما كان جارنا وهو رجل دين ويأخذ راتبا من والدي يملك ثلاجة، وكانو يزودوننا احيانا بالثلج في وقت الظهيرة. وكنا نشتري نصف كيلو لحم يقسم لأكثر من وجبة، فكانت والدتي تعلق اللحم بالحبل وتحفظه في السرداب (القبو) ذلك ان بيوت النجف القديمة كانت تحتوي على السرايب التي تتكون من ثلاثة طوابق او اكثر، وفي بعض البيوت هناك سرايب تحتوي على انفاق متصلة ببعضها. كما كنا نحفظ البطيخ (الرقبي) في السرداب ليبرد. وكان عندنا في البيت حب لتبريد وترشيح الماء، وكنا نتناوب نحن الاولاد على ملء (الشربة) المصنوعة من الفخار ووضعها وقت المغرب فوق السطح لتبرد. اما ألعابنا فكانت الطائرات الورقية التي نصنعها بانفسنا، وحيانا كنا نصنع الطائرات ونبيعهها للمحلات (كل ثلاث بعشرة فلوس) بينما يبيعهها صاحب المحل بخمسة فلوس.

* باعتبارك ابن مرجع اعلى للشيعية، ألم تكن مختلفا في لعبك او علاقاتك مع الاخرين؟

- لا، حتى اصدقائي كانوا من ابناء المراجع والعلماء. النجف تتميز بمسألتين، الاولى كونها تضم اكبر مقبرة في الشرق الاوسط (وادي السلام)، وربما هي ثاني مقبرة في العالم بعد مقبرة بكين التي يقال انها الاكبر، وعلى مدى القرون الماضية وحتى اليوم وسيبقى الشيعة في العراق وخارج العراق يدفنون موتاهم في النجف، وحتى ملوك ايران كانوا يوصون بدفنهم في النجف، كما انها تضم ثقافات ولغات متعددة بفضل الحوزة العلمية، ويأتيها الطلبة من جميع انحاء العالم ليدرسوا فيها واحيانا يستقرون هناك، وصارت فيها مدارس مختلفة هندية وايرانية وباكستانية ولبنانية وهكذا، كما انشئت فيها حسينيات تابعة لهذه القوميات، هذه هي بيئة النجف في الستينات. واتذكر انه في عام 1969 دخلت الثلاجة الكهربائية لأول مرة الى بيتنا، وكنا ما نزال اطفالا، كان عمري سبع سنوات، وكان ممنوعا علينا ان نستخدم الثلاجة، واذا احتجنا ماء باردا كان علينا ان نطلب ذلك من الوالدة ، وفي وقت الغروب كنا نصعد للسطح حتى نفرش للنوم لاننا كنا ننام في الصيف فوق السطح.

لكن في بداية السبعينات تغيرت أمور كثيرة، ليس على صعيد العائلة فقط، وانما على صعيد العراق كله، واعني الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وبعد وفاة السيد الحكيم صارت الزعامة الشيعية مطلقة لوالدي، وكانت الحقوق الشرعية تصل من الخليج ومن جميع انحاء العالم، فرواتب الطلبة ازدادت وتحسن وضع الحوزة الاقتصادية بكثير عن فترة الستينات.

* متى ارتدبت العمامة؟

- وضعت العمامة في شهر شباط من عام 1977 وكان عمري خمسة عشر عاما، بعد ان انهيت دراستي المتوسطة وانتقلت للدراسة في الحوزة العلمية، والحوزة مدارس وليست مدرسة، هي بمثابة جامعة مفتوحة، وليس هناك مكان معين تذهب اليه للدراسة، بل الطالب يدرس على يد أي استاذ يريد، بعد الاتفاق معه على المكان والوقت المعين، وهكذا يتم الاتفاق مع اساتذة عدة وحسب المواد التي يريد ان يدرسها الطالب، مثلا اذا اريد ان ادرس الفقه والنحو ومواد اخرى اتفق مع اساتذة متخصصين في هذه المواد، والطالب لا يدفع اية اجور للاستاذ الذي بدوره لا يتقبل هذه الاجور، المرجع هو الذي يدفع للاساتذة ولبعض الطلبة. وفي الثمانينات صار على الطالب الذي يريد ان يتقاضى الراتب من المرجع ان يجتاز الامتحانات لمعرفة مستواه ومدى جديته بالدراسة، ومقدار الراتب يمنح حسب المرحلة الدراسية، فرواتب مرحلة المقدمات الاولى تختلف عن مرحلة الوسط، وكذلك مرحلة السطوح، او بحث الخارج، كما ان الحالة الاجتماعية تحدد مقدار الراتب، وهناك ايضا اكثر من مرجع يمنح الرواتب للطالب، اي ان الطالب بإمكانه الاستفادة من راتب هذا المرجع او ذاك طالما هو مجد في دراسته.

* هل وضعت العمامة مكرها ام كان ذلك اختيارك المحظ ؟

- لا استطيع ان اقول مكرها، لكنني لم اكن مشتاقا لها، على عكس الدرس والحوزة التي اقبلت عليها بشوق حتى اني كنت اقرأ دروس الحوزة قبل ان اضع العمامة، اي منذ كنت في الصف الثالث المتوسط. وكنت من المتفوقين حتى ان اساتذتي بعثوا الى اهلي يطلبون عودتي للمدرسة واكمال دراستي بدلا من الدراسة في الحوزة، والذي شجعني على الدراسة في الحوزة هو شقيقي محمد تقى، رحمه الله، الذي كان

يتولى مسؤولية الاشراف علي كون والدي مشغولا بالمرجعية وبأمور الطائفة وكان يعيش لوحده في بيته بالكوفة ونحن نقيم في النجف ويزورنا يومي الخميس والجمعة حيث تتوقف الدراسة في الحوزة خلال عطلة نهاية الاسبوع.

* ماذا كانت المفردات اليومية لبرنامج الإمام ابو القاسم الخوئي؟
- كان ينشغل طوال اليوم ما بين التدريس ورعاية شؤون الطائفة، ففي الصباح يذهب الى منبر الدرس.. بقي طيلة سبعين عاما على منبر الدرس، ثم يعود ليجلس في الديوانية (البراني) وهو المكان المخصص لاستقبال الناس، حيث يستقبل من لديه استفسار فقهي او سؤال علمي، او مشكلة يريد حلا لها، بعد صلاة الظهر يعود الى بيته في الكوفة ليتناول طعام الغداء ثم ينام (القيلولة) لساعتين، بعدها يستقبل مساعديه للتداول في الامور الفقهية وفتح الرسائل التي كانت تصل من جميع انحاء العالم والتي تضم اسئلة فقهية، يجيب عنها، وهناك من يدون الاجابات لغرض ارسالها الى اصحابها. قبل المغرب يذهب الى المسجد ليصلي صلاة المغرب جماعة، ويعود الى الديوانية (البراني) ليبقى هناك حتى العاشرة والنصف ليلا، ثم يقفل عائدا الى بيته في الكوفة ليتناول العشاء الذي كثيرا ما كان عبارة عن صحن فواكه وخيار وبعدها يقرأ لساعتين او اكثر ثم ينام، هذا هو ملخص برنامجه اليومي.

* هل كانت قراءاتك مقتصرة على مناهج الحوزة؟
- لا ابدأ، انت تعرف ان النجف عبارة عن مكتبة كبيرة، المكتبات التي في البيوت، والمكتبات العامة المتوزعة في المساجد، وكان كل شيء مفتوحا امامي، يعني ان اقرأ ما اريد، اضافة الى الروايات ودواوين الشعر العربية، فقد قرأت في السبعينات روايات ارنيست همنغواي، كما قرأت

نظرية داروين لمعرفة سبب الهجوم عليها، كنا نتلقف كل كتاب جديد يقع بين ايدينا.

* هل كانت هناك سنوات محددة في الدراسة الحوزوية؟
- لا، هذا يعتمد على مدى دراستك واجتهادك واستيعابك، بإمكان الطالب انهاء المرحلة بسنتين او خمس سنوات، ليس المهم العبور الى مرحلة ثانية بقدر ما هو مدى ما استوعبت من العلوم الفقهية والنحوية، وليس من السهولة على الاستاذ ان يمنح الطالب درجة او يصرح بنجاحه ما لم يكن متأكدا من تلميذه لان ذلك سوف ينعكس على سمعة الاستاذ نفسه.

* هل كان مهما ان ترتدي العمامة وانت في الخامسة عشرة من عمرك؟
- العمامة او الزي الديني لهما وضع خاص له احترامه بين الناس تقيدان من تصرفات من يرتديهما، فمثلا المعم لا يركب دراجة هوائية او يقود ماطور سايكل (الدراجة النارية)، له اسلوبه الخاص في المشي بين الناس وتعامله معهم، هناك مناطق محرمة علينا واولها دور السينما وهي بالتالي رادع لتصرفات الشباب.

* لكن الرادع كان موجودا في داخلك أصلا كونك ابن الخوئي؟
- ابن الخوئي اذا ارتدى بدلة وذهب الى بغداد فلا احد يعرفه.

* وهل ذهبت الى بغداد ببدة؟
- لا، كنا نذهب الى نهر الفرات في الكوفة مع اصدقائي وزملاء الدراسة في الحوزة، في نهاية الاسبوع، ونشوي سمكة هناك (مسكوف) وهذا كل ما كنا نفعله لان وقتنا كان مسخرا للقراءة والدرس، ودروس الحوزة كانت صعبة للغاية، ومثلما تعرف فان النجف مؤتثة بالمكتبات، وكان خط سييري

محددا بين البيت والحوزة والمكتبات، والجامع في حضرة الامام علي لأداء الصلاة.

* ألم تعش قصة حب مثلا وأنت في مقتبل العمر؟

- باعتباري ابن المرجع الاعلى للشريعة واعمل في مكتب المرجعية، كنت اسمع الكثير من التحذيرات والقصص التي تدور حول محاولات الاجهزة الامنية لتوريطنا بعلاقات نسائية كوسيلة للضغط على والدي وابتزازه وتشويه سمعتنا. كانت تلك القصص والتحذيرات مثل السلاح المشهور في وجهي دائما، وحتى اذا افترضنا ان فتاة في المحلة او الشارع او الباص ابتسمت او كانت هناك محاولة استلطاف، كنت اقمعها منذ البداية، وحدثت محاولات كثيرة من هذا النوع، وعلى العموم فأنا وضعت العمامة عام 1977، وفي عام 1980 صار اهتمامي كله مكرسا للدرس والعمل في مكتب المرجعية لمساعدة والدي وملازمته طوال اليوم، ووقتي كان موزعا بين الدراسة والصلاة والبراني (مكتب الوالد)، ثم بدأت الحرب العراقية الايرانية، وبدأت معها مشاغل من نوع اخر، مثل متابعة طلاب الحوزة واعفائهم من الخدمة العسكرية، وتنظيم الاقامات للطلبة الاجانب، ومتابعة امور المعتقلين من رجال الدين والعلماء وطلاب الحوزة في دوائر الأمن والمخابرات، وتسلم جثث المعدومين منهم، ورعاية شؤون أسرهم، ومتابعة امور المساجد وإعمارها، وهكذا.

* متى تزوجت؟

- عام 1984 وكان عمري 22 عاما.

* وهل تزوجت بطريقة تقليدية؟

- نعم، انا تأخرت في الزواج، وشقيقي الاصغر ابراهيم تزوج قبلي.

* ماذا كانت اسباب التأخير في الزواج؟

- اولا الوضع العام الذي كان سائدا في ظل الحرب، والسبب الثاني هو التقشف المادي الذي كان يمارسه والدي علينا، فقد كان قد خصص مبلغا بسيطا للغاية لزواج كل منا، وهو مبلغ لم يكن ليكفي للارتباط بامرأة وتكوين اسرة. لقد كان والدي يمارس علينا ضغوطا كبيرة في الجانب المادي بينما يساعد الاخرين بمنحهم المبالغ للزواج او لمساعدة العوائل الفقيرة، وكنت انا من اتوسط لدى وكيل الوالد لمساعدة الاخرين في مواضيع الزواج ولكنني لم استطع الحصول لنفسني على منحة زواج مناسبة، وقتذاك فكرت لأول مرة بخلع الزي الديني والعمل في التجارة لأعيل نفسي واتصرف بحريتي.

* لكنك كنت طالبا في الحوزة وكانت هناك رواتب مخصصة لأمثالك؟

- دعني اقص لك كيف تسلمت الراتب الاول من والدي عندما كنت طالبا في الحوزة، طلبت من والدتي (رحمها الله) ان تفتح والدي الذي كان يزورنا كل يوم خميس ليخصص لي راتبا شهريا شأن بقية طلبة الحوزة وليس لكوني ابنه، وفي الصباح طلبني، فبادرني بسؤاله «انت طالب حوزة؟» فاجبت بنعم، فقال لي «اذن يجب ان تعرف كيف يأخذ طلاب الحوزة رواتبهم» وكان يعني ان هناك نظاما خاصا لتسليم الطلبة رواتبهم وان هناك شخصا مسؤولا عن ذلك وان الرواتب لا تطلب منه مباشرة، حتى وان كنت ابنه.

حزنت لأسلوب حديثه معي بتلك الطريقة وكنت اعتقد بانه سيفرح كوني طالبا في الحوزة وسيخصص لي راتبا شهريا، وندمت لانني فاتحته بموضوع الراتب. اتذكر انه كان عندنا امتحان ذلك اليوم، ففي كل يوم خميس يكون عندنا امتحان، وشعرت بانني لن احصل على نتيجة جيدة

بسبب ما ذكرته من حديث والدي معي، وقلت لنفسي ما لم اشارك في الامتحان فسوف يسألني والدي عن السبب كونه سيعرف من خلال استاذي، واذا شاركت وحصلت على نتيجة لا ترضيه فسيكون عتبه اكبر، ولكنني في النهاية قررت الذهاب الى الامتحان.

اخذت معي كتابين، الاول في النحو (الفية ابن مالك) والثاني في الفقه (شرائع الاسلام)، وعندما دخلت على الاستاذ سألني عن سبب وجودي فقلت له جئت لامتحان في كتاب الالفية، فسألني عن إعراب (اي) في اللغة العربية، كما طلب مني إعراب بعض ابيات الشعر العربي، كانت الاسئلة صعبة قياسا للمستوى الذي كنت فيه لكنني اجبت عن الاسئلة في ورقتين، ثم فتح كتاب (شرائع الاسلام) وراح يسألني شفاهيا بينما كنت اجيب كتابة من غير ان ادون الاجابات في مسودة، كان همي ان اتفوق في اجاباتي لأبرهن لاستاذي بانني جدير بالنجاح كوني طالب حوزة وليس نجل الخوئي، كما كنت اسعى لإرضاء والدي وإقناعه بانني طالب حوزة مجد، بالرغم من انه كان من العسير جدا ارضاءه في مجال الدراسة كونه استادا صعبا للغاية.

لم يخبرني الاستاذ بنتيجة الامتحان، لكنني عرفتھا من خلال ابتسامة والدي عندما قابلته عصرا، عندذاك وافق على منحي الراتب المخصص لطالب الحوزة وكان عشرة دنانير شهريا للطالب الاعزب، ولان ذلك المبلغ لم يكن ليكفي اي طالب فقد كان بقية الطلبة يتقاضون عدة رواتب من مراجع وعلماء آخرين، بينما لم اكن لاجروا واطلب راتبا آخر من اي مرجع كوني ابن الخوئي فكيف اطلب راتبا من سواه.

بعد فترة صارحت والدتي بأن الراتب (العشرة دنانير) لا يكفيني وان بقية الطلبة يتقاضون رواتب عدة من هنا وهناك، ثم انني شاب واحتاج للذهاب الى كربلاء او الخروج مع اصدقائي، ولانني نجل الخوئي فعلي

ان أدفع نيابة عنهم اجرة الباص او الطعام، وما شابه ذلك، في اليوم التالي سألني والدي قائلاً: «ما مشكلتك، لماذا لا تكفيك العشرة دنانير؟» فشرحت له الاسباب فقال: «انت طالب، حالك حال البقية، ويجب ان تتعامل مع هذه الحقيقة، انت لست مجبراً بان تدفع عن الاخرين طعامهم او اجرة سياراتهم، لا تتعامل معهم باعتبارك شيخاً وهم طلبة» فقلت له ان السبب ليس انا وانما انت، لو كنت ابن اي شخص عادي لهان الأمر ولكني ابن الخوئي والناس تتعامل معي وفق هذا المنظر، ثم اني لا اتقاضى رواتب من المراجع الاخرى مثلما يفعل بقية الطلبة، قال: «بقية الطلبة ياخذون ثلاثين دينارا لانهم يتحملون مصاريف السكن والاكل وشراء الملابس والكتب، بينما انت لا تتحمل ايا من هذه النفقات، تأخذ عشرة دنانير كمصرف جيب فقط» ورفض زيادة راتبي.

* وهل كان هذا سبباً قوياً لتتأخر في زواجك؟

- هذه الامور، واسباب اخرى، وقد اقدمت عائلتي على مفاتحة هذه العائلة او تلك، وكانت الخطوبة إما تتأجل لأسباب قسرية، او ان عائلة الفتاة يقولون لقد اجرينا خيرة بواسطة القرآن الكريم ووجدنا ان الخطوبة غير مناسبة لابنتنا، او انهم لا يريدون تزويج ابنتهم ويدعون ذلك، الله اعلم. وواحدة من الحالات انهم اقدموا على خطوبة بنت احد رجال الدين المسجونين لدى الاجهزة الامنية، عائلتها حاولوا بطريقة واخرى ان يستغلوا هذه المناسبة لإجبارنا للعمل على اطلاق سراح والدهم، وكان هذا شرطهم للموافقة، وحتى شرعاً قالوا اننا يجب ان نستشير والدنا، وقالوا «طالما ان والدنا في السجن فربما يتم تسفيرنا الى ايران وهذه هي ابنتنا الوحيدة، واذا قررنا ان نترك العراق فيجب ان تخرج ابنتنا وزوجها معنا». كانت عائلتي معجبة بالبنت، وفاتحوني

بشروط عائلتها، فرفضت، وعندما تحدث معي شقيقي الاكبر محمد تقي بأن البنت من عائلة جيدة وتصلح لان تكون زوجة ممتازة أخبرته بأن زواجا يبتدىء بشروط تعجيزية كهذه لا اريده، حتى انه قال لا عليك بالشروط، فقلت هل تريدني ان اترك والدي واهلي والنجم ودراستي بسبب شرط وضع من اجل زواجي؟ فاجاب قائلاً: اذا تزوجتها فستكون امرأتك وحينذاك لكما ان تقررا السفر او لا، قلت: لا، اذا تزوجت فهذا يعني اني وافقت على شرطهم ولا استطيع ان اخالف الشرط. ومرة اخرى خطب لي اهلي فتاة وتمت الموافقات، وقد عرف الناس واصدقائي بانني خطبت الفتاة واصبح الموضوع في حكم المنتهي، بعد ايام وكنت في مجلس بدار والدي، التقيت السيد مرتضى الذي كان بمثابة الساعد الايمن لوالدي، انتحى بي جانبا وسألني: هل تحب وتقدر والدك؟ اجبت: وهل هناك شك في ذلك، نعم أكنُّ له الحب والتقدير المطلقين، فقال: اذا كنت كذلك فوالدك يقول انسَ موضوع خطبة هذه الفتاة، بينما كان والدي يجلس في الغرفة الاخرى، فاجبته على الفور: اذا كانت هذه رغبة والدي فاخبره بانني نسيت الموضوع، فاستغرب وقال: بهذه السهولة؟ قلت له نعم بهذه السهولة، فانا لم اكن حتى قد رأيت الفتاة ولم ارتبط معها بقصة حب، بل لم اكن قد تحدثت معها بكلمة عبر الهاتف، فقد وافقت عليها حسب وصف الاهل، امي واخواتي، فقال لي اذن اذهب واخبر والدك واجعله سعيدا شرط ان لا تسال عن السبب، ذهبت الى والدي وقبلت يده، وقلت له لماذا تبعث لي بشخص يخبرني عن رغبتك، لماذا لم تخبرني انت مباشرة، فقال خشيت ان تخرج وتوافق على ما اريد خجلا مني، ولم أسال حتى اليوم لماذا، ولم اعرف السبب، والغريب ان ذات الفتاة خطبها والدي لاحد اقاربنا بعد فترة قصيرة.

* يمكن لأنه عرف مثلا ان قريبك كان يريدھا، او هي ترغب فيه؟
- كلا على الاطلاق العملية تمت بعفوية.

* وكيف تم زواجك بالتالي؟

- في مشروع خطوبة زوجتي الحالية (ام حيدر) حدث شيء غير متوقع،
والد زوجتي السيد البهشتي من المقربين جدا لوالدي وهو من الملازمين له
باستمرار، كما يتمتع بمنزلة دينية عالية، وكان يلتقيه يوميا، فعندما
طرحت والدي فكرة خطوبة ابنته لي فرح والدي واسعد للفكرة، لكنه
وضع شرطه بأن لا يتدخل هو بخطبة هذه الفتاة، استغربنا من هذا
الموضوع، كون والدها صديقه، ويلتقيه يوميا، ومن المقربين اليه، فلماذا لا
يفاتحه؟ قال لانه من المقربين الي واعرف انه لا يرد لي اي طلب فانا لا
اريد ان اخرجہ، فربما سيوافق بسبب اني طلبت منه يد ابنته لابني..
فليقم بالخطبة شخص آخر. وقام الشيخ الفياض، وهو عالم دين معروف
وصديق والدي ووالد الفتاة، بمفاتحة والدها الذي وافق على الفور،
والحمد لله تم الزواج، وأحمد الله كثيرا ان مشاريع خطوبتي السابقة لم
تنجح لانني مهما تصورت بانني سأكون سعيدا مع اي منهن فمقدار
سعادتي ما كان سيكون بالحالة التي انا فيها الان مع (ام حيدر)، وهذا
ما جعلني أؤمن تماما بموضوع القسمة والنصيب.

* إذن انت تؤمن بالقسمة والنصيب؟

- دعني أفصح لك شيئا مهما، هناك ثلاثة امور اتركها لله تعالى، الزواج،
والرزق، والعمر، هذه الامور الله وحده هو الذي يقررها، نعم علينا ان
نسعى اليها، ولكنك مهما اخترت من النساء فإذا كان الله تعالى قد كتب
لك انك ستتزوج هذه وليس تلك فسيكون ذلك، وما يقرره الله لك من رزق
سيكون من نصيبك، اما مسألة العمر فمهما عملت فلن تطيل عمرك او

تقصره لحظة واحدة، وكل شخص يموت باليوم والوقت والمكان الذي قرره الله تعالى، أقول ذلك عن ايمان كامل، واسخلاصا لتجارب كثيرة مرت بي، مرة انت سالتني لماذا لا اضع من يحميني من بعض الحاقدين، واقول ان الأعمار بيد الله لا الحماية تنفع ولا غيرها.

* هل فكرت مرة بترك الزي الديني؟

- نعم، فبحكم وجودي قرب المرجع الاعلى للشيعة (والدي) كنت التقى يوميا بنماذج مختلفة من الناس، معتمدين، علماء دين، فيهم من هو عالم دين بالفعل، ومن لا علاقة له بالعلم، شخصيات مقربة من والدي، واخرى هامشية، وبحكم سني وقتذاك، شاب في داخلي روح متمردة احاول دائما مراقبة الاخرين ورصد أخطائهم وزلاتهم، وكنت اتساءل مع نفسي: اذا كان هذا رجل دين فلماذا يتصرف هكذا، او ذاك اذا كان شخصا محترما فلماذا يتصرف بطريقة غير صحيحة. وذات يوم فاتحت السيد (والدي) وقلت له اريد ان افصح لك عما في داخلي.. اريد ان اخلع العمامة، لكن هناك نقطة تقف حائلا دون ذلك، هل هذه الخطوة ستؤثر عليك ام لا، باعتبارك المرجع الاعلى للشيعة؟ وراح يسأل: لماذا؟ وكيف؟ وجملة من الاسئلة التي اراد ان يستفسر من خلالها عن الاسباب التي دعنتني لاتخاذ هذه الخطوة، وبعد نقاش لم يستغرق طويلا اقنعني بالعدول عن فكرتي، وكل ما استخلصته من النقاش قوله: اذا كنت مؤمنا بالسبب الذي وضعت العمامة من أجله، وبالدين الاسلامي، وتريد ان تدافع عن مبادئك، فعليك ان تقاوم لا ان تياس من تصرفات الاخرين، بل عليك ان تعمل لإصلاحهم، واذا عكس ذلك فافعل ما تريد وهذا الامر يعود اليك.

* دعنا ننتقل الى موضوع آخر يهم الحوزة العلمية، هل تخضع الحوزة العلمية بطريقة واخرى للسلطة الحاكمة؟

- الحوزة لا تخضع للسلطة بشكل قطعي، ولكن عبر تاريخها الطويل هناك علاقات وارتباطات بشكل معين بين الحوزة والسلطة الحاكمة باعتبار الحوزة العلمية، سواء كانت في العراق او ايران، تبقى جزءا من كيان البلد وبالتالي فان السلطة تخشى من هذه المؤسسة وتهديدها وفي ذات الوقت تحرص السلطة على نيل تأييد الحوزة.. عملية شائكة ومتداخلة، وتخضع هذه العلاقة لطبيعة الظروف المرحلية، والاجواء السياسية، وهناك، وبحكم قلة معرفته بتاريخ الحوزة، من يخلط بين الحوزتين في العراق وايران، لكن في الحقيقة ليست هناك اية وجهة تشابه او مقارنة بين الحوزتين، ايران تاريخيا كما هو معروف كانت قبل اثني عشر قرنا من التاريخ بلدا سنيا تماما إلا القلة القليلة الذين كانوا من الشيعة، وقبل اربعة قرون وفي العهد الصفوي انقلبت قناعة الملك لان تكون ايران دولة شيعية، مثلما كانت مصر شيعية وصارت بسبب صلاح الدين الايوبي دولة سنية.

تاريخ الحوزة في النجف يعود الى 448 للهجرة عندما حدثت الفتنة الكبيرة قبل الف عام بين الكرخ والرصافة، بين الشيعة والسنة، وكان شيخ الطائفة الطوسي، الذي هجموا على بيته وحرقوا مكتبته، هاجر من بغداد الى النجف ليؤسس هناك الحوزة العلمية وهي عمرها الف عام وكانت تعتبر بمثابة الجامع الازهر الشريف، بينما حوزة قم الموجودة اليوم تأسست في العشرينات بسبب هجرة الشيخ عبد الكريم الحائري الذي كان قد هاجر من مدينته آراك الى قم واخذ معه قسما من طلبته الذين تحولوا الى مراجع هناك، والعلاقة بينهم وبين السلطة كانت تتذبذب بين التوتر والرضا.

* هل كنت تتعرض لضغوط مباشرة من الاجهزة الامنية كونك نجل الخوئي؟

- الضغوط التي كنا نتعرض لها، شقيقي السيد محمد تقي وانا كبيرة، وقد اختلفت اشكال تلك الضغوط ما بين التهديد والوعيد، مرات بتقديم المغريات، او محاولة توريطنا بعلاقات نسائية، او ان يحاول ضبط الامن في النجف بناء علاقات مباشرة معنا لاستدراجنا الى مواقف يتسللون من خلالها الى السيد الخوئي الذي كانت السلطات العراقية تطالبه باصدار بعض الفتاوى او الحصول على تأييده لبعض تصرفات الاجهزة الحاكمة، لكن الخوئي كان يواجه تلك الطلبات بالرفض كونه رجل دين وليس سياسيا.

* ألم يحدث أن السلطات الامنية ضغطت مباشرة على السيد الخوئي؟
- حدث ذلك ولمرات عدة، اذكر منها حادثة حصلت في عام 1982 عندما طلب مدير امن النجف منا ان يترك السيد الخوئي مجلسه في البراني في وقت مبكر من الليل لأن هناك وفدا من بغداد كان سيقوم بزيارته في بيته بالكوفة، وكان ان امتدت مشاغل السيد حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وتوجهنا الى منزله في الكوفة، وقد فوجئنا بحجم الاحتياطات الامنية التي كانت تنتشر داخل المدينة وعلى طول الطريق بين النجف وبيت الوالد في الكوفة لدرجة اننا تصورنا ان الوفد القادم هو صدام حسين، وعندما وصلنا الى البيت وجدنا ان افراد الحماية قد تسلقوا سور البيت وتوزعوا في الحديقة.. بعد قليل رن جرس الباب ليدخل فاضل البراك، مدير الامن العام وقتذاك، وكان يرتدي زيا مدنيا يرافقه اللواء سعدون ثامر القيسي مسؤول الشعبة الخامسة في مديرية الامن والمسؤول عن الحوزة العلمية والنشاطات في النجف، ومدير امن

النجف (ابو مخلص)، قلت له مرحبا: اهلا دكتور، لكنه لم يرد بل دخل مباشرة، ولم يصافحني اي من مرافقيه، فخمّنت ان الحالة صعبة جدا والوضع متأزم للغاية، وبعد ان دخلوا الى صالة الاستقبال للقاء الوالد، كنا شقيقي محمد تقي وانا قد جلسنا الى جانب والدي. وكانوا قد احضروا معهم جهازي فيديو وتلفزيون ليعرضوا علينا اعترافات مصورة على شريط فيديو للسيد الجلاي الذي كان وكيل السيد الخوئي في منطقة القاسم، قبل اعدامه، وكان السيد الجلاي يبدو متعبا وآثار التعذيب واضحة عليه، وقد راح يتحدث عن معلومات كان من الواضح انهم لقنوها اياه واجبروه على ان ينسبها لنفسه، فذكر بانه يقود تنظيما معاديا وذكر اسماء اكثر من ثمانية وعشرين ضابطا في الجيش العراقي على انهم كانوا يدرّبون اعضاء التنظيم في بساتين القاسم، حتى وصل الامر به لان يذكر اسم شقيقي السيد محمد تقي واسمي كناشطين في التنظيم الذي يرتبط مباشرة بايران، وكانت الحرب العراقية الايرانية في اوجها. وبعد أن انتهى عرض الاعترافات قال البراك لوالدي وبلهجة تبدو ودية: شاهدت الاعترافات بنفسك، ولداك متهمان بالتآمر على البلد، وانهما يريدان تشويه سمعتك امام القيادة، فاسمح لنا بان نلقي القبض عليهما.

كان السيد الخوئي صامتا، وكذلك محمد تقي، لكن اللواء سعدون فجر الموقف عندما اشار الي وقال: بصورة خاصة مجيد. عندها شعرت بانني لا بد ان اتحدث، فقلت له: انت يا لواء سعدون من شوّه سمعة القيادة أمام الحوزة والناس، كل يوم تلقي القبض على الابرياء وتتهمهم بالانتماء لتنظيمات وهمية معادية وتنتزع منهم الاعترافات بعد التعذيب ثم تعدمهم، وأبسط مثال السيد الجلاي الذي تبدو عليه آثار التعذيب واضحة، ولو تعرضت انت نفسك للتعذيب لاعترفت بما يملى عليك، كل هذا حتى تحوز

رضا الدكتور فاضل البراك، ولو علم السيد الرئيس بما تفعله بالناس لأمر بإعدامك. كنت اشعر بانني يجب ان اتحدث بقوة ما داموا قرروا إلقاء القبض علينا وبالتالي إعدامنا بتهمة الخيانة. وراح اللواء سعدون يصيح ويعربد ضدي وضد شقيقي حتى امره البراك بالسكوت. عندها بدأ والدي بالحديث وقال للبراك: لقد شاهدنا التسجيل للسيد الجلالى، فهل هذا هو الجلالى الذي القيتم القبض عليه قبل ستة اشهر؟ هل تريدني ان اريك صورته قبل القاء القبض عليه لتعرف كم تعذب من اجل ان يدلي باعترافات مزورة ضد اولادي والآخرين، وأين شهود الاثبات على ذلك؟ اذا كان ولداي لا تعجبكم تصرفاتهما فسأمرهما بمغادرة العراق في الغد. هنا شعر البراك بحراجة الموقف الذي بدأ ينقلب ضده، فمغادرة ابناء الخوئي قد تعني انتقال الخوئي نفسه الى ايران ومن ثم انتقال المرجعية الشيعية من النجف الى قم، وهذا أمر كانوا يخشون منه بشدة، فقال مستدركا: يبدو انه حصل سوء فهم في المسألة، لقد اردنا ان نعرض عليك محاولة الجلالى لحشر ابناءك في تنظيمه المعادي لاعتقاده بان ذلك سينقذه من الاعدام. اعتذر عما حدث وتركوا البيت منصرفين الى بغداد.

الحوادث من هذا النوع كثيرة.. اتذكر ان صدام حسين ارسل للسيد الخوئي مرة ثلاث سيارات مارسيدس حديثة، كان ذلك في عام 1985، مع حسن علي العامري الذي كان وزير التجارة وقتذاك، ورفض الوالد الهدية وأصر على اعادتها، وأسند موضوع تحريض السيد الخوئي على رفض اخذ السيارات الينا، شقيقي محمد تقى وانا. ومرات تم تهديدنا بالقتل بصورة غير مباشرة عن طريق اخبارنا بان هناك معلومات تفيد بدخول فرقة اغتيالات من ايران لتصفية السيد الخوئي واولاده، وهذا يعني انه ربما تكون هذه المعلومات حقيقية او ان الاجهزة الامنية

العراقية ستدبر محاولة الاغتيال وتسندھا الى ايران، مع اني لا استبعد ان تقوم السلطات الايرانية بمثل هذا العمل للاستيلاء على المرجعية الشيعية.

=====

كان عبد المجيد الخوئي يتعرض الى كمائن تنصبها له بعناية دائرة الامن العامة العراقية من اجل الاطاحة به وايجاد المبررات لابتنزاز والده المرجع الاعلى للشيعية في العالم، يقول: «حدث ذات مرة وفي اواسط عام 1985 ان كلفني والذي بمتابعة قضية احد علماء الدين الذي حكم عليه بالسجن لعامين وانهى فترة سجنه لكن السلطات العراقية لم تطلق سراحه، فما كان مني إلا ان اتصل باللواء سعدون في دائرة الامن العامة مستفسرا عن هذا الشخص، فطلب مني الحضور لمقابلته في مقر عمله ليلا. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما قابلته في مكتبه، قلت له ان السيد الخوئي مهتم بقضية هذا الشخص، فقال: «اذا خرج من السجن فيجب ان يسفر لايران»، قلت: «طيب اطلقوا سراحه وامنحوه جواز سفر وسوف نسفره جوا عن طريق تركيا لايران». رفع سماعة الهاتف وتحدث مع شخص ما، قال له: «ان السيد الخوئي مهتم بقضية السجين فلان، ونحن لا نرد طلبا لسيدنا الخوئي، اطلقوا سراحه واصدروا جواز سفر مؤقتاً لسفرة واحدة له وليذهب لايران، انا اعرف انه سيذهب هناك ويشتم السيد الرئيس ويتهمنا باننا مجرمون، وسيعمل ضد العراق، ولكن لا يهم نحن ننفذ رغبة سيدنا الخوئي»، ثم انتهى المكالمة التليفونية وقال لي: «كيف ستسفره الى ايران؟» قلت: «نحصل له على فيزا من السفارة التركية ويغادر عن طريق الجو». هنا سألني باهتمام: «هل ستذهب انت الى السفارة التركية؟» قلت «نعم أنا ساذهب بنفسي» قال «تعال غدا صباحا وتسلم جواز سفره.»

يضيف عبد المجيد الخوئي قائلاً: «لم اكن اصدق ما يجري، فكرت بانه يسخر مني، لكنني قررت ان استمر في المهمة التي كلفني بها والدي، خرجت من مكتب سعدون وقت الفجر وذهبت الى الكاظمية لأصلي واتناول فطوري، وفي الصباح عدت الى مكتب سعدون ووجدت جواز السفر جاهزا» سألني سعدون: «هل ستذهب الان الى السفارة التركية؟» اجبته بنعم ثم شكرته وخرجت بعد ان حملني تحياته لوالدي. فكرت بسؤال سعدون المتكرر حول زهابي بنفسي الى السفارة التركية، وشككت ان هناك شيئاً ما، لهذا قررت العودة الى النجف، وكان يوم خميس، وصلت الى البيت واخبرت والدي بكل ما جرى فاستغرب الجميع حصولي على الجواز بهذه السهولة. في المساء رن جرس الهاتف وكان سعدون على الخط، سألني: «لماذا لم تذهب الى السفارة التركية؟» قلت له «تعرف اليوم خميس وانا متعب، قررت العودة الى النجف وسأذهب السبت صباحاً» وقال: «مسكين هذا الرجل انت تعرف انه رجل كبير وتحمل السجن وهو بحاجة الى السفر كي لا يبقى اياماً اضافية في الحبس» قلت: «هذا صحيح ان شاء الله ساكون امام السفارة صباح يوم السبت». مكالمته هذه جعلتني ادور في دوامة من الشكوك، فوراً اهتمام سعدون بالموضوع شيء مدبر لي، وكان علي ان اكون في غاية الحذر.

صباح يوم السبت وصل عبد المجيد الخوئي ومعه احد اصدقائه الى السفارة التركية التي كان يزدحم عند بوابتها مئات العراقيين الذين يريدون الحصول على تأشيرة السفر، وقف هناك مع صديقه في انتظار بدء دوام السفارة، يقول: «فجأة تقدمت فتاة جميلة مني وطلبت ان ننتحيا جانبا، همست لصاحبي ان خطتهم ابتدأت، ابتعدنا، انا وهي، امطاراً قليلة، فبادرتني قائلة: «انت نجل السيد الخوئي؟» قلت نعم، سألت:

«هل ستسافر الى تركيا؟» اجبت بنعم، لأعرف ماذا يخططون لي، قالت: «انت سيد ووالدك مرجعنا وأنا اسالك خدمة ستتقذ حياتي» قلت: «اذا كنت استطيع مساعدتك فلن اتأخر»، قالت: «انا اسمي جنان طالبة في جامعة بغداد، وقد سفروا عائلتي الى ايران ولم يعد لي احد هنا، واخشى ان يلقوا القبض علي، اريد ان اسافر الى تركيا لأقابل زوجي هناك، ولا استطيع السفر بمفردتي، فهل استطيع مرافقتك باعتباري زوجتك؟» سألتها: «وكيف ستحصلين على جواز السفر، واذا كنتِ متزوجة كيف ستضعين اسمي في جوازك باعتبارك زوجتي؟» قالت: «جارنا يعمل في اصدار الجوازات واتفقت معه لمساعدتي مقابل منحه مبلغا من المال ووافق» قلت لها: «اذا كان الموضوع يتعلق بإنقاذ حياتك فأنا موافق، لكن يجب ان تحضري جوازك بأقرب فرصة» بدت علامات السعادة على وجهها كونها أنجزت مهمتها بسهولة، سألتني عن رقم الهاتف فأعطيتها رقم هاتف مكتب والدي كونه معروفا لدى الجميع فهو هاتف المرجع الاعلى ومن حق كل شخص الاتصال به للاستفسار عن القضايا الفقهية، كتبت لها الرقم ثم انصرفت مسرعة.

يضيف «عدت الى صديقي وقلت له هيا نترك المكان بسرعة. عندما وصلت الى النجف اخبرت شقيقي محمد تقى وبعض مساعدي والدي بالقصة ليكونوا على علم بها. وفي مساء ذات اليوم اتصل بي سعدون يسألني عما انجزته فأخبرته بأن المسؤولين في السفارة التركية قالوا ان حامل الجواز المؤقت لا يحتاج فيزا اذا كان سيغادر مباشرة الى ايران، قال: «هل انت متأكد؟» قلت له: «تستطيع انت ان تتأكد بنفسك من السفارة، وقد حجزت للرجل على الخطوط العراقية ليسافر يوم غد، فهل هناك امكانية لان يلتقي اقاربه قبل السفر، قال: «لقد فاجاتني بالموعد» قلت: «انت الذي تريده ان يغادر بسرعة ليخلص من حبسه» قال «هذا

صحيح، إذن ليأتي اقاربه يوم غد ويودعوه في المطار». كان سعدون في داخله منتصرا كونه أوقع بي اخيرا في علاقة مع فتاة، وفي هذا قمة التشهير برجل دين هو ابن المرجع الشيعي الاعلى، اما انا فكنت سعيدا بأن هذا الرجل سيخلص من السجن ويلتحق بعائلته في ايران، وكنت بالفعل قد حجزت له على رحلة اليوم التالي الى تركيا، ووقتها قلت لنفسى إذا وصل بجواز سفر مؤقت لا يحمل تأشيرة سفر فلن تستطيع السلطات التركية إعادته الى العراق كون السلطات العراقية لن توافق على إعادته بجواز مثل هذا، ثم ان اهله سينتظرونه هناك ويدبرون امره، وبالفعل نجحت العملية وغادر الرجل ووصل الى ايران، أما الفتاة فقد اتصلت بي بعد يومين لتطلب مني مقابلتها في بغداد، فقلت لها: انت طلبت الرقم الخطأ ولا تتصلي مرة اخرى، واخبري من ارسلوك ان لا يلعبوا مثل هذه ثانية.»

الاثنين 28 ذو القعدة 1422 هـ 11 فبراير 2002

عبد المجيد الخوئي: اللوبي الصهيوني يحاول ابتزازي ولا علاقة لي بأي
جهاز مخبراتي

الأمين العام لمؤسسة الإمام الخوئي في لندن لـ«الشرق الأوسط»:
أسمع الموسيقى والحب معجون في دم الرجال

=====

لندن: معد فياض

=====

تثير شخصية الشيخ عبد المجيد الخوئي، الأمين العام لمؤسسة الإمام
الخوئي الخيرية في لندن، الكثير من اللغط والأسئلة، فهو نجل الإمام
أبو القاسم الخوئي، الذي كان المرجع الأعلى للمسلمين الشيعة، وقد
يوحى للوهلة الأولى بلباس علماء الدين بأنه عالم دين من الطراز
التقليدي، لكنه على العكس من ذلك تماماً، سواء خلال ممارساته
الحياتية المتطورة أو أفكاره المنفتحة. فمن الناحية الفكرية، يتمتع بفكر
منفتح ليس على بقية المذاهب الإسلامية، وحسب، بل حتى على بقية
الأديان والأفكار، ويرتبط بعلاقات مع مؤسسات فكرية وثقافية علمانية،
ورعى ندوات للحوار بين المذاهب الإسلامية وبين الحضارات، ودعا إلى
مقر مؤسسة الإمام الخوئي في لندن خلال نشاطاتها المتعددة
شخصيات مسيحية ويهودية وبوذية وهندوسية إلى جانب الشخصيات
الإسلامية. غير شخصيته الدينية، فإن عبد المجيد الخوئي، متابع

للموسيقى وهو من أنصار ومتابعي التطورات التكنولوجية في الكمبيوتر والانترنت. وبعيدا عن لبس علماء الدين يرتدي الخوئي الملابس الحديثة عندما لا يكون مرتبطاً بعمل يخص المؤسسة ولا يجد حرجاً في الخوض بأي أحداث حياتية قد يعتبرها بقية علماء الدين التقليديين غير مسموح بها. ترك الخوئي العراق خلال احداث الانتفاضة الشعبية في مارس (آذار) 1991، ليصل إلى لندن ويتسلم مهامه في مؤسسة الخوئي التي لم تكن قبل عشر سنوات سوى تشكيل حديث. واليوم، تتصل بالمؤسسة فروع ومراكز ومدارس ومشاريع تمتد على خريطة أوروبا والولايات المتحدة وإيران والهند وباكستان وتايلند والفلبين.

في حوار مع «الشرق الأوسط»، يتحدث عبد المجيد الخوئي لأول مرة عن حياته الشخصية، وكيف أنه دفع ليكون عالم دين، وعلاقاته العاطفية، مجيباً عن الشائعات التي تدور حول زواجه من امرأة بريطانية، وعن مصادر تمويل المؤسسة، كما يفضح المؤامرات والتهديدات التي تحاك ضده من قبل اللوبي الصهيوني في لندن.

* من يلتقيك بعيدا عن مقر عملك في مؤسسة الإمام الخوئي، ولباس علماء الدين، لا يتبادر إلى ذهنه أنك عالم دين ويخيّل لي أنك دفعت لتكون عالم دين؟

- قبل 16 عاما، فكرت في هذا الأمر، أما اليوم فلم أعد أفكر فيه، وهو سؤال مفاجئ، نعم أنا دفعت من قبل شقيقي الأكبر الشيخ الراحل محمد تقي لأكون عالم دين، فأنا صُنعت لأكون عالم دين، لكنني في عام 1985، عندما كان عمري 23 عاما، حاولت التخلص من هذا الرداء،

وفاتحت والذي بالموضوع، لكنه نصحني وأقنعني بالأدلة، فقررت الاستمرار والتمسك بذلك.

*هل هذا يعني أنك عالم دين بحكم ولادتك ونشأتك في عائلة الإمام الخوئي، الذي كان المرجع الأعلى للشيعة؟
- من المؤكد أن للأجواء العائلية أثرها، لكن ليس بالضرورة ان يحدث ذلك، إذ ان من بين سبعة ذكور هم أبناء الإمام الخوئي من زواجين اتجه ثلاثة منهم ليكونوا علماء دين، وهم أخي الأكبر الشيخ جمال الدين وشقيقي الأكبر الشيخ محمد تقي وأنا، بينما أشقائي واخوتي الآخرون لم يسلكوا هذا المسلك. وبالتأكيد كوني ابن المرجع الأعلى للشيعة وقتذاك، له الأثر الكبير، وتقع عليّ مسؤوليات أخرى، هي غير طلب العلم والدراسة، وهو العمل في مكتب والذي وقضاء حوائج الناس والتصدي لمشاكلهم سواء ما كان منها مجرد طلب إجابة المرجع لسؤال فقهي أو لطلب المساعدة المالية، خاصة للعوائل الفقيرة أو غيرها.

* لو لم تكن عالم دين، ماذا كنت تفضل أن تكون؟
- رجل أعمال، وكنت سأعمل في التجارة منذ سنوات طويلة، وذلك بحكم ظروفني، خاصة بعد زواجي وحاجتي لأن أعيش من مردود عملي وعرق جبينني، مثلما يقولون، ولزيادة المتطلبات العائلية، حيث كنا في بيت العائلة نعيش ظرفاً متقشفة مالياً للغاية، وكان هذا جزءاً من سبب تفكيري بالخروج من سلك علماء الدين عام 1985، حيث كان يفرض علينا والذي قيوداً كثيرة من ناحية المصاريف المالية.

* يتردد ان عائلة الخوئي، خاصة أبناءه، كانوا مدللين في العراق من قبل السلطة، بل ان هناك اتهامات بوجود علاقات مشبوهة في ما بينكم وبين السلطات الأمنية العراقية، ما هو تعليقكم على هذا؟

- كنا مدللين، هذا غير صحيح إطلاقاً، وقسم من هذه الشائعات كانت السلطات الأمنية العراقية هي التي تروج له، خاصة خلال الحرب العراقية - الإيرانية، لإظهار نفسها انها بجانب تأييد مرجعية الإمام الخوئي أو الحوزة العلمية في النجف مقابل حوزة قم بعد نجاح الثورة في إيران، لكن الحقيقة لم تكن كذلك، حيث كانت الضغوطات علينا اكثر مما هي على الآخرين، كون ابناء المرجع كانوا دائماً في الواجهة وتحت الأنظار، وكانت هواتف البيت او المكتب مراقبة، ولا نستطيع الحديث بحرية سواء في البيت أو السيارة أو في المكتب، بل كنا نعرف قسماً من اصدقائنا أو زملاء الدراسة لهم علاقات مع الأجهزة الأمنية ومندسون بيننا. وأول ضغط مباشر على أبناء الخوئي كان عام 1979، عندما تم الاعتداء على أخي الكبير الشيخ جمال الدين في بيته ومحاولة اغتياله، حيث تعرضت حياته لخطر الموت مما اضطره إلى ترك العراق، وكانت السلطات العراقية دائماً تلقي علينا اللوم باعتبار أن أبناء الخوئي هم الذين يعرقلون سبيل العلاقة بينه وبين السلطة، واننا نرسم سياسة عداة معها، وكذلك لوضع نوع من الشقاق داخل العائلة. كنا في مواجهة مستمرة مع النظام، وكلما تعرض طالب علم أو عالم دين في الحوزة لاعتداء أو تسفير أو اختطاف أو سجن أو ما شابه، كان من يواجه الاجهزة الأمنية هم أبناء الإمام الخوئي، كون الآخرين لم يكونوا ليحروا على ذلك، وقد دفعت أسرة الخوئي ثمناً باهظاً لذلك.

* من أين لكم هذه الجرأة في مواجهة السلطات العراقية وقت ذاك؟

- قسم من جرأتنا هو وضوحنا أمام الآخرين، في أننا نعمل من أجل الحفاظ على الحوزة، ولأننا كنا نعرف مدى حرص السلطات العراقية أيضاً على أن تبقى المرجعية الشيعية خلال الحرب العراقية الإيرانية خاصة في العراق، فمن الناحية السياسية كانت الحكومة العراقية بحاجة لأن تبقى المرجعية الشيعية في النجف الأشرف، لكن هذا كله لا يعني انه كان هناك تنسيق بيننا وبين السلطة، فالخلافات كانت قائمة بيننا وبينهم باستمرار من خلال الاتهامات او الاستفزازات المستمرة او الضغط والتهديد من أجل طلب موقف أو فتوى من قبل الامام الخوئي مؤيدة للنظام، والجميع يعلم أن السلطات العراقية في أخرج الأوقات وبكل وسائلها القمعية والوحشية لم تتمكن من انتزاع أي موقف مؤيد لها من قبل الإمام الخوئي، والتاريخ يشهد كذلك بأنها لم تستطع، على الرغم من الضغوط الكبيرة من خلال إظهار أحد أبناء الخوئي على شاشة التلفزيون العراقي سواء عبر لقاء قصير أو حديث سريع أو استضافتهم في دعوات الافطار التي كان يقيمها الرئيس العراقي صدام حسين خلال شهر رمضان أو غيرها من المؤتمرات والندوات والاحتفالات والمهرجانات لمن كانوا يسمون بعلماء الدين، رجال وزارة الأوقاف.

* خلال احداث انتفاضة مارس (آذار) عام 1991، تركت النجف والعراق، ووصلت إلى لندن، وأنت لا تملك أي شيء، فقد خرجت بملابسك فقط، وتسلمت عمك في مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية التي لم تكن بهذا الحجم، ترى كيف أنجزتم كل هذه التوسعات؟

- المؤسسة هي جزء من المرجعية الشيعية في النجف، التي ترتبط مباشرة بشخص المرجع الأعلى، الذي يرعى المدارس والمساجد والمكتبات والمشاريع الخيرية الأخرى. واثر المضايقات التي تعرضت لها المرجعية

في النجف منذ سيطرة حزب البعث على السلطة في العراق عام 1968،
بدءاً بمرجعية الإمام محسن الحكيم ومن ثم الإمام الخوئي، ما دفع
بالمرجع الأعلى إلى التفكير بمكان آمن آخر يضمن استمرارية نهج
مدرسة الحوزة في النجف، وتم التفكير بتأسيس أكثر من مركز خارج
مدينتي النجف وقم، على أن تكون هذه المراكز مرتبطة بالمرجع الأعلى
في النجف، وهكذا تم إنشاء مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية في لندن،
لتكون المقر الأساسي وفتح مراكز في أميركا وفرنسا وكندا والهند
وتايلند وباكستان وفي دول أخرى. والفكرة أساساً تعود لشقيقي الشيخ
محمد تقّي، الذي كان مسؤولاً عن مكتب والدي آنذاك، وبعد توقف
الحرب العراقية الإيرانية بعام وبالضبط في سبتمبر (أيلول) عام 1989،
تم رسمياً تسجيل مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية في لندن كمؤسسة
إسلامية خيرية ثقافية خدماتية اجتماعية ذات توجه ثقافي ديني، مستقلة
وبعيدة عن السياسة المباشرة. ولم يكن لي أي دور سواء في مرحلة
التأسيس أو حتى في مرحلة ما بعد التأسيس، سوى أنني وجدت نفسي
مسؤولاً عن هذه المؤسسة، ودُفعت مرة أخرى لأكون في هذا المكان بحكم
أن جميع أفراد عائلتي كانوا داخل العراق تحت الإقامة الجبرية أو في
المعتقل أو أعدموا، وأنا الوحيد الذي تمكنت من الخروج من العراق،
وأصبحت في لندن، ولم اتسلم منصب الأمين العام إلا بعد اغتيال
شقيقي محمد تقّي من قبل الأجهزة الأمنية في العراق عام 1994، حيث
بقيت الابن الوحيد من أبناء الخوئي في السلك الديني الذي عليه أن يدير
أوقاف الإمام الخوئي كما هو منصوص عليه في الوقف.

* هل يجب أن تدار المؤسسة من قبل أحد أبناء الخوئي بينما هناك
الكثير من علماء الدين الشيعة؟ فهل هي مؤسسة عائلية؟

- المؤسسة، وفق نظامها الداخلي الذي وضعه الإمام الخوئي، ليست مؤسسة عائلية، إنما تدار من قبل مجلس الأمناء الذي يتألف من ثمانية أشخاص من علماء كبار وشخصيات شيعية تنتمي إلى ست جنسيات، فيهم الهندي والباكستاني والكويتي والإيراني والعراقي والكييني الإفريقي، والقرارات فيها تصدر حسب الأغلبية في الآراء، وعندما يكون هناك اختلاف تتم العودة فيه إلى المرجع الأعلى. أما أنا، باعتباري الأمين العام، فدوري هو تنفيذي، وحسب الوقفية التي وضعها الإمام الخوئي هي أن يكون الأمين العام من نسله أو صلبه من علماء الدين تحت نظارة مجلس الأمناء ومن فوقهم اشراف المرجع الأعلى للطائفة في كل زمان.

* ما هي مصادر تمويل المؤسسة؟

- بالإضافة إلى الوقفية التي أقرها الإمام الخوئي من المشاريع الاستثمارية التي يصب ريعها لصالح عمل المؤسسة، فهناك التبرعات من المحسنين وهي عمدة مواردنا المالية، كما ان الخدمات التي تقدمها المؤسسة ليست كلها مجانية، فنحن مثلاً نقاضي أولياء أمور الطلبة أجور الدراسة في مدرستي الزهراء للبنات والصادق للبنين في لندن، كذلك في المدارس الأخرى.

* هل تتلقون دعماً مالياً أو تبرعات من بعض الحكومات، سواء بصورة سرية أو علنية؟

- لا نتلقى أية تبرعات أو دعم مالي من أية حكومة لا بصورة سرية ولا علنية، بل ان قانون المؤسسة لا يسمح بذلك، مع ان العروض في هذا الصدد كثيرة.

* هل أموال المؤسسة وعقاراتها مسجلة في البنوك والدوائر العقارية بأسماء أشخاص معينين أم باسم المؤسسة؟
- كل أموال المؤسسة موضوعة بحسابات بنكية باسم المؤسسة، الذي يريد أن يتأكد من ذلك فله أن يدخل على شبكة الإنترنت في أي وقت يشاء، وعن طريق اسم البنك وليس اسم المؤسسة ليطلع على الحسابات وعناوين وأسماء البنوك، أما عقاراتها فهي كلها موضوعة باسم المؤسسة أيضاً، ومسجلة في دوائر العقارات الرسمية في كل بلد يوجد للمؤسسة عقار فيه.

* ألا توجد حسابات سرية أو استثمارات بأسماء أخرى؟
- ليست هناك أية حسابات سرية أو أية استثمارات بأسماء أخرى، وهي شائعات ليس إلا، كما يقال بوجود أرقام خيالية للمؤسسة، وبأن عبد المجيد الخوئي ملياردير وما شابه، وأنا أتمنى على من يعرف عن هذه الأرقام أن يدلني عليها أو أن يدلني على المليار فقط ويأخذ هو البقية!

* هل هناك علاقة بين أموال عبد المجيد الخوئي وأموال المؤسسة؟
- ليست هناك أية علاقة من هذا النوع، أموال المؤسسة مسجلة باسمها، وعبد المجيد الخوئي يسكن وعائلته في بيت مرهون ومطلوب للبنك، وما أملكه من مال هو نتيجة عملي في التجارة وليست هناك أية وجهة مقارنة بين ما تملكه المؤسسة من أموال وبين ما عندي، وما عندي مثلما يقال «على قدر الحال». لقد مرّت على المؤسسة أيضاً وفي مراحل البدايات بعد وفاة الإمام الخوئي، وانقطاع الحقوق الشرعية، ظروف صعبة للغاية، حتى اني كنت أغيب عن المؤسسة عند موعد دفع الرواتب لعدم وجود ما يكفي في حساب المؤسسة لدفع رواتب العاملين، لاستدين سواء من البنك أو من بعض الاصدقاء الطيبين لدفع الرواتب، لكن والحمد لله بعد

عشر سنوات، فإن حسابات المؤسسة مستقرة، وتمكنا بعون الله تعالى من التوسع في نشاطاتنا، لكن بيان رأس المال مثلما هو معروف، فإنه من أهم أسرار العمل ويبقى للآخرين أن يخمنوا ما يريدون.

* هناك اتهامات حول علاقاتكم بالمؤسسات البريطانية والأميركية، فما هو تعليقكم؟

- كل ما عملناه وما نعمله هو لصالح المسلمين في الغرب، نحن نعمل هنا في بريطانيا ضمن لجان تشترك فيها مؤسسات وجهات إسلامية كلها سنية، ومؤسستنا هي الشيعية الوحيدة، سواء عملنا في لجان الدفاع عن حقوق السجناء المسلمين أو في ما يتعلق بدوائر الهجرة والجنسية وفي المؤتمرات التي عقدها المؤسسة للدفاع عن حقوق المرأة أو الطفل أو مناهضة العنصرية أو الاسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام)، أو التقريب بين المذاهب أو حوار الحضارات، وكل هذه النشاطات حضرتها شخصيات إسلامية تنتمي لمختلف المذاهب، بل حضرها من غير المسلمين أيضاً من بقية الأديان، وموقفنا الأخير من الإرهاب كان من أجل حماية المسلمين في الغرب من المؤامرات التي حاكها أعداء الإسلام لخشيته من تنامي الوجود الإسلامي في هذه البلاد، ومن الطبيعي أن كل هذه الفعاليات الثقافية تحتاج إلى إقامة علاقات متوازنة مع الدوائر الرسمية أيضاً لإيضاح الصورة الحقيقية للإسلام عبر الحوار مع صناع القرار أو المسؤولين الغربيين، سواء هنا أو في الولايات المتحدة التي زار رئيسها مسجداً إسلامياً في واشنطن كما زارنا هنا رئيس الحكومة توني بليير.

* باعتقادك لماذا زار بليير مؤسستكم من دون غيرها في لندن؟

- هي مؤسسة من المؤسسات الإسلامية الناشطة والفاعلة في بريطانيا، فليس من الغريب ان يزورها مسؤول بريطاني، وكان من الممكن أن يسأل ذات السؤال في ما إذا زار بلير أي مركز إسلامي آخر، وكان سيقال لماذا لم يزر المركز أو المؤسسة الفلانية؟ من الناحية الأخرى ان الفاعلية في العمل والوضوح في الرؤية ودور المؤسسة الخدمي والاجتماعي والثقافي والطابع الديني البعيد عن السياسة، هو ما جعل من رئيس الحكومة البريطانية أن يزور المؤسسة كونها مؤسسة دينية وليس لها أي طابع سياسي، والمناسبة كانت انعقاد ندوة الرد الإسلامي على الإرهاب، التي دعونا إليها كل المراكز الإسلامية في بريطانيا وأبرز الوجوه والشخصيات الإسلامية واساتذة الجامعات من المسلمين وغير المسلمين وممثلي كل الأديان الأخرى لبحث هذا الأمر، كانت فرصة لحضور رئيس الحكومة البريطانية لإظهار الموقف الرسمي أمام كل هذه المذاهب والطوائف والأديان والشخصيات الأكاديمية والإعلامية، وقد ترأس الندوة الأمير الحسن بن طلال، ولو أقام أي مركز آخر هذه الندوة لكان قد ذهب إليه (بلير) لأنه يريد هذا الحضور وليس مهما بالنسبة له المكان، ولو اراد ان يخص مؤسستنا بزيارة خاصة كان قد فعلها في أي وقت سابق أو لعله ينظمها لاحقاً، لكن في مثل هذا الجو من العمل والنشاط لو لم يكن يحضر بلير هذا الاجتماع كان هو السؤال.

* هناك ايضا اتهامات بارتباطك بالمخابرات البريطانية أو الأميركية أو الإيرانية، أو وجود علاقات مع شخصيات إسرائيلية، ما هو ردكم على هذه الاتهامات؟

- يؤمن الكثيرون من «جماعتنا»، بنظرية المؤامرة التي لا أوّمن بها بشكلها المطلق، وأعتقد أنه ليس من الصحيح الفرار من العمل خشية

الانتهاكات والتقوليات حتى ان كانت هذه التقولات من الاوساط القريبة،
قبل أن تكون من الاوساط البعيدة، خاصة بوجود اللوبي الصهيوني
المعادي لكل ما هو عربي وإسلامي في الغرب، فإذا كنا لا نعمل ونتعاون
مع بعضنا الآخر، ونفرح لنجاحاتنا حتى البسيطة منها، فلا يمكن أن
نقدم أي شيء لمستقبل أبنائنا في هذه البلاد، علينا أن نعمل بطريقة
مختلفة تتلاءم ووجودنا في الغرب، وأن نقوم بأكبر قدر ممكن من
الاتصالات الواسعة لإيصال صوتنا وأفكارنا لأننا نؤمن بأننا نحمل
رسالة إسلامية سمحة ذات قيم أصيلة يمكن أن يخضع لها بالمنطق
السليم والحوار أشد الأعداء، لكن المهم أن نسعى ونحقق بعض
النجاحات، ونجاحنا بالتالي يعني خسارة الآخرين لمواقعهم، وأعني
أعداء الإسلام، وهذا هو ما يغيظهم بتصاعد المد الإسلامي والقوة
المعنوية للوجود الإسلامي في الغرب، وأنا أعمل ولا أخشى من تلك
الشائعات.

* لماذا باعتقادك تثير شخصيتك الكثير من الأسئلة واللغط أكثر مما
تثيره أية شخصية شيعية أخرى؟

- لا أدري إذا كان ذلك صحيحاً، لكن جزءاً من هذا اللغط هو الذي يثار
حول أي شخص يعمل في الساحة ومن لا يعمل وينزوي ويبتعد عن
الأنظار فلا تتجه نحوه السهام، مع الاعتراف ان لكل شخص أخطاءه،
فليس هناك من هو معصوم من الخطأ، فيكون من الطبيعي أن توجه إليه
الانتهاكات، خاصة من قبل من لا يعرفونه عن قرب، فيرسمون في خيالهم
صورة ما، عادة تكون سلبية بسبب الشائعات.

* عبد المجيد الخوئي، يرتبط بعلاقات مع رؤساء وملوك عرب، كان العاهل الأردني الراحل الملك حسين يزورك في المؤسسة وفي بيتكم، كذلك شقيقه الأمير حسن، وغيرهما، فما هو سر ارتباطكم بهذه العلاقات الواسعة مع رؤساء وملوك ومسؤولين عرب؟

- بعضها علاقات شخصية ومعرفة قديمة، خاصة من جيل الشباب، لكن انهم يزورون عبد المجيد الخوئي فقط لشخصه فهذا لا يكفي لأن يقوم الملك حسين أو غيره من المسؤولين بزيارته، إنما الأعمال التي تقوم بها المؤسسة وطريقة عمل وانفتاح المؤسسة، التي عملت خلال عمرها القصير أكثر من مائة مؤتمر وبمستوى عال ومتطور مثل مؤتمر التقريب بين المذاهب الذي عقد في دمشق أو المؤتمرات والندوات التي تمت بالتعاون مع الأزهر الشريف أو رابطة العالم الإسلامي أو مع الاسيسكو او مع مؤسسة آل البيت في الأردن، أو غيرها من الجامعات والمؤسسات والمعاهد العلمية، كلها من أسباب التوسع في العلاقات، وسواء من المسؤولين العرب والمسلمين أو غيرهم.

* كمؤسسة شيعية ماذا كان موقفكم من قضية الشيخ حسين فضل الله في لبنان؟

- موقفنا كان منبثقاً من موقف المرجعية العليا للشريعة في النجف، باعتبار أن ما أثير من لغط، سلباً أو إيجاباً، اعتبرناه ونعتبره فتنة أريد من خلالها الإيقاع بين الشيعة في ما بينهم، فلم نتدخل في ذلك لا نفيّاً ولا إيجاباً كي لا تتأزم الأمور أكثر، وعلى العموم فإن طرفي الخلاف أدركا ذلك، ولو بعد حين، وأعتقد أن المسألة خفت كثيراً أو انتهت ولا أثر للنقاش فيها.

* ما هو موقفكم من حزب الله في لبنان؟

- المؤسسة كما ذكرت غير معنية باتخاذ المواقف السياسية، لكنني شخصياً أعتز بهم وبصمودهم وتوفيقيهم في دحر العدو المجرم الغاصب مع بعض الملاحظات عليهم من قبيل حرق أو سحق العلم الأميركي، فأنا شخصياً غير موافق على إهانة الرمز الوطني للشعب الأميركي، لتحسب على أننا في مواجهة الحضارة الأميركية والشعب الأميركي ككل، فهذا غير صحيح، نعم نحن على خلاف مع كثير من التوجهات السياسية لبعض حكام أميركا، لكن ذلك لا يستلزم توجيه الإهانة إلى الرمز الوطني لدى عموم الشعب.

* تحدثت عن الأعداء الذين يحيكون المؤامرات، فمن تعني بالأعداء بصورة واضحة؟

- أعني بالتأكيد اللوبي الصهيوني وأذنابه.

* هل لمست مثلاً مؤامرة أو تهديداً مباشراً منهم ضد المؤسسة أو ضدكم شخصياً؟

- أعتقد أن الأمر واضح للجميع، وليس فقط للمؤسسة، وهو أن نجاح جهة ما سيكون على حساب خسارة أخرى، أو اضعاف صوتها وعلاقاتها مع المسؤولين هنا، ومن الطبيعي في مثل عملنا أن نواجه الاتهامات وحياسة المؤامرات ومواجهة المضايقات المباشرة وغير المباشرة، من قبل هذا اللوبي ومن خلال عدة أساليب، منها التهديد والابتزاز ومحاولات التخويف، تشويه سمعة، تشهير، وبث شائعات مغرضة، كتابة تقارير غير صحيحة للجهات الحكومية عن نشاطات المؤسسة، والحركة والمراقبة المكثفة حول المؤسسة والعاملين فيها للحصول على ثغرة أو كشف غلطة بهدف تضخيمها وبالتالي ضرب المؤسسة ونشاطاتها.

* كيف تردون على هذه الممارسات؟

- من تجربتي الشخصية، وقد عشت أجواء التهديد والمطارادات الأمنية والابتزاز في العراق وخارجه من قبل عدة أنظمة، وأنا شخص غير خاضع للابتزاز أو التشهير أو التهديد، إنما تكون هذه الأمور حوافز ودوافع بالنسبة لي للعمل بنشاط أكبر، لأنها دليل على نجاح المنهج، وردنا عليها هو ألا نعطيها أي اهتمام، والحل المناسب لردّها هو الاستمرار بالعمل الصحيح والمثل يقول «الشجرة التي لا تثمر لا ترمى بالحجارة.»

* ما هو الفصل بين شخصيتك كعالم دين وحياتك الشخصية؟

- عالم الدين هو دائماً عالم دين، لكن للحياة الشخصية خصوصياتها أيضاً، أعيشها طبيعية كأبي إنسان آخر، أعتز ببيتي وعائلتي وأهتم كثيراً بتربية أولادي، وعلى الرغم من زحمة الأعمال، فهناك وقت يجب أن أفرغ نفسي فيه للاهتمام بالبيت وبمن فيه.

* هل تذهب إلى السينما والمسرح؟

- أحب السينما والمسرح كثيراً، وللأسف ليس عندي الوقت الكافي للذهاب إليهما.

* ليس هناك وقت أم أنك لا تذهب بحكم كونك عالم دين؟

- لا ليس لدي الوقت الكافي، وأتمنى أن يكون عندي هذا الوقت، السينما والمسرح جزءان مهمان من روافد ثقافة الإنسان، وهما مثل الكتب التي هي جزء من حياتي، لكن ليس بالضرورة أن أقرأ كل الكتب، وهناك آلاف الكتب التي لا أجد الوقت كي أنظر إلى عناوينها.

* أي نوع من البرامج التلفزيونية تشاهدها في البيت، هل هناك برامج محددة أم أن الأمر مفتوح؟

- بالتأكيد الأمر غير مفتوح لا بالنسبة لي ولا بالنسبة إلى الأولاد، خاصة القنوات الأجنبية التي فيها ما هو مشين وغير أخلاقي، فضلا عن كونه غير مسموح به دينياً، وكما تعلمنا منذ صغر سننا عودنا ابناءنا على عدم مشاهدة هذه البرامج من غير إحساس بنقص أو ضغط، لأن هناك من البرامج المفيدة والأفلام الانسانية النافعة التي تأخذ من أولادي وقتاً طويلاً.

* هل تستمع إلى الموسيقى؟

- الموسيقى والغناء الصاخب لأهل اللهو والطرب، فلا، وهو حرام عندنا، لكن أستمع أحياناً للموسيقى الكلاسيكية وأتذوقها، وبالنسبة للعربية منها، أخيراً استمعت لأكثر من عمل للفنان نصير شمة.

* هل لك علاقات عاطفية خارج الحياة العائلية؟

- الحياة الزوجية والعائلة مقدمتان عندي حتى على عمل المؤسسة ككل، فالبيت بالنسبة لي أمر مقدس، وأعتقد أنه من لم يمكنه تأمين الاستقرار في بيته لا يمكنه تأمينه لمجتمعه، فلا يصلح أن يكون مصلحاً، لكن كما هو معروف فالعشق والغرام معجون بدم الرجال.

* يشاع بأنك متزوج بأخرى «أجنبية» ولك منها أطفال، ما صحة ذلك؟

- لا أساس لها من الصحة، لا أجنبية ولا عربية ولا عجمية، وبالأساس فأنا غير قادر على قيادة باخرتين في آن واحد.

الملحق وثائقي

الجمعة 08 شعبان 1422 هـ 26 اكتوبر 2001

توني بلير في ندوة إسلامية: أعتز بحمل القرآن الكريم وحربنا ضد الإرهاب وليس ضد الإسلام

رئيس الوزراء البريطاني يزور مؤسسة الخوئي الخيرية بلندن
لندن: معد فياض

أكد رئيس الحكومة البريطانية توني بلير عدم ربط الإرهاب بالدين الإسلامي، مشددا على أن الإرهاب لا دين له، وقال لدى حضوره ندوة «موقف الإسلام من الإرهاب» التي عقدتها مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية في لندن أمس: «علينا أن ننسب الإرهاب إلى مرتكبيه وليس إلى الأديان التي ينتسبون إليها».

وأضاف بلير قائلاً أمام حشد من رجال الدين الذين يمثلون مختلف المذاهب الإسلامية والأديان والطوائف الأخرى بما فيها المسيحية

واليهودية والبوذية وعدد من البرلمانيين البريطانيين والدبلوماسيين
واساتذة الجامعات والصحافيين الذين حضروا الندوة «ومثلما اننا لا
نسب الاعمال الارهابية في ايرلندا الشمالية الى الدين المسيحي، فلا
يجوز ان ننسب ما حدث في الولايات المتحدة يوم الحادي عشر من
سبتمبر (ايلول) الماضي الى الدين الاسلامي».

وشدد رئيس الحكومة البريطانية على ان حكومته تفتخر بتعدد الثقافات
في بريطانيا وتعتز بوجود المسلمين في هذا البلد «فقد اثبت مواطنون
من المسلمين حرصهم على التعايش السلمي مع بقية الاديان، وانا شديد
الاعتزاز بالثقافة والفكر الاسلامي اللذين يدعوان للتسامح واشاعة
الاخلاق النبيلة».

وقال بلير «ان معركتنا هي ضد الارهاب والارهابيين وليست ضد
الاسلام والمسلمين ولن اسمح لأي اعتداء يستهدف المسلمين في
بريطانيا».. وطلب من الحضور وخاصة رجال الدين ان يصلوا من اجل
ان تنتهي هذه الحرب بسرعة قبل ان توقع المزيد من الضحايا .

وتطرق بلير الى الاوضاع في فلسطين وقال «اعتقد انه من الضروري
ان نعمل وان نبذل كل ما في وسعنا للتوصل الى حل عادل في الشرق
الاوسط». مشيراً الى انه «يجب ان نتوصل الى وضع يتمكن فيه
الاسرائيليون والفلسطينيون من العيش جنبا الى جنب في عدل وسلام
كل في دولته وحيث يضمن الامن والعدل للجميع».

وكان رئيس الحكومة البريطانية قد ابتداءً حديثه بالسلام باللغة العربية
وعلى الطريقة الاسلامية قائلاً «السلام عليكم»، مشيراً الى اعتزازه
بحمله القرآن الكريم في حقيبته باستمرار الى جانب الكتاب المقدس،
وقال: «اقرأ القرآن باستمرار لما فيه من قيم اخلاقية ومعان انسانية»،

معبرا عن سعادته بحضور هذه الندوة ولقاءه برجال الدين ممثلي مختلف الاديان والطوائف.

وكان الامير حسن بن طلال ولي العهد الاردني السابق قد افتتح اعمال ندوة «موقف الاسلام من الارهاب» امس، متراًسا الجلسة الصباحية حيث قدم ورقة عمل دعا فيها الى تأسيس برلمان ثقافي لعموم بني البشر باعتبار ان الثقافة هي اكثر الوسائل تقريبا بين الامم، مؤكدا عمومية وعالمية الدين الاسلامي الذي ارسل لعموم البشر وليس الى جماعة معينة وان معاني الاسلام تؤكد الرحمة والهداية والتسامح.

وقال **عبد المجيد الخوئي** الامين العام لمؤسسة الامام **الخوئي** الخيرية في لندن لـ«الشرق الاوسط» امس ان هذه الندوة تأتي ضمن سلسلة من الندوات التي خطط وأعد لها مسبقا، مشيرا الى ان المؤسسة عقدت في السابق سلسلة من الندوات التي تتحدث عن موقف الاسلام من العنصرية، والاسلام وحقوق المرأة، والاسلام وحقوق الطفل والتقارب بين المذاهب. و**اشار الخوئي** الى ان هدف ندوة «موقف الاسلام من الارهاب» وفي هذا الوقت بالذات هو تعريف الغربيين بأفكار ومبادئ الدين الاسلامي المتسامحة وتقديم الصورة الصحيحة للاسلام لدفع ما يحاول البعض من اعداء الدين الاسلامي والمسلمين إصااقه من تهم بالمسلمين. معبرا عن سعادته للحضور الكبير بدءا برئيس الحكومة البريطانية الذي يزور للمرة الاولى مركزا اسلاميا في بريطانيا وبقية الفعاليات الاكاديمية والدينية والسياسية.

الجمعة 12 ربيع الاول 1423 هـ 24 مايو 2002

رجل دين شيعي عراقي يؤكد تفهمه «مخاوف السنة» من إطاحة حكم
صدام

عبد المجيد الخوئي: لا اتصالات رسمية لنا مع إيران ونرفض مبدأ ولاية
الفقيه

القاهرة- أ.ف.ب: أكد رجل دين شيعي عراقي بارز انه يتفهم «دوافع
خوف السنة» في بغداد ازاء ازدياد وتيرة التكهنات حول توجيه ضربة
اميركية الى العراق بهدف اقصاء الرئيس صدام حسين عن الحكم
والنتائج التي ستسفر عن ذلك. وقال **عبد المجيد الخوئي** الامين العام
لـ«مؤسسة الامام **الخوئي** الخيرية» التي تتخذ من لندن مقرا لها امس
«اتفهم تماما مخاوف السنة في بغداد ازاء أي تغيير في الواقع الراهن
خصوصا انهم في الحكم منذ زمن مديد».

وشدد **الخوئي** على وجوب «التلاقي في منتصف الطريق بين المخاوف
والطموحات من اجل التوصل الى حل جميع المشاكل، فما يهمننا هو ان
يكون الحاكم عادلا ويحقق تطلعات الناس». و اضاف **الخوئي** ان
«المخاوف من تغيير الامر الواقع ليست حkra على العراق فقط فجميع
المقربين من السلطة، ولا اريد تسمية البلدان، يخشون ذلك نظرا لانعدام
التفاهم والتعاون بين الجماعات التي يتشكل منها السكان اضافة الى
غياب الديمقراطية».

وردا على سؤال حول العراق، قال **الخوئي** وهو احد انجال المرجع
الشيعي ابو القاسم **الخوئي** الذي توفي قبل 10 اعوام «بالطبع، نهتم

بما يجري في العراق نظرا للدور الذي يلعبه في المنطقة ووجود العتبات المقدسة فيه اضافة الى الثقل الديني للشيعة». وتابع «نعتبر انفسنا معنيين خصوصا ولذلك نحاول ان نؤثر قدر الامكان بما يخدم القضية ويساعد على حصول العراقيين على حقوقهم المشروعة». واجاب ردا على سؤال حول الاتهامات المتعلقة بـ«تعامل» الشيعة مع الولايات المتحدة ان «واشنطن لا تنتظر رأينا في ما يحصل وهي ليست بحاجة لنا لكي تتحرك». وتابع ان «انفتاح شيعة العراق على طهران شائعة روج لها النظام للحصول على تأييد العرب والخليجيين في الحرب ضد ايران». واذاف ان هذه «التهمة ضيقت على العالم والعرب فرصة لانهم ايدوا النظام في انتفاضة مارس (اذار) 1991 حين مارست الدول العربية ضغوطا على الغرب من اجل بقاء صدام في الحكم».

واكد **الخوئي** من جهة اخرى ان الاتصالات مع ايران «موجودة بسبب فروع مؤسسة **الخوئي** الخيرية هناك، فلدينا حوزات علمية في قم ومشهد وطهران وغيرها» لكنه شدد على نفي «وجود اي اتصالات رسمية» معها.

وتساءل «كيف تجري اتصالات معهم ونحن نعارض مبدأ ولاية الفقيه الذي تقوم على اساسه الجمهورية الاسلامية في ايران؟ فنحن في هذا المجال لا نعترف بشرعيتهم». وتابع يقول «هناك اتصالات مع جميع المرجعيات الشيعية في العالم لكننا نعارض التحزب والتقديس الشخصي»، موضحا ان ما «يهمنا هو ان يكون الحاكم عادلا كائنا من يكون فما النفع اذا كان شيعيا وظالما؟ واعرب عن اعتقاده بان «التشيع سيفشل اذا تبنته دولة ما ويجب ان يبقى طليقا في حركته دون الارتباط بمسار دولة معينة لانها قد تزول يوما ما بينما حركة التشيع ستبقى مستمرة».

الاحد 26 رمضان 1423 هـ 1 ديسمبر 2002

شيعة العراق يبحثون في لندن تأسيس مجلس لهم

الخبوئي: المجلس لا يكرس للطائفية بل ضد التطرف.. ونحض على

تشكيل مجلس مماثل للسنة

لندن: معد فياض

عقد مساء امس في مقر مؤسسة الامام الخوئي الخيرية في لندن اول

اجتماع تداولي علني لبحث مشروع «المجلس الشيعي العراقي» حضره

اكثر من مائة وخمسين شخصا.

وضمنت الهيئة التداولية للمشروع عددا من الشخصيات المعروفة في اوساط شيعة العراق في المنفى، بينهم الدكتور محمد بحر العلوم وعبد المجيد الخوئي.

ونوقشت في الاجتماع وثيقة «المجلس الشيعي العراقي» وتشكيل لجننتين، الأولى خاصة بوضع اللوائح القانونية والنظام الداخلي الاداري للمجلس والأخرى تحضيرية للاعداد لمؤتمر شيعي عراقي من المتوقع انعقاده خلال شهر في لندن.

واتفق على اقرار مبدأ الديمقراطية وتغليب رأي الاغلبية على الاقلية في قرارات ونقاشات المجلس وابعاد مسالة الزعامات الاسرية عنه. «الشرق الأوسط» التقت امس عبد المجيد الخوئي الامين العام لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية وتحدثت معه عن المجلس المقترح.

* لماذا هذا المجلس؟

- هذا المجلس تمت الدعوة لتاسيسه من اجل حماية حقوق الشيعة والسنة وللحفاظ على النسيج الديني والطائفي والقومي في العراق ولضمان وجود اطار للعيش المشترك بسلام في العراق الجديد ما بعد التغيير، ودفعاً لكل الاشكالات التي خلقتها اساليب الحكم الديكتاتوري منذ عقود طويلة. لهذه الاسباب تداعت مجموعة من العراقيين المدركين لخطورة الواقع والمستقبل لان يتأسس مجلس شيعي عراقي يضمن الحقوق الثقافية والمذهبية والاجتماعية للشيعة، وقد انطلقنا من مبادئ وضوح الرؤية في طرح الحقوق وصراحة المطالبة بها، وكذلك درءاً للمخاوف والمخاطر التي قد تدفع ببعض الجماعات الشيعية المتطرفة لارتكاب بعض الاعمال غير المسؤولة بحجة الانتقام او الأخذ بالثأر او المطالبة بالحق الشيعي من دون تعقل او وعي لخطورة هذه المسالة التي يمكن

ان توجج النار الطائفية.

* هل تعني ان هذا المجلس ليس سياسيا؟

- هذا المجلس لا علاقة له بالسياسة او بالعمل السياسي، وهو ليس مشروعاً سياسياً على الاطلاق ولا يعتبر منافساً لأي طرح او جهة سياسية عاملة او سوف تعمل في العراق وانما نسعى الى التقنين الحق الثقافي وتضمينها في الدستور العراقي ليعمل من خلال المؤسسات الدستورية الى جانب المؤسسة السياسية الحاكمة.

* هل تعني تضمين الدستور العراقي الجديد فيما اذا حدث التغيير؟

- نعم، هذا الميثاق (المجلس الشيعي في العراق) يجب ان يدخل في الدستور ليمنع الدولة من التدخل في شؤون الحوزة العلمية او ادارة العتبات الشيعية المقدسة او في أساسيات الفقه الشيعي، بغض النظر سواء كانت الحكومة شيعية او سنية، نحن نخشى ان يستبدل حاكم ديكتاتوري باخر مماثل له، او ان ياتي حاكم شيعي يتطرف في الدفاع عن حقوق الشيعة على حساب حقوق السنة.

* هل يشابه هذا المجلس المجلس الشيعي الاعلى في لبنان؟

- الدولة اللبنانية مقسمة على اساس ديني وطائفي، وفكرة المجلس الشيعي في العراق لا تتشابه مع المجلس في لبنان كوننا بعيدين عن السياسة، وفكرة تقسيم الحكومة في العراق على اساس دينية او طائفية لا تنجح. نحن لا علاقة لنا بالسلطة، لا يهمنا اذا جاء حاكم سني او شيعي، او كردي المهم ان نضمن حقوقنا الثقافية والمذهبية والتاريخية.

* ألا تعتقد ان مثل هذا المجلس سوف يكرس للطائفية في العراق؟

- بل على العكس، ما يكرس للطائفية هو غياب القوانين والأنظمة التي تحمي حقوق الآخرين، اذا كانت حقوق السنة والشيعة محفوظة ومصانة دستورياً، وكل واحد يعرف حقوقه التي يطالب فيها فلماذا تتكرس

للطائفية؟ القانون سوف يضبط كل شيء ويمنع وقوع حرب طائفية.
* ألا تعتقد بان السنة غدا سيشكلون مجلس سني في العراق؟
- أتمنى ان يقدم ابناء المذهب السني على تأسيس مجلس مماثل كي
يعملوا على حفظ حقوقهم وحقوق الشيعة، بهذه الطريقة سيعرف الشيعة
حقوقهم وكذلك السنة. يجب ان تتوضح حقوق السنة والشيعة والاكراد
بشكل واضح ويحميها الدستور.

الاحد 14 ذو الحجة 1423 هـ 16 فبراير 2003

مرحبا بأي طرف يخلص العراق

عبد المجيد الخوئي*

يحتل موضوع تغيير النظام في العراق الصدارة ضمن نشرات الأخبار ويشغل اهتمام السياسيين وزعماء العالم والخبراء في الشؤون العربية والإسلامية وبالطبع العراقيين أنفسهم.

وأصبحت المسألة الشائكة فيما إذا كان يجب أن يحدث تغيير للنظام بالقوة نقطة استقطاب للكثير من المناقشات، بل حتى بين أولئك الذين يدعمون وقوع تغيير من هذا النوع ما زال هناك جدل ساخن حول أفضل الطرق التي يجب أن يتم هذا التغيير خلالها، وهذه المواقف الفردية تتأثر بجملة عوامل منها سياسية واقتصادية وأخرى تدخل فيها الاعتبارات الشخصية والانتماء الحزبي للفرد والولاءات الأخرى. لذلك تبدو مشكلة العراق معقدة بشكل كبير إذا لم نقل إنها غير قابلة للحل.

مع ذلك، فإن المشكلة من وجهة نظر العراقيين الذين يعيشون في الداخل واضحة وخالية من أي تعقيد وليست بحاجة إلى أي نقاش مطوّل لما يجب القيام به، طالما أن الشيء الأساسي متعلق بحكم وهيمنة طاغية قاس على العراق لفترة تزيد عن ثلاثة عقود صب خلالها على شعبه وبشكل مستمر جام غضبه والحق به كل أنواع العذاب والبؤس.

فهو قاد هذا البلد إلى حرب مع بلدان الجوار وأشعل نزاعات مسلحة بين كل الفئات الاثنية والدينية التي تكون نسيج المجتمع العراقي بسبب جشعه وغروره وطغيانه وحاجته لإرضاء طموحاته الإجرامية، ونتيجة لذلك قُتل أكثر من مليون شاب عراقي.

كذلك أهدرت مصادر البلاد وقدرات شعبه على صناعة الأسلحة الفتاكة، وعلى بناء قصوره أو في فتح حسابات في البنوك الأجنبية. كل ذلك في الوقت الذي يئن شعبه من آلام الجوع تحت سياط قوانين العقوبات الدولية. وعانى الرجال والنساء والأطفال بسببه وهو قد نجح في شل كل أنواع المعارضة.

وتم إعدام الآلاف إما لمعارضتهم لحكمه أو لاتهامهم بالتآمر ضده وغالبا ما تكون التهم مبنية على شكوك أو إشاعات محض. وهناك آلاف من الناس الذين أُلقي بهم في السجون نتيجة لنزوة عابرة بدون أن يكونوا قد ارتكبوا أي جريمة. كذلك تم طرد مئات الآلاف من الناس بسبب أصولهم الاثنية بينما أُجبر أبناؤهم الذين تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة على البقاء كي يتم اختبار آخر ما أنتج من أسلحة كيماوية وبيولوجية قبل استعمالها ضد مدينة حلبجة وفي مجازر أخرى.

وسبب طغيان صدام هروب الملايين من الناس من بلادهم وهم الآن منتشرون في كل أنحاء العالم سعيا للعثور على مكان آمن لهم، ولا بد أنهم يفكرون بأنهم محظوظون لتمكنهم من الهرب من السفينة الغارقة ومن الكوارث الأخرى. باختصار، هذا هو الوضع الذي يواجهه الشعب العراقي.

والحل من وجهة نظرهم واضح أيضا وهو ناجم عن شيء واحد يتمثل بالحاجة الماسة للتخلص من هذا الطاغية ونظامه الوحشي في أقرب فرصة ممكنة وبأي وسيلة كانت. وأنا أؤكد: بأي وسيلة كانت.

ليس هناك أي مبرر من مناقشة الوسائل وطرق التغيير، فالعراقيون غير معنيين بمعرفة من سيقوم بهذه المهمة سواء كان فردا أو مجموعة أفراد أو قوة من الخارج أو تحالفا قويا. فهم يرون إلى القضية في كونها بالأساس ذات طبيعة اثنية وانسانية وأكثر من ذلك هم يؤمنون بأن مهمة تخليصهم من هذا الطاغية هو واجب مقدس يفرضه أي قانون ومدعوم من أي نظام علماني أخلاقي. لذلك فإن أي واحد يستطيع القيام بهذه المهمة سيكون مشكورا. فمن وجهة نظرهم أنه من غير المقبول أن يكون هناك طرف ما قادر على إسقاط هذا النظام أو يساعد على إسقاطه، مع ذلك لا يقوم بأي شيء.

هذا هو باختصار موقف الشعب العراقي الذي يعرف جيدا أنه لا أحد يستفيد من تعقيد الأزمة غير الطاغية نفسه الذي يريد فقط أن يكسب الوقت في محاولته للخروج من هذا الوضع الخطير وبذلك سيكون متحررا كي يقوم لاحقا بجرائم أخرى.

لكل من لا يصدق أو يريد دليلا على ما جاء في هذا النص عليه أن يذهب إلى العراق وأن يحاول أن يكون بعيدا عن أعين الشرطة السرية ورجال الأمن حينما يسأل أي شخص يلتقيه، فبال تأكيد العنصر الأساسي في هذا الخلاف هو رأي العراقيين أنفسهم لا الشعارات المتبجحة الطنانة التي يطلقها أولئك الذين يعبرون عن أنفسهم، وخصوصا أولئك العرب والمسلمين الذين ظلوا يتحدثون لفترة طويلة عن «أخواننا العراقيين» لكنهم لم يفعلوا أي شيء للتخفيف من معاناتهم.

• الأمين العام لمؤسسة الخوئي (وهي منظمة ثقافية وإسلامية ودولية وخيرية وتربوية)

صحيفة "الشرق الاوسط" الاربعاء 15 محرم 1424 هـ 19 مارس
2003

الأمين العام لمؤسسة الخوئي: قرار الحرب خارج إرادتنا وما من جهة
عراقية معارضة لا ترتبط بالأميركيين
لندن: "الشرق الاوسط"

نفى **عبد المجيد الخوئي**، الأمين العام لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية
في لندن، ان تكون الادارة الاميركية قد عينته مشرفا اداريا او قائدا
لمناطق جنوب العراق، او انه كان قد زار الكويت لهذا الغرض.
وكانت انباء صحافية وتلفزيونية قد ذكرت ان الادارة الاميركية عينت **عبد
المجيد الخوئي** مشرفا اداريا او قائدا للمحافظات الجنوبية في العراق
ذات الاغلبية الشيعية، فيما ذكرت انباء اخرى بانه قام بزيارة للكويت
لهذا الغرض.

وقال **عبد المجيد الخوئي** في حديث لـ«الشرق الاوسط» امس ان
مسؤولين ايرانيين سربوا مثل هذه الانباء بهدف الاساءة لبعض
الشخصيات الشيعية العراقية واتهامهم بالارتباط المباشر بالادارة

الاميركية».

وقال «انه لم تبق هناك جهة عراقية معارضة سواء كانت سياسية او دينية بما فيها قيادة المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق، لم ترتبط بطريقة وبأخرى بالادارة الاميركية، وهذا ما بثته محطات التلفزيون العربية والاجنبية حيث قامت هذه الجهات بزيارات الى واشنطن، كما التقت المبعوث الاميركي مباشرة في جميع جلسات مؤتمرات لندن للمعارضة العراقية واجتمعت به كذلك في صلاح الدين اخيرا».

وعن حقيقة تعاونه مع الادارة الاميركية قال الخوئي «ان التعاون مع الادارة الاميركية تم بالاساس من خلال احدي الدول العربية الشقيقة للتنسيق واخذ الاحتياطات اللازمة لما ستؤول اليه الاوضاع الانسانية في العراق بعد تغيير النظام الحاكم، وكما هو معروف فان هناك ملايين الاصوات العربية والغربية التي تقف ضد الحرب الاميركية المحتملة، ولا احد يتمنى قيام هذه الحرب التي ستوقع الضحايا بين المدنيين اضافة الى تدميرها للبنية التحتية للبلد، ولكن تبقى الاصوات المعارضة».

للحرب مجرد امنية طيبة لا توقف قرار الحرب الذي هو خارج ارادتنا جميعا».

واشار الى ان «هذه الحرب ان وقعت فسوف تضاف الى سلسلة جرائم النظام الحاكم في العراق الذي قاد العراق والمنطقة الى هذه الحالة من خلال عنجهيته وتصرفاته ومغامراته اللانسانية، واعتداءاته على العراقيين دون تمييز وعلى جيرانه، وكذلك بعدم التزامه بالقرارات الدولية وتنصله منها».

وقال الامين العام لمؤسسة الامام الخوئي «ان الحرب التي ستندلع خلال ايام وربما ساعات سوف تسفر عن نتائج غير مرضية بسبب ما

سيتحمله العراق من ويلات وما سيدفعه العراقيون الابرياء من ثم باهظ في سبيل خلاصهم من الظلم والاضطهاد». وقال ان جل اهتمامنا وجهدنا ينصب على العمل من اجل المساهمة في رفع معاناة اهلنا في الداخل ومحاولة الوصول اليهم في اقرب وقت ممكن».

ودعا نجل المرجع الاعلى للشريعة في العالم الراحل ابو القاسم الخوئي الى تشكيل لجان متطوعين لتقديم المساعدة للشعب العراقي، وقال ان «مساعدة العراقيين في الداخل، وفي هذه الايام بالذات مسؤولية كبيرة تقع على عاتق كل عراقي شريف مقيم في الخارج وقادر على تقديم هذه المساعدة، وهي مسؤولية اعتبرها بشرية وانسانية ووطنية وادعو كل عراقي بإمكانه الدخول الى ارض الوطن ومن خلال اي منفذ لتقديم مساعدته لاهله ان لا يفوت هذه الفرصة لتحمل مسؤوليته التاريخية للتخفيف من معاناة العراقيين والمساهمة في بناء عراق حر ومستقل بعد تغيير النظام.

وعن طبيعة ومهام هذه اللجان قال **عبد المجيد الخوئي** «سيقوم الاشخاص المتطوعون في هذه اللجان بالاتصال بعشائرتهم ووجهاء مدنهم للوقوف والعمل الى جانبهم من اجل تقديم المساعدة والعمل على استتباب الوضع الامني وارشاد المنظمات الدولية الانسانية لتوزيع المساعدات وتقسيم العمل الاداري والاعي والاعلامي من اجل عودة الحياة المدنية وطمأنة العراقيين ومواجهة الحالات الطارئة».

«الشرق الأوسط» تدخل إلى النجف: 90% من المدينة آمن وفدائيو
صدام يتمرسون في مرقد الإمام علي وبعض البيوت
الخوئي لـ«الشرق الأوسط»: نعمل مع عائدين آخرين وشخصيات من
الداخل على حفظ الأمن ومساعدة السكان * إمام مسجد: مطمئنون لما
وصلت إليه الأمور

النجف (العراق): معد فياض

فجر امس دخلت «الشرق الاوسط» مدينة النجف العراقية (160
كيلومتراً جنوب غربي بغداد) بعد رحلة طويلة مع قوات الحلفاء التي
كانت قد فرضت حصارا دام 6 ايام حول المدينة التي يبلغ عدد سكانها
اكثر من ربع مليون وهي المدينة الاكثر قدسية لدى شيعة العالم وفيها
الحوزة العلمية. قوات الحلفاء كانت قد لاحقت من البر والجو ميليشيات
«فدائيي صدام» ومقاتلي حزب البعث الحاكم حيث شاركت طائرات
الهليكوبتر في اصطياد افراد هذه الميليشيات.
وقال ضابط اميركي لـ«لشرق الاوسط» رفض الافصاح عن اسمه ان
عناصر ميليشيات «فدائيي صدام» وحزب البعث اتخذوا من المساجد
والازقة وبيوت بعض المواطنين متاريس لهم وهم يطلقون النار من شبابيك
وفتحات المساجد والبيوت الآهله بالسكان، وازداد ان هذه الميليشيات
تتخذ الان من حرم مرقد الامام علي مركزا لاطلاق النار على الاهالي
والقوات المتحالفة، وأشار الى «ان تعليماتنا الى قواتنا مشددة بعدم الرد
على هذه الميليشيات طالما هي في المساجد او في الاماكن المقدسة او
بين الاحياء السكنية، كي لا نعرض حياة المدنيين للخطر واحتراما
لمشاعر المسلمين»، مؤكدا ان المواقع التي تتمركز فيها هذه الميليشيات
«محاصرة وستتم السيطرة عليها قريبا».

ازيز الرصاص لم يهدأ بعد في وسط مدينة النجف وقوات الحلفاء تتمركز

الآن في الشارع الرئيسي للمدينة على بعد 300 متر من مرقد الامام علي حيث يتمترس فدائيو صدام. ويمكن القول ان ما نسبته 90 في المائة من المدينة اصبح آمناً وان اهالي النجف وقوات الحلفاء يشعرون بالاطمئنان وان من المتوقع انهاء مقاومة ميليشيات فدائيي صدام فجر اليوم.

«الشرق الاوسط» لاحظت حركة قليلة في المدينة، واكثر ما يزعج الاهالي هو انقطاع الماء والكهرباء منذ ستة ايام ومن المتوقع ان تقوم قوات الحلفاء بتوزيع المساعدات الانسانية على المواطنين في غضون اليوم او غدا.

والتقت «الشرق الاوسط» الشيخ محمد الكعبي امام مسجد حنون في المدينة والذي عبر عن اطمئنانه لما وصلت اليه الامور وقال «انا اعتمد فتوى آية الله السيستاني بعدم عرقلة عمل قوات الحلفاء»، وتمنى عودة الحياة الطبيعية للمدينة وتوزيع المساعدات على المواطنين وان يشعر الجميع بالامن والاستقرار. ولم نلاحظ اي وجود للقوات المسلحة العراقية سواء خارج المدينة او داخلها. كما لم نلاحظ وجود عناصر مدنية مسلحة من المعارضين للنظام. ولاحظنا بوضوح ان هناك من مزق صور الرئيس العراقي صدام حسين وسحقها تحت قدميه ووضع القناع الاسود على شعارات حزب البعث الحاكم. وقال مواطن رفض ذكر اسمه ان المسؤولين الامنيين ومنتسبي حزب البعث والاداريين المواليين لنظام صدام فروا من المدينة. كما لاحظنا اهتمام الاجهزة الطبية التابعة لقوات الحلفاء بالمدنيين الجرحى الذين تعرضوا لاطلاق النار من قبل ميليشيات فدائيي صدام.

وكان عبد المجيد الخوئي الامين العام لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية في لندن اول شخصية عراقية تدخل الاراضي العراقية التي سيطرت عليها

قوات التحالف، وقد التقته «الشرق الاوسط» داخل مدينة النجف وقال: «منذ اضطررت الى ترك بيتي في النجف ووطني العراق قبل 12 عاما وانا اسعى جاهدا وأتحن الفرصة المناسبة للعودة لاهلي واخوتي وها قد وفقني الله لتحقيق امنيتي للرجوع الى ارض الوطن».

واضاف «لقد رجعت الى النجف بمساعدة احدى الدول العربية الشقيقة وبالتنسيق مع قوات التحالف لتحرير العراق، وذلك سعيا لتأمين الاستقرار والعمل على الحفاظ على الوضع الامني لحياة مراجع الدين العظام وعلماء الحوزة العلمية والاهالي ومساعدتهم قدر الامكان وبخاصة السعي للتقليل من الخسائر والاضرار التي يمكن ان تلحق بالعتبات المقدسة والمراكز الدينية».

وقال الخوئي «عدت مع مجموعة طيبة من الشخصيات ووجوه العراقيين من المهجر ومن مختلف انحاء العالم ومع رؤساء وشيوخ العشائر وقد التحق بنا عند وصولنا الى ارض الوطن مجاميع كبيرة من ابناء العشائر وابناء المدن المحررة كمتطوعين للعمل الخيري العام مع مجموعتنا».

وحول الوضع الامني في النجف قال الخوئي: «بصورة عامة الوضع الامني داخل المدينة وبعض المدن المحررة هادئ والاهالي يشكون من انقطاع التيار الكهربائي والماء وعدم وجود الادوية وقلة المواد الغذائية التي نأمل ان تصل الى جميع المدن في اقرب فرصة لمساعدة الاهالي في اعادة الحياة الطبيعية».

ويعتزم الخوئي زيارة مرقد الامام علي صباح اليوم والالتقاء بالمراجع الدينية وعلماء الحوزة العلمية مباشرة.

اغتيال الزعيم الشيعي عبد المجيد الخوئي في النجف "الشرق الأوسط" تشهد الهجوم عليه داخل مرقد الإمام علي بالسكاكين والسيوف والقنابل

النجف: معد فياض

لقي عبد المجيد الخوئي، الأمين العام لمؤسسة الخوئي الخيرية في لندن، مصرعه امس داخل مرقد الامام علي في مدينة النجف العراقية مع مرافق له عراقي يحمل الجنسية الاميركية، هو ماهر الياسري. وكان موفد «الشرق الاوسط» قد حوضر خلال مرافقته للخوئي في مرقد الامام علي وحتى مقتله على يد انصار مقتدى الصدر في حادثة ماثلت في بعض جوانبها حادثة مقتل الامام الحسين بن علي قبل الف واربعمئة عام.

كنت قد تناولت طعام الافطار في وقت مبكر من صباح امس مع الخوئي في منزل شقيقه محمد تقي الخوئي الذي كان نظام صدام حسين قد اغتاله عام 1994، ثم توجهنا الى مرقد الامام علي عند تمام الساعة التاسعة صباحا مع مجموعة من العراقيين المقيمين في بريطانيا والولايات المتحدة والذين حضروا معه لتقديم الدعم والمساندة لبلدهم.

وبعد ان ادى الخوئي ومجموعته شعائر الزيارة توجه الجميع الى مكتب خدمة الروضة الحيدرية داخل الصحن الشريف يرافقهم حيدر الرفيعي سادن الروضة الحيدرية، الذي حضر للمرة الاولى امس الى مكتبه منذ انهيار النظام العراقي، لخشيته من ان يتعرض للقتل بتهمة تعاونه مع نظام الرئيس صدام حسين. وعند الساعة العاشرة والنصف بدأت جماعات من مريدي مقتدى الصدر (22 عاما) نجل المرجع الشيعي السابق محمد صادق الصدر الذي كان قد اغتيل قبل عامين بالتجمع

امام المكتب ونوافذه رافعين شعارات مؤيدة للصدر ومطالبين بتسليمهم حيدر الرفياعي لإعدامه امام الجماهير.

وما كان من السيد عبد المجيد الخوئي إلا ان يتحدث معهم طالبا منهم الهدوء، ومذكرا اياهم انهم مسلمون وشيعة، وفي حضرة الامام علي، وعليهم احترام المكان المقدس الذي هم فيه.

لكن موجات مريدي مقتدى الصدر بدأت بالهيجان والاتساع. وكانت وجوههم منذرة بالشر وبالتعطش للقتل وهم يقتربون من نوافذ مكتب خدمة روضة الحيدرية حاملين السكاكين والخناجر والسيوف ومطالبين بقتل جميع من في المكتب.

وبينما كان الخوئي يتحدث معهم حطّم بعضهم النوافذ وقاموا بالهجوم محاولين الدخول الى المكتب غير مبالين بما يحدثهم به الخوئي.

بعد دقائق قليلة اطلق مريدو الصدر وابلا من الرصاص باتجاه نوافذ المكتب ما ادى الى مقتل ماهر الياسري، 33 عاما، وهو عراقي يحمل الجنسية الاميركية ومقيم في ديترويت، وهنا قام بعض افراد حماية المكتب بالرد على المهاجمين من اجل حماية الخوئي ومجموعته.

وبعد دقائق قليلة ظهرت انواع مختلفة من الاسلحة بين ايدي المهاجمين داخل حضرة الامام علي، وانهمر على المكتب وابل من الرصاص والقنابل اليدوية وقاذفات «ار بي جي 7» وتحول المكان الى ساحة قتال ساخنة للغاية، فيما لم يكن الاشخاص الذين معنا في مكتب الخدمة يحملون سوى رشاشة كلاشنيكوف واحدة انتهى عتاها ومسدسين بسيطين.

ولم تنفع صرخاتنا بضرورة ايقاف الرمي والتفاهم لمعرفة مطالبهم لكن الاجابات كانت تأتي سريعة على شكل وابل من الرصاص.

وبعد اكثر من ساعة ونصف الساعة من الرمي من طرف واحد من جانب المهاجمين رفعنا الراية البيضاء والمصحف الكريم ودخل عدد من المهاجمين الذين يضعون العمام البيضاء والسوداء على رؤوسهم، وكان عبد المجيد الخوئي وقتذاك قد اصيب اصابة بالغة باليد اليمنى.

دخل علينا المهاجمون وهم يصرخون «اقتلوهم.. اقتلوهم»، الا ان الخوئي اجابهم: «هذا حرام، كلنا مسلمون وكلنا شيعة، ونحن في حضرة الامام علي، لقد قتلتم شاباً عراقياً مسلماً لماذا»، وهنا تعالت اصواتهم وهم يقولون «اسكتوا سنقتلكم الان». وبالفعل وضعونا في مواجهة الجدار لتنفيذ حكم الاعدام فينا الا ان احدهم قال يجب ان نأخذهم الى بيت مقتدى الصدر، وهكذا كبلوا ايدينا بالحبال وصادروا كل ما في جيوبنا من اموال واوراق واجهزة هاتف وكاميرات وهم يضربوننا.

ثم اقتادونا مكبلين وكنا خمسة اشخاص، السيد عبد المجيد الخوئي وانا والشيخ صلاح بلال وحيدر الرفيعي وشخص اخر عراقي مقيم في اميركا، وما ان خرجنا حتى انهالت علينا السكاكين والخناجر والهرافات. وعند اجتيازنا الشارع المؤدي الى بيت مقتدى الصدر بلغ الضرب والهجوم ذروته ولا ادري كيف استطعت ان افك وثائقي وأندس بين الناس واهرب من المكان، وعندما وصلت بقية المجموعة الى بيت مقتدى الصدر رفض فتح الباب وقال لمريديه اقتلوهم في الشارع ولا تدخلوهم الى بيتي، وكانت جماعة الصدر قد منحتنا الامان.

وعند الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق، وعندما كان اذان صلاة الظهر يعلو من مآذن مرقد الامام علي كان الخوئي وحيدر الرفيعي قد قتلا على ايدي المهاجمين.

من ناحية اخرى، يتوقع اهالي النجف ان تستمر حالات الاغتيالات والتصفية بين مجموعة مقتدى الصدر ومجموعات شيوعية اخرى منافسة."

صحيفة"الشرق الاوسط" الجمعة 08 صفر 1424 هـ 11 ابريل 2003

واشنطن ولندن تنددان باغتيال الخوئي

لندن: عمار الجندي واشنطن - أ.ف.ب

نددت الولايات المتحدة وبريطانيا باغتيال **عبد المجيد الخوئي** في النجف امس.وقال الناطق باسم البيت الابيض آري فلايشر ان الولايات المتحدة «تدين بشدة» اغتيال الزعيم الشيعي. وازاف ان «اغتيال احد الشيوخ في النجف مؤسف للغاية تدينه الولايات المتحدة بشدة وتقدم تعازيها

لسكان النجف، وهو مثال جديد على الطابع الخطير للوضع في العراق».

وفي لندن أعرب وزير الخارجية البريطاني جاك سترو عن عميق اسفه لمقتل **الخوئي** معتبراً أن وفاته تمثل «مأساة رهيبة». وقال في مؤتمر صحافي مشترك عقده في مقر الوزارة بلندن مع الشيخ الدكتور محمد صباح السالم الصباح وزير الدولة الكويتي للشؤون الخارجية، «عرفت الشيخ **الخوئي** الذي كان يعيش في هذه البلاد، كأحد القادة الاسلاميين في بريطانيا». و اضاف إن الراحل كان «يحمل آمالا كبيرة عن مستقبل الشيعة في عراق ما بعد صدام، وأنا متأكد من أن رؤيته هذه ستتحقق». وعبر الوزير البريطاني عن اسفه وحزنه العميقين لرحيل **الخوئي** مبدياً رغبته في «تقديم تعازينا، رئيس الوزراء توني بلير والحكومة البريطانية، الحارة وصلواتنا الى عائلته وشعبه، وفي رد على سؤال حول غياب الاستقرار الامني في المناطق التي تسيطر عليها القوات الاميركية والبريطانية، اكد سترو ان مقتل **الخوئي** «يدل على الحاجة الى تعزيز الوضع الامني في العراق». بيد انه اوضح أن هذا الفلتان الامني طبيعي «لحظة سقوط النظام» مشيراً الى «اننا نعمل مع شركائنا على تعبئة الفراغ الأمني».

شخصيات شيعية تتهم جماعة أصولية متشددة بقتل **الخوئي** لظنها أنه يسعى لزعامة في النجف

الكويت - رويترز: قال عدد من كبار زعماء الشيعة العراقيين امس ان جماعة اصولية شيعية متشددة هي التي خططت لقتل رجل الدين الشيعي **عبد المجيد الخوئي** في النجف هذا الاسبوع.

وقتل **الخوئي** طعنا وبالرصاص على أيدي مسلحين أثناء تجمهر في مسجد الامام علي اقدس الاماكن الشيعية بعد أيام من عودته من المنفى في لندن بعد سقوط نظام صدام حسين.

وقال زعماء الشيعة العراقيين ان جماعة الصدر الثاني التي يقودها مقتدى الصدر، 22 عاما، وهو ابن الزعيم الشيعي العراقي الراحل محمد الصدر، نفذت هجوم الخميس الماضي الذي قتل فيه **الخوئي** ورجل دين آخر.

وقال رجل يزعم انه كان مساعدا للخوئي وصاحبه وقت الهجوم «بدأ المهاجمون في الصراخ واطلاق الشتائم وقالوا: يعيش مقتدى و«الموت لمجيد **الخوئي**، وكانت معهم سكاكين وبلطات وكل شيء».

ويقول اصدقاء **الخوئي** وأقاربه انه راح ضحية صراع بين الجماعات الشيعية الرامية الى السيطرة على النجف، المزار المهم للشيعة ومحل ضريح الامام علي.

وقال محمد باقر مهري رجل الدين والعالم الشيعي «كان **الخوئي** يمتلك اتصالات وموارد كبيرة ويتحدر من عائلة محترمة. كان وجوده سيميل موازين القوى في النجف. الكثيرون شعروا بانهم يهددهم».

وقال ان «مقتدى وجماعته قتلوه لأنهم يريدون السيطرة على النجف والجامع المقدس والذي سيصبح قلب العالم الشيعي في العراق الحر».

وكان **عبد المجيد الخوئي** يدير منظمة خيرية اسلامية متعددة الجنسيات من لندن وكان ينظر اليه كنجم صاعد في عراق ما بعد صدام، لكن البعض انتقده بسبب صلاته الوثيقة بالولايات المتحدة.

وقال عباس قادري احد علماء المسلمين ذوي الصلة الوثيقة بالمعارضين العراقيين «هذه الجماعات التي كانت تعمل بشكل خفي لاعوام تظهر الان من جديد لتطالب بالسلطة. انهم يعتقدون انهم حاربوا لأعوام ويستحقون ان يتولوا المسؤولية».

وقال مسلم فخر رجل الدين الذي قضى اعواما عديدة في النجف وامام احد المساجد الشيعية بالكويت «رغم فراغ السلطة كنا نأمل ان تتمكن النجف من ادارة نفسها ولا تصبح مثل بغداد والبصرة. وكان **الخوئي** هو الوحيد القادر على ذلك».

وقال شهود ان **الخوئي** تعرض لإطلاق نار بعد ان حاول منع مسلحين من قتل حيدر الرفياعي راعي المسجد والذي اتهمته بعض الجماهير ان له صلات بصادم حسين.

وقال حمزة حسيني الناشط الشيعي ان الفوضى ربما تقود الى مزيد من اراقة الدماء مضييفا «القمع في العقود الماضية خلف فراغا روحيا في المدن العراقية المقدسة. لقد ترك الناس في ضلال مبين».

واضاف «انحدر العراق الى خراب أخلاقي وترك الفقر وغياب الارشاد الروحي الشبان العراقيين فريسة محتملة للافكار الخطيرة وللمنافقين».

السبت 01 ربيع الاول 1424 هـ 3 مايو 2003

اعتقال اثنين من الملاحقين في قضية اغتيال **عبد المجيد الخوئي** بعد مواجهة مسلحة بين الشرطة والمطلوبين داخل مقبرة النجف

النجف (العراق) - وكالات الأنباء: اعتقلت الشرطة العراقية في مدينة النجف اثنين من المشتبه باشتراكهم في قتل الزعيم الديني الشيعي البارز **عبد المجيد الخوئي** في الشهر الماضي، وذلك بعد ان تبادلت اطلاق النار فجر امس مع عدد من المسلحين الملاحقين في هذه القضية. وابلغ **عبد الخالق الكعبي** قائد قوة الشرطة المدنية المتطوعة في النجف الواقعة على بعد نحو 160 كيلومترا جنوب غربي بغداد، الصحافيين انه تم اعتقال ماهر البغدادي ورجل اخر اسمه الاول حسان.

واضاف انهما كانا ضمن مجموعة مؤلفة من نحو عشرة رجال اطلقوا نيران بنادق من طراز «إيه كي 47» والقوا قنبلة يدوية في الشوارع الواقعة حول ضريح الامام علي.

وجرى تبادل اطلاق النار بين عناصر مركز شرطة «الكرار» والعناصر المسلحة التي كانت كامنة في مقبرة المدينة التي يقع مركز الشرطة على طرفها.

واصيب مدنيان في الاشتباك الذي وقع قرب شارع الرسول. وقال الكعبي ان البغدادي اصيب بطلق ناري في جانبه ولكنه يرقد في المستشفى في حالة مستقرة.

وقال الكعبي «تلقينا معلومات عن وجود المشتبه فيهما في منطقة الضريح (...) وكاننا من بين المطلوبين لدى الادارة المدنية في بيان صدر عندما قتل الخوئي».

واضاف انه بعد اقتياد الرجلين الى مركز للشرطة اقتحم سبعة اخرون المركز من احدى المقابر باستخدام بنادق من طراز «ايه كي 27» في محاولة لاطلاق سراحهما. وقال «لاحقناهم في المقبرة».

وقال شاهد من فوق احد الاسطح انه رأى تبادلاً لاطلاق النار بين المركز والمقبرة الواقعة خلفه. وعادت السيارات ادراجها من الطريق الرئيسي الواقع امام مركز الشرطة.

وقال مفوض المركز عبد الزهرة حسون راضي الذي كان يشغل المنصب ذاته في عهد نظام صدام حسين لوكالة الصحافة الفرنسية «بناء على اوامر القاء القبض الصادرة من المحافظة بحق 16 متهما في عملية قتل عبد المجيد الخوئي وحيدر الكيليدار (سادن العتبات المقدسة وعضو في المجلس الوطني السابق) اعتقلنا ليلة امس اثنين من المتهمين، واثّر ذلك فتح مسلحون علينا النار لتخليصهم».

واضاف ان المتهمين هما ماهر البغدادي وشخص اخر قال ان اسمه حسان دون مزيد توضيح.

وقال انه لم تسجل اصابات بين عناصر الشرطة كما انه لم يتم الامساك بالمهاجمين.

وافاد انه تم في يوم 26 الشهر الماضي القاء القبض على متهم ثالث في القضية.

وكان احد عناصر الشرطة قد ذكر في وقت سابق ان «الشرطة أَلقت القبض عند الساعة الواحدة (ليلا) على عباس واخيه مهند البغدادي المتهمين بقتل الخوئي، وان اهلها وعصابتها يحاولون استعادتهما». واذاف «ان اهالي المتهمين هاجموا مركز شرطة الكرار ظنا منهم ان ابنيهما موقوفان فيه». واذاف ان المتهمين «كانا قد نقلنا الى مقر الادارة المدنية لمحافظة النجف».

وقد اغتيل عبد المجيد الخوئي نجل آية الله الخوئي في العاشر من الشهر الماضي داخل ضريح الامام علي. وكان يرأس مؤسسة الخوئي التي تقدر ثروتها بملايين الدولارات، والتي تتخذ من لندن مقرا لها. وقد ورث هذا الموقع عن والده آية الله العظمى ابو القاسم الخوئي الذي توفي في 1992 في اقامته الجبرية في النجف.

صحيفة "الشرق الاوسط" الثلاثاء 13 جمادى الثانى 1424 هـ 12
اغسطس 2003

نبش جثة **عبد** **المجيد** **الخوئي** لتشريحها

النجف (العراق) - ا.ف.ب: علم من مصدر قضائي انه تم أول من امس نبش جثة عالم الدين الشيعي العراقي المعتدل **عبد المجيد الخوئي** الذي اغتيل في ابريل (نيسان) الماضي داخل مقام الامام علي في النجف جنوب بغداد وذلك لتشريحها مع جثة الشخص الذي قتل معه وهو حيدر الكيلدار مسؤول المقام في ظل النظام السابق.

واوضح المصدر نفسه لوكالة الصحافة الفرنسية ان «جثتي **الخوئي** والكيلدار نبشتا لاجراء عملية تشريح ثانية بعد ان قرر القضاء فتح التحقيق مجددا في قضية مقتلهما».

يشار الى ان **الخوئي**، 40 عاما، هو نجل المرجع الشيعي المعروف ابو القاسم **الخوئي** الذي فرضت عليه الاقامة الجبرية وتوفي عام 1992 في العراق. وكان **عبد المجيد الخوئي** الامين العام لمؤسسة **الخوئي** الخيرية في لندن والتي لها فروع في لندن ومونتريال وهي مؤسسة معتدلة على غرار مؤسسها اية الله ابو القاسم **الخوئي** الذي كان حريصا على ان ينادى بنفسه عن الاصوليين المتشددين.

يذكر ان **الخوئي** اغتيل في العاشر من ابريل (نيسان) الماضي في اليوم الثاني لسقوط نظام صدام حسين. واتهمت مؤسسة **الخوئي** «عملاء من النظام العراقي» بارتكاب هذه الجريمة.

صحيفة "الشرق الاوسط" لاثنين 22 رمضان 1424 هـ 17 نوفمبر
2003

بريمر: قريبا محاكمة 12 متهما باغتيال الخوئي

بغداد: «الشرق الاوسط»

أشاد الحاكم المدني الاميركي في العراق، بول بريمر بالقضاء العراقي الذي أخذ يلعب دوره المهم في حياة العراقيين. وقال انه ستتم محاكمة 12 متهما باغتيال الشخصية الدينية عبد المجيد الخوئي الذي اغتيل في مدينة النجف في العاشر من شهر ابريل (نيسان) الماضي بعد ايام قليلة من عودته من المنفى. واكد في بيان امس ان العراق الذي عرف الكثير من الظلم، يتطلع اليوم الى أن تأخذ العدالة مجراها في البلاد بدلا من الانتقام.

وقال ان القضاة العراقيين يعملون بصورة مستقلة عن التحالف وعن مجلس الحكم ويطبّقون العدالة المبنية على القانون والحقائق، وتنظر محكمة الجنايات الكبرى في الدعاوى الخطيرة.

واستعرض بريمر عددا من القضايا المنظورة أمام محكمة الجنايات الكبرى، مشيرا الى عمليات تهريب النفط التي كان يقوم بها بعض الاشخاص الى خارج العراق. واكد «لقد ذهبت تلك الايام. لقد استولت القوات البحرية التابعة للتحالف على الباخرة التجارية (نافاستار) وهي تحمل 3500 طن من الوقود وكانت متوجهة الى الخارج وتم احالة الكابتن مايكولا مازرنكو ومساعداه الاول ايفان سوسيجنكو الى محكمة الجنايات الكبرى التي ادانتهم». وتطرق بريمر الى عملية اغتيال عبد المجيد الخوئي وأوضح ان هناك 12 متهما سيحاكمون قريبا وان عقوبة السجن المؤبد بانتظار من تثبت ادانته. وقال «هناك قضايا مهمة اخرى

ستعرض على محكمة الجنایات الكبرى العراقية في غضون الاسبوع القليلة القادمة. و اشار الى ان محكمة الجنایات الكبرى «تحقق العدالة، وهي ليست فقط المصدر الوحيد للعدالة في العراق، بل يوجد هناك اكثر من 600 قاض عراقي يرأسون 500 محكمة عراقية».

صحيفة "الشرق الاوسط" الثلاثاء 15 صفر 1425 هـ 6 ابريل 2004

«التحالف» يعلن ملاحقة الصدر.. وأنصاره يتعهدون بمنع اعتقاله

بغداد: شيرزاد شيخاني واشنطن: «الشرق الأوسط» والوكالات
كشف النقاب للمرة الاولى امس عن وجود مذكرة توقيف بحق الزعيم
الديني الشاب مقتدى الصدر بتهمة وجود صلة له في عملية اغتيال رجل
الدين عبد المجيد الخوئي في ابريل (نيسان) من العام الماضي، وذلك
في الوقت الذي تجددت فيه الصدامات بين انصار الصدر وقوات

التحالف في بغداد والنجف والبصرة، فيما أكد الرئيس الأميركي جورج بوش أن بلاده لن ترضخ للاعتداءات عليها ولن تنسحب من العراق قبل إقامة الديمقراطية.

وقال المتحدث باسم سلطة التحالف دان سينور في مؤتمر صحفي أن قاضياً عراقياً أصدر أمراً بالقبض على مقتدى الصدر منذ عدة أشهر. وأعلن المتحدث باسم مكتب الصدر في الكاظمية (بغداد) أن أنصاره لن يسمحوا باعتقاله. وقال حازم الأعرجي «لن نسمح بتوقيفه لا من الأميركيين ولا البريطانيين ولا أي جهة أخرى.

وفي حين أعلن بول بريمر الحاكم المدني الأميركي في العراق أنه يعتبر الصدر خارجاً عن القانون، قال الصدر أنه يفتخر بذلك، ودعا العراقيين إلى «عدم التعاون مع المحتل في ضرب أخوانهم العراقيين» و«اتخاذ طريق وسط» وأن «لا يكونوا معتدين» لكي «لا يحصل ما لا تحمد عقباه».

صحيفة "الشرق الأوسط" الاثنين 14 صفر 1425 هـ 5 أبريل 2004

التحالف: اعتقالنا اليعقوبي لعلاقته بمقتل الخوئي

بغداد - أ.ف.ب: أكدت سلطة التحالف المؤقتة بقيادة الولايات المتحدة أمس انها اعتقلت احد المساعدين المقربين من مقتدى الصدر بسبب علاقته بمقتل رجل دين شيعي منذ عام.

وقال مسؤول كبير في السلطة ان «مصطفى اليعقوبي اعتقل نظرا لعلاقته بمقتل رجل الدين **عبد المجيد الخوئي**» الذي قتله مسلحون في النجف في 10 ابريل (نيسان) 2003 بعد ايام قليلة من عودته من لندن حيث كان يعيش في المنفى. و**عبد المجيد** هو نجل المرجع الشيعي الراحل ابو القاسم **الخوئي**.

صحيفة"الشرق الاوسط"الثلاثاء 16 جمادى الثانى 1425 هـ 3 اغسطس 2004

القوات الأميركية تطوق منزل الصدر في النجف وتشتبك مع ميليشياته

النجف (العراق) - ا.ف.ب: طوقت القوات الاميركية مساء امس منزل

الزعيم الشيعي مقتدى الصدر في مدينة النجف المقدسة وسط العراق قبل أن تغادر المكان بعد ساعة واحدة.

وقال شهود عيان ان القوات الأميركية حاصرت مساء أمس لفترة وجيزة منزل الصدر مما أدى الى مواجهات مع العناصر المسلحة التابعة له. وقد طوقت أليات مصفحة اميركية، تساندها قوات أمن عراقية، حي الزهراء في شرق المدينة حيث يقع منزل الصدر. وشوهد تصاعد دخان من المكان كما سمع دوي اطلاق النار من اسلحة رشاشة وقذائف هاون وصواريخ مضادة للدبابات.

وقامت مركبات اميركية مصفحة تساندها قوات أمن عراقية بالانتشار في حي الزهراء، شرق المدينة، حيث يوجد منزل الصدر، ومن ثم غادروا المكان بعد ساعة واحدة. وأعلن جواد كاظم مدير مستشفى الحكيم ان القتال اودى بحياة امرأة وأدى الى جرح ثلاثة أشخاص.

وكان الجيش الاميركي قال في وقت سابق ان أمر قبض عراقيا صدر ضد الصدر لعلاقته بقتل الزعيم الشيعي عبد المجيد الخوئي في النجف العام الماضي. لكن أثناء مفاوضات الهدنة التي اوقفت الاشتباكات بين ميليشيا جيش المهدي والقوات الاميركية في وقت سابق هذا العام قال مسؤولون عراقيون ان الصدر لن يواجه الاعتقال.

وكان عناصر القوة المتعددة الجنسيات قد اعتقلوا الشيخ مثال الحسناوي السبت الماضي، وهو ممثل للصدر في كربلاء، وذلك في عملية مشتركة مع الحرس الوطني العراقي.

مصدر مقرب من عائلة عبد المجيد الخوئي: شهود أبلغوا محكمة عراقية
علاقة لأتباع الصدر بالاغتيال

لندن: معد فياض والوكالات

أفاد مصدر مقرب من عائلة الخوئي بأن شهود عيان كانوا قد أدلوا
بإفاداتهم امام قاضي تحقيق عراقي منذ العام الماضي حول مقتل عبد
المجيد الخوئي، اكدوا خلالها تورط أتباع مقتدى الصدر بقتل رجل الدين
المعتدل العائد للتو من المنفى في النجف الى جانب المسؤول عن ادارة
ضريح الامام علي حيدر الرفياعي ومواطن أميركي من اصل عراقي هو
ماهر الياسري.

وكان أنصار الصدر قد حاصروا في العاشر من أبريل (نيسان) العام
الماضي الخوئي في مكتب ادارة ضريح الامام علي وخمسة من الذين
وصلوا معه من لندن لتقديم خدمات اغاثية للشعب العراقي وفتحوا النار
عليهم لساعة ونصف الساعة وقتلوا ماهر الياسري بعد ان رفعوا صور
مقتدى الصدر وهتفوا بحياته «لا امام الا الصدر» و«تعيش الحوزة
الناطقة» ثم حطموا شبابيك وابواب المكتب واوثقوا ايادي الخوئي ومن
معه وصادروا كل ما معهم من اموال وممتلكات شخصية(كاميرات
وحقائب يد) باعتبارها (غنائم).

وحسب افادة أحد الشهود امام قاضي التحقيق فان الجناة استهدفوا
الخوئي بالذات عندما فجروا قنبلة يدوية بالقرب منه ادت الى قطع ثلاثة
من اصابع يده اليسرى قبل ان يوثقوا أيادي الضحايا ويقتادوهم الى
خارج مكتب الادارة، حيث كان عدد من اتباع الصدر في انتظارهم في
باحة ضريح الامام علي، الذي يعتبره الشيعة المكان الاكثر قدسية
بالنسبة لهم وهناك بطشوا بهم بواسطة السكاكين والخناجر والسيوف
مما ادى الى مقتل حيدر الرفياعي أولا ثم عبد المجيد الخوئي.

وقال المصدر ان محكمة عراقية حققت في الحادث الذي تورط ما يقرب من 25 شخصا فيه من اتباع الصدر الذين تم اعتقال 13 منهم «اعترفوا جميعهم بأن مقتدى الصدر اصدر الاوامر بقتل عبد المجيد الخوئي والتخلص منه».

وقبل ثلاثة اشهر امر قاضي التحقيق باخراج جثة الخوئي وتشريحها مجددا اذ لم يتسن تشريحها عند دفنها في العاشر من ابريل(نيسان)العام الماضي وتم احصاء 133 طعنة سكين وخنجر وسيف في ظهره. وقال مسؤولو وزارة الداخلية العراقية أمس ان قاضيا عراقيا اصدر في الخريف الماضي امرا باعتقال مصطفى اليعقوبي مساعد مقتدى الصدر، وقال دوغلاس براند المستشار البريطاني لوزارة الداخلية العراقية «اليعقوبي موجود في سجن للشرطة العراقية، وهو متهم بالتورط في قتل عبد المجيد الخوئي أحد رجال الدين الشيعة البارزين المدافعين عن حقوق الانسان». وتابع «انه (اليعقوبي) ينتظر المحاكمة امام محكمة عراقية». واعتقلت قوات التحالف اليعقوبي في منزله بالنجف يوم السبت الماضي.

صحيفة "الشرق الاوسط" الخميس 24 صفر 1425 هـ 15 ابريل
2004

مصدر أميركي: نعم أخطأنا في العراق.. والصدر متهم باغتيال الخوئي
والحكيم

واشنطن: ريما نزيه سيداني

أكد مصدر رفيع المستوى مسؤول عن شؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأميركية خلال لقاء جرى في مبنى الوزارة بينه وبين مجموعة من الصحافيين العرب منهم «الشرق الأوسط»، ان الزعيم الشيعي مقتدى الصدر متهم باغتيال عبد المجيد الخوئي في العاشر من أبريل (نيسان) من العام الماضي، وباغتيال زعيم «المجلس الأعلى للثورة الاسلامية» في العراق السيد محمد باقر الحكيم في سبتمبر (أيلول) من عام 2003، إثر خروجه من مسجد النجف الأشرف بعد تأديته صلاة الجمعة، من خلال سيارة مفخخة مخلقة مئات من القتلى مما جعل عملية الاغتيال اشبه بـ«كربلاء ثانية».

واضاف المصدر ان أهل الجنوب العراقي «هم الذين طلبوا من الأميركيين التخلص من الصدر نظرا لخطورته البالغة». واعترف بأخطاء

ارتكبتها الأميركيون منذ الحرب في العراق في العشرين من مارس (آذار) من العام الماضي وحتى اليوم.

وحول سؤال «الشرق الأوسط» عن تصريح عضو مجلس الحكم الانتقالي نصير الجادرجي بأن العراقيين سيقاومون الأميركيين بالوردة ثم بالحجارة ثم بالسلاح، اجاب المصدر بأنه من الواضح ان العراقيين تخطوا مرحلة المقاومة بالوردة. وأكد المصدر على ان الثلاثين من يونيو (حزيران) تاريخ نهائي لتسليم السلطة للعراقيين على الرغم من كل المجريات على الساحة العراقية وبعض البطء الأميركي في مجريات التسليم، وبالمقابل اكد على بقاء أميركا في العراق من خلال سفارة أميركية كبيرة ستفتتح قريبا وستدير القوات الأميركية الباقية في العراق لخدمة الشعب العراقي وان بلاده «تدرك تماما حاجة العراق بلدا وشعبا لأميركا».

وعول المصدر على دور مبعوث الأمم المتحدة للعراق الأخضر الابراهيمي خلال عملية نقل السلطة للعراقيين وتأليف الحكومة العراقية كخطوة ثانية، وأكد على ان ما يشهده العراق اليوم هو مؤشرات لاندلاع حرب أهلية. ولم يفت المصدر الحديث عن الفرق بين أعضاء قيادة حزب البعث الذين كان لهم دور خلال نظام صدام حسين وأعضاء الحزب العاديين الذين انضموا الى الحزب من اجل المعيشة والوظيفة والمكاسب الحياتية في ظل عدم توفر خيارات اخرى. وقال ان هؤلاء «لا يشكلون أي قوة مخيفة».

صحيفة "الشرق الاوسط" الاحد 05 ربيع الاول 1425 هـ 25 ابريل
2004

قاضي التحقيق العراقي في قضية مقتل عبد المجيد الخوئي ورفيقيه
لـ«الشرق الأوسط»: شهادات الشهود واعترافات متهمين معتقلين وقرائن
مادية تؤكد توجيه الاتهام لمقتدى الصدر
لندن: "الشرق الاوسط"

أصر قاضي التحقيق العراقي رائد جوشي المكلف التحقيق في قضية
مقتل رجل الدين الشيعي المعتدل واثنين آخرين في النجف قبل عام على

موقفه بالقاء القبض على زعيم ميليشيا «جيش المهدي» مقتدى الصدر باعتباره الطرف الرئيسي المتهم باصدار الاوامر والتحريض على قتل الثلاثة والتسبب بجروح وأضرار لأشخاص آخرين، كما اعربت المستشارة القانونية الاميركية (ر.و) عن جدية سلطة التحالف في السعي لإلقاء القبض على الصدر «من أجل تحقيق العدالة وحتى يعرف الناس أهمية احترام القانون».

وقال القاضي في لقاء أجرته معه «الشرق الأوسط» في لندن التي زارها مؤخرًا بصحبة المستشارة القانونية الاميركية لتدوين افادات بعض المشتكين والشهود الذين لم يتمكنوا من السفر الى العراق حفاظا على حياتهم، انه توصل من خلال شهادات الشهود وافادات بعض المتهمين الذين القي القبض عليهم وتقارير الطبيب الشرعي الى «قناعة تامة بتوجيه تهمة اصدار الأوامر والتحريض على قتل المجني عليهم الى المدعو مقتدى محمد صادق الصدر».

واعتبر ان مسألة توليه هذه القضية في الظروف الامنية الصعبة في العراق عامة والنجف خاصة هي ليست مغامرة وانما «من أجل ان يأخذ العدل مجراه».

وتحدث القاضي جوشي عن بدايه توليه لهذه القضية قائلاً «القضاء يقوم على القانون، وبموجب المادة الاولى من قانون أصول المحاكمات الجزائية العراقي ترسم الطريق للاخبار عن الجرائم، وفي حالة ورود اي اخبار الى محكمة التحقيق في جرائم لا يقف تحريك الشكوى الجزائية فيها على شكوى مباشرة المجني عليه او من يقوم مقامه قانونا فان اي شخص يخبر عن الجريمة، من جرائم الحق العام ومنها القتل، وبمجرد ورود العلم فيها نبدأ التحقيق».

واضاف انه في يونيو (حزيران) من عام 2003 «كنا نقوم بالتحقيق في

بعض قضايا الفساد الاداري في محافظة النجف كوني كنت قاضي تحقيق النجف فوردنا اخبار من شخص نتحفظ على اسمه لاسباب أمنية حول ما جرى في العاشر من ابريل (نيسان) من ذلك العام في حرم الإمام علي من قتل ثلاثة اشخاص وإصابة أشخاص آخرين في الحادث، وعلى الفور تم تسجيل هذا الاخبار وبدأنا رحلة التحقيق وكانت شاقة بعض الشيء، حيث استمعنا الى عدد كبير من الشهود بلغ عددهم أكثر من ثلاثين شاهدا اغلبهم كانت لهم شهادات عيانية، وهناك من أدلى بشهادات تكميلية، والبعض الآخر ادلى بشهادات عما كان قبل الحادث اوضحت اوجه العدا بين المتهمين والمجنى عليهم، كما استمعنا الى شهادات ممن قام بدفن المجني عليهم وعن طريقة الدفن وموقعه مما جعلنا نحدد في البداية اماكن دفن المجنى عليهم».

وأوضح ان افادات الشهود أكدت ان القتل عبد المجيد الخوئي «اقتيد الى مكتب المتهم مقتدى الصدر وحاول الدخول ولم يستطع فطعن عدة طعنات امام مكتب الصدر وكانت طعنات مؤثرة اوصلته الى الرmq الاخير وتم سحبه من قدميه على الارض وكان لا يزال على قيد الحياة، في زقاق صغير باتجاه شارع الصادق وهناك اطلق عليه النار من قبل احد المتهمين الذين القي القبض عليهم وكل هذا حدث بجوار ضريح الإمام علي».

ويمضي قائلاً «لقد علمنا انه تم دفن كل من عبد المجيد الخوئي وحيدر الكليدار (سادن الضريح) من دون اجراء تشريح طبي بسبب الظروف الامنية التي كانت سائدة وقت ذاك بينما تم تشريح جثة ماهر الياسري (منفي عراقي كان عائداً قبل ايام من مقتله من الولايات المتحدة) لأنه كان مجهول الهوية آنذاك. ولكي نتأكد من اسباب الوفاة والطب العدلي هو الذي يثبت قانونيا اسباب الوفاة الحقيقية، تم استخراج جثتي

المجنبي عليهما الخوئي والكليدار بحضور ذويهما والطبيب المختص وارسلتا الى المستشفى لبيان اسباب الوفاة». وأكد انه دون ايضا «اقوال ذوي المجنبي عليهم كمدعين بالحق الشخصي وهم عوائل المجنبي عليهم الخوئي والكليدار والياسري وأقوال بعض المشتكين المتضررين بالحادث».

وقال قاضي التحقيق ان الكشف القانوني اجري على موقع حدوث الجريمة في مكتب الكليدار داخل ضريح الإمام علي والمنطقة المقابلة للضريح والازقة المؤدية الى مكتب المتهم مقتدى محمد صادق (الصدر) والشوارع المجاورة لهذه المنطقة، حيث اجري مرتسم كامل لمسرح الجريمة ومحل الحادث يبين كيفية وقوع الجريمة منذ بداية اخراج المجنبي عليهم من الضريح حتى النهاية، كما تم مشاهدة وتصوير آثار اطلاق النار ورفع آثار الدماء في الكليدارية بواسطة المتخصصين وأرسلت الى المختبر الجنائي».

وقال ايضا «بعد الانتهاء من الجوانب الفنية وسماع افادات الشهود والمشتكين وذوي المجنبي عليهم تم الانتهاء من التحقيق واصدار القرار المناسب بشأن احضار المتهمين، وقد توصلنا الى قناعة قانونية مؤكدة في أغسطس (آب) الماضي باصدار مذكرات القاء القبض على المتهمين وهي الطريقة القانونية لاجبار المتهمين على الحضور امام قاضي التحقيق او المحكمة». وأضاف «حتى الآن هناك اكثر من عشرين متهما ولكننا لا يمكن حصر العدد النهائي لانه مع استمرار التحقيق تظهر اعترافات لمتهمين آخرين في القضية».

وأكد قاضي التحقيق انهم لم يستخدموا اية اساليب للضغط على المتهمين لانتزاع افاداتهم وقال «للمتهم ضمانات يكفلها القانون ونحن كرجال قضاء لا نضغط على المتهم، بل نذكره بحقوقه منها السكوت وعدم

الاجابة وتوكيل محام عنه»، مشيرا الى ان القانون هو الذي اقتنع بان مقتدى الصدر هو «المتهم الرئيسي» في القضية من خلال افادات الشهود والادلة «وعلى القاضي ان يصدر مذكرة القاء القبض خاصة في الجرائم التي عقوبتها الاعدام او السجن المؤبد». وأوضح انه أصدر مذكرة القاء القبض على مجموعة من المتهمين في القضية وبضمنهم مقتدى الصدر في العشرين من اغسطس عام 2003.

وحول التأخر في تنفيذ القاء القبض على مقتدى الصدر حتى الآن قال القاضي جوشي «هناك خلط في الاوراق، فالقضاء ليس هو الجهة المسؤولة عن تنفيذ القاء القبض وانما هذه مسؤولية الشرطة او جهات تنفيذية أخرى، والقضاء قال كلمته باصدار مذكرة إلقاء القبض ومن الممكن توجيه السؤال الى سلطة التحالف عن سبب تأخيرها تنفيذ القاء القبض».

وأوضح انه كان يعرف كقاض ان بعض المخاطر والتهديدات سوف تعترضه خاصة في قضية مثل هذه «لكنني كقاض علي ان انجز عملي بما يمليه علي القانون وضميري ولم تؤثر هذه التهديدات على سير التحقيقات، فنحن نريد ان نرسي دولة قانون ويجب ان يكون العراق دولة قانون»، مضيفاً انه مدين بالدعم «للقاضي الفاضل موحان جبر الشويلي الذي كان رئيساً لمحكمة النجف وقتذاك وقتل على ايدي بعض الجبناء بسبب مواقفه الحازمة ضد المجرمين وكان يدعم قضيتنا ويشد على ايدينا خلال عملنا».

وحول صلاحية القضاء العراقي حالياً باصدار مذكرات القاء القبض والتحقيق واجراء المحاكمات في ظل الاحتلال، قال قاضي التحقيق «بموجب اتفاقيات جنيف فان القوانين في الدولة التي يتم احتلالها تبقى

سارية المفعول ما لم يتم تعليقها او يوقف العمل بها من قبل الدولة الحاكمة الجديدة، والقوانين العراقية لم يتم تعليقها باستثناء بعض النصوص القانونية بأوامر صدرت من سلطة التحالف وبقي العمل ساريا بالقوانين العراقية المعروفة بنزاهتها وعدالتها. وأود ان أذكر موضوعا مهما وهو ان الخلل لم يكن في القوانين العراقية وانما في التطبيق في ظل النظام السابق».

وأوضح قاضي التحقيق انه احال المتهمين، وبضمنهم مقتدى الصدر، في قضية مقتل الخوئي والكليدار والياسري «بموجب المادة 406 من قانون العقوبات العراقي المعدل رقم 111 الصادر في عام 1969 والعقوبة حسب هذه المادة تنص سابقا على الاعدام، وقد علقت عقوبة الاعدام حاليا بموجب أوامر من سلطة التحالف المؤقتة وحلت بدلها عقوبة السجن مدى الحياة ويقصد بها ان يقضي المتهم حياته في السجن حتى الموت، وقد احلنا جميع المتهمين وفق هذه المادة ولم نفرق بين متهم وآخر».

وأكد انه لا يتولى القضية لحماس خاص او تعاطف شخصي او بسبب ضغوط «وانما انا قاض وعلي ان انجز عملي باحسن وجه والقانون يجب ان يطبق على الجميع ويجب ان نكون جميعا تحت مظلة القانون واذا صدرت مذكرة القاء قبض فعلى المتهم ان ينفذها ويترك للقضاء ان يقول كلمته الاخيرة».

وأكد القاضي جوشي ان مقتدى الصدر «متهم وقد صدرت في حقه مذكرة بالقاء القبض، واذا كان رجلا واعيا فعليه ان يمتثل لهذه المذكرة ويحضر امام الجهات القضائية ويقدم اقواله ويبيدي دفاعه والمحكمة بعد ذلك ستقول كلمتها ونحن نضمن له الحصول على محاكمة عادلة».

من جهتها، أكدت المستشارة القانونية الأميركية (ر. و) المشرفة على

محكمة استئناف النجف، جديّة سلطة التحالف بالقاء القبض على مقتدى الصدر باعتباره «متهما في جريمة قتل»، متمنية ألا يتم انقاذ الصدر من الملاحقة القانونية بفعل اية لعبة سياسية، وقالت «انا مهتمة جدا بان يكون العراق دولة قانون. وحتى يحترم القانون الآن ومستقبلا يجب تنفيذ مذكرة القاء القبض عليه (مقتدى الصدر) ويجب ان يسري القانون على اي شخص كان».

وقالت في حديثها لـ«الشرق الأوسط» ان تأخير تنفيذ القاء القبض على الصدر يعود الى «المشاغل الكبيرة والكثيرة الملقاة على عاتق الشرطة العراقية الى جانب المخاطر التي تحيط بعملهم». وأضافت «أنا عشت فترة ستة أشهر في مدينة النجف وأحببت الناس هناك كما احببت كل العراقيين، فهم شعب ذكي وحضاري ويستحق ان يعيش في ظل دولة القانون وانا اهتم بما جرى للناس في العراق وأشعر بقربي منهم».

وأشارت الى ان مقتدى الصدر متهم وليس مذنبا «ومثله مثل اي متهم آخر عليه ان يحضر امام المحكمة ويثبت ما اذا كان مذنبا ام بريئا ويجب ان أوكد هنا ان سلطة التحالف جادة تماما في إلقاء القبض عليه وعلى كل متهم او خارج على القانون بدون التمييز بين هذا وذاك».

واختتمت المستشارة القانونية الأميركية حديثها قائلة «أنا متفائلة جدا بمستقبل العراق وان الشعب العراقي سيعيش حياة ديمقراطية في ظل دولة القانون وهذا هو الهدف النبيل الذي جعلنا نحرر العراق من النظام السابق والذي دفعني لأن أترك عائلتي واكون في العراق».

صحيفة"الشرق الاوسط"لأحد 14 رجب 1425 هـ 29 أغسطس

2004

مستشار الأمن الوطني العراقي: لدينا أدلة على وجود دعم أجنبي
للصدر

لندن: معد فياض

في أول حديث صحفي لمستشار الأمن الوطني العراقي بعد أزمة
النجف، كشف الدكتور موفق الربيعي عن أسباب فشل مهمته للتفاوض
مع الزعيم الشيعي المتشدد مقتدى الصدر إبان بداية انفجار الأزمة،
مشيرا الى ان هناك جهات اجنبية تدعم «الجماعة الصدرية».
وخرج الربيعي عن صمته الذي استمر لأكثر من ثلاثة أسابيع في حوار
مع"الشرق الاوسط"عبر الهاتف من منزله أمس، قال فيه ان الحكومة
العراقية أدارت الأزمة بصبر وحكمة وان على «جيش المهدي» أن ينحل
وينخرط في العملية السياسية في العراق».

* هل تتوقع ان الاتفاق مع مقتدى الصدر نهائي ام انه مجرد هدنة؟
- يفترض انه اتفاق نهائي. الحكومة العراقية جادة في مهمتها والوقت
ليس للمزاح او الهدنة، عندنا ملفات مهمة واستراتيجية جدا وساخنة
وينبغي الالتفات لها ولا ينبغي ان نلهو بهذه الملفات الصغيرة. نعتقد ان
هذا الاتفاق هدنة نهائية ونأمل ان ينضم «جيش المهدي» الى قانون حل
المليشيات ويسلم أسلحته الثقيلة والمتوسطة ويحتفظ بالأسلحة الصغيرة
وفق إجازات قانونية بحمل وحياسة الأسلحة. وأهم قضية للتيار الصدري
هي ان ينخرط في العملية السياسية الكبيرة التي تستوعب حتى أقصى
التيارات الدينية المتشددة.

* كيف سيتم التعامل مع الجرائم التي اقترفت؟ أمس تم العثور على 25 جثة لعراقيين تم تعذيبهم وإعدامهم في إحدى المحاكم الشرعية التابعة للصدر، كيف سيجري التعامل مع هذه الحالات؟
- الحكومة العراقية فتحت تحقيقا في هذه القضية وهناك روايتان احدهما جاءت من التيار الصدري وأخرى من الشرطة العراقية، وما علينا سوى إحالة هذه القضية الى المحاكم العراقية للتحقيق فيها ومعرفة الواقع.

* ما هي حقيقة الأنباء التي أشارت الى اختلافكم مع رئيس الحكومة الدكتور اياد علاوي وخروجكم من الحكومة او ترككم العراق للسفر الى لندن؟

- انا الان في بغداد وبقا في بغداد وفي مناصبي ولا تغيير في صلاحياتي ومسؤولياتي بأي شكل من الأشكال وأزمة النجف تجاوزتها الحكومة بجدارة.

* ألم يكن هناك خلاف مع علاوي او إطراف حكومية أخرى؟
- النقاش يحدث داخل أروقة الحكومة العراقية بشكل حر، والحكومة العراقية هي حكومة ائتلاف وطني ومؤلفة من أطراف سياسية مختلفة ومتباينة ولكنها متألّفة، وهذه الأطراف لها وجهات نظر لا أقول مختلفة ولكنها تمثل أطرافها، والقرار النهائي لرئيس الوزراء، وعندما يقرر رئيس الوزراء يصبح هذا قرار الدولة العراقية الرسمي والذي نسير عليه.

* هل أنت راض عن أسلوب معالجة أزمة النجف؟
- أعتقد ان الحكومة عالجت هذه الأزمة بحكمة وبصبر، واذا صح التعبير اقول بصبر أيوب حيث أعطت عدة فترات زمنية لحل الازمة وللحل السلمي ولا اعتقد انها وفرت أي جهد في عدم السير بالطرق السلمية ولم تأل جهدا باتباع كل الأساليب السلمية.

* كنتم مبعوثين مع أعضاء في الحكومة العراقية للتفاوض مع مقتدى الصدر، ما الذي حدث خلال هذه المفاوضات؟

- الحكومة بعثت بمستشار الأمن الوطني بدعوة من مقتدى الصدر وذهبنا وانتظرنا هناك ثلاثة أيام ولم يلتق بنا. الحكومة واضحة بأهدافها وبشكل كبير. ما نريده هو إفراغ النجف الاشراف والصحن من كل الميليشيات ومن عناصر «جيش المهدي». المسألة الأخرى هي حل «جيش المهدي» وأن تساهم هذه القوى في العملية السياسية. للأسف الحكومة حاولت أقناع أطراف كثيرة في التيار الصدري ولم توفق في ذلك لانه ليس لدى التيار الصدري رأي واحد. شعرنا اننا وصلنا الى طريق مسدود وان هناك إطارا لا تشعر بسرعة القضية وبجدية الحكومة، فعدنا الى بغداد وأبقينا الباب مفتوحا وقلنا ان الباب ما زال مفتوحا وعودتنا الى بغداد لا تعني غلق الباب أمام الحلول السلمية بأي شكل من الأشكال. الشيء الثاني الذي كنا حذرين جدا منه وحافظنا عليه هو خشيتنا ان تصاب حضرة الإمام علي بأي أذى مهما كان قليلا، ولا نريد ان نجعل سابقة ان حكومة ائتلاف وطني تؤذي مرقد الإمام.

* هل كان هناك اتفاق بين الحكومة والسيستاني حول النقاط الخمس؟

- في الحقيقة ليس لي علم بهذا الموضوع.

* كيف تبرر غيابك عن الأحداث طوال أزمة النجف.. هل كنت بالفعل مريضا، أم هو تخطيط مسبق أو انك كنت مستاء من الأمور؟

- هي مجموعة من الأمور، النقطة الأولى هي أنني عندما عدت من النجف وكان معي ثلاثة من الوزراء الذين كلفهم رئيس الحكومة وبقوا في النجف لإدارة الأمور من هناك من قبل وزير الدفاع ووزير الداخلية ومحافظ النجف. لهذا لم تكن هناك حاجة لظهوري. النقطة الثانية، أنا كنت في المستشفى. يجب الا يكون هناك شعور بانه ليس من حقنا ان نمرض.

* هل أنت متفائل بما سيحدث في النجف؟

- الذي حدث من حل سلمي، نعم متفائل، ويحقق الكثير من طموحات الحكومة، ولكن ينبغي ان نواصل العمل بالتطبيق وان نضع خطة اقتصادية متكاملة لإنعاش مدينة النجف ومدينة الصدر وخلق فرص عمل للمواطنين.

* هل تعتقد ان هناك أيادي أجنبية وراء حركة الصدر ودعمها؟

- توجد أدلة كثيرة تشير الى ان هناك أيادي أجنبية تدعم مقتدى او «جيش المهدي» او الجماعة الصدريين سواء بالنصيحة او بدعم أكثر من النصيحة والمشورة. هناك أدلة على ذلك ونحن بصدد دراستها ومعرفة مصدر هذا الدعم ومصحة تلك الجهة.

* هل لكم تسمية هذه الجهات؟

- جهات من خارج العراق لا أستطيع تسميتها في الوقت الحاضر.

صحيفة "الشرق الاوسط" الاثنين 21 صفر 1425 هـ 12 ابريل 2004

مؤسسة الخوئي تدعو إلى محاكمة قتلة عبد المجيد الخوئي أمام محكمة عراقية

لندن - أ.ف.ب: طالبت مؤسسة الامام الخوئي في لندن امس بمحاكمة عادلة امام المحاكم العراقية للذين قتلوا رجل الدين الشيعي عبد المجيد الخوئي في النجف في 10 ابريل (نيسان) 2003.

وقال غانم جواد احد مسؤولي مؤسسة الخوئي في العاصمة البريطانية ان المؤسسة «تحترم رغبة العائلة في الحصول على حكم عادل امام محكمة عراقية، وان يتولى القضاء العراقي التحقيق واصدار الحكم». وكانت المؤسسة قد اعلنت في بيان في الثامن من الشهر الحالي انها تحترم حقوق عائلات الشهداء في طلبها اجراء محاكمة عادلة بحق المتهمين.

وقالت انه من الضروري اعلان كلمة العدالة عبر القضاء العراقي. وقد قتل عبد المجيد الخوئي، نجل اية الله العظمى ابو القاسم الخوئي بعد ايام من عودته من المنفى في لندن.

واعتقلت سلطات التحالف عددا من الأشخاص المتهمين بتنفيذ عملية القتل. ووجهت الاتهامات ايضا الى مقتدى الصدر وأحد مساعديه، هو مصطفى اليعقوبي الذي اعتقلته قوات التحالف منذ ايام، باصدار الأوامر او التحريض على القتل.

من جانب آخر، اندلع حريق اول من امس في خيمة نصبت امام المسجد التابع لمؤسسة الخوئي في لندن لاستقبال المصلين الشيعة خلال احياء ذكرى اربعينية الامام الحسين، وقال ناطق باسم الشرطة امس ان الحريق «يعالج على انه قضية مشبوهة».

وقال محسن موسوي مدير المؤسسة ان «الحريق اندلع قرابة الرابعة صباحا»، مشيرا الى ان «الشرطة هي التي ابلغتني بالامر». وأشار الى انه اول حريق من نوعه يندلع في مقر المؤسسة.

وكانت الخيمة نصبت لاستقبال المصلين القادمين للمشاركة في احياء
ذكرى اربعينية الامام الحسين. وحضر مئات الشيعة المقيمين في
بريطانيا من رجال ونساء للمشاركة في الاحتفالات التي جرت في نهاية
الامر داخل مسجد المؤسسة.

عائلة عبد المجيد الخوئي تخشى إطلاق سراح قتلته
مصدر في المحكمة الجنائية يؤكد سريان مفعول قرار القبض على
مقتدى الصدر و24 من أتباعه
لندن "الشرق الأوسط"

أعربت عائلة رجل الدين الشيعي العراقي المستقل عبد المجيد الخوئي
الذي اغتيل في النجف منذ عامين، عن خشيتها من إطلاق سراح
المتهمين بقتله بعد إعلان شروان كامل الوائلي عضو الجمعية الوطنية عن
كتلة «الائتلاف العراقي الموحد» وأحد أعضاء اللجنة البرلمانية المكلفة
بمتابعة إطلاق سراح المعتقلين من التيار الصدري، ان اتفاقا جرى مع
الحكومة

العراقية والقوات المتعددة الجنسيات لإطلاق سراح 300 من معتقلي
التيار الصدري. وقال أحد أفراد عائلة الخوئي لـ«الشرق الأوسط» أمس
«نخشى ان يكون ملف قضية مقتل عبد المجيد قد اغلق»، مشيراً الى
انهم «يثقون بنزاهة القضاء العراقي وعدالته» وانهم «يريدون ان تأخذ
العدالة مجراها في هذا الموضوع». وكان الوائلي قد أكد لـ«الشرق
الأوسط» الخميس الماضي ان لجنة المتابعة «اجتمعت مع مدير عام
الدائرة الامنية في وزارة الامن الوطني والممثل السياسي للقوات المتعددة
الجنسيات اسبوع الماضي واتفقت على اطلاق سراح المعتقلين من التيار
الصدري».

وفي اتصال هاتفي لـ«الشرق الأوسط» مع مسؤول في محكمة
الجنايات في بغداد، أكد المسؤول ان قرار الاتهام الموجه الى مقتدى
الصدر و24 من اتباعه في قضية مقتل الخوئي في مدينة النجف في
العاشر من مارس (اذار) 2003 ما زال «نافذاً وفاعلاً» وأن أمر القبض

على الصدر واتباعه «نافذ المفعول قضائياً وليس هناك أي تأجيل او سحب للقضية»، مشيراً الى ان «اوراق التحقيق انتهت منذ العام الماضي وقد أصدرت المحكمة الجنائية قراراتها القطعية».

وقال ممثل عن عائلة الخوئي انهم ما زالوا في انتظار ان تأخذ العدالة مجراها لمعاقبة من شارك في قتل الخوئي، مشيراً الى ان «القاضي رائد جوشي الذي يعمل حالياً في المحكمة الجنائية الخاصة كان قد حقق في القضية واستدعى شهود العيان واصدر قرار اتهام بحق مقتدى الصدر وبعض من اتباعه، كما كان (جوشي) قد اصدر قراراً بإلقاء القبض على الصدر، وادع السجن بالفعل بعض الذين ثبتت مشاركتهم في الجريمة، لكن تم اطلاق سراحهم خلال احداث النجف عندما وقعت تحت سيطرة اتباع الصدر».

ونفى الممثل ما أشيع عن تنازل عائلة الخوئي الدعوى، وقال «هذا غير صحيح، فنحن مصرون على معاقبة كل من ساهم في قتل الخوئي ونريد معرفة سبب عدم تنفيذ قرار القاضي بالقبض على الجناة لا سيما اننا نحيا في عراق جديد يسود فيه القانون ويكون فيه القضاء هو الحكم الفاصل».

وقد أقيمت مجموعة من الفعاليات الشعبية والثقافية داخل العراق وخارجه في الذكرى الثانية لاغتيال رجل الدين المستقل عبد المجيد الخوئي الامين العام لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية في لندن.

ففي العراق شهدت النجف والديوانية والكوت والبصرة مجالس عزاء في المناسبة. كما اقيمت امسية استذكارية بالمناسبة في الكويت وكذلك في مقر مؤسسة الخوئي الخيرية في لندن شارك فيها عدد كبير من المثقفين العراقيين وغير العراقيين.

صحيفة "الشرق الاوسط" الاثنين 10 رجب 1426 هـ 15 اغسطس
2005

إطلاق سراح اثنين من كبار مساعدي مقتدى الصدر

النجف - ا.ف.ب: أعلن مسؤول من مكتب رجل الدين الشيعي المتشدد، مقتدى الصدر، أمس ان الحكومة العراقية أطلقت سراح اثنين من كبار مساعدي الصدر. وقال صاحب العامري، الامين العام لمؤسسة شهيد الله التابعة لمكتب الصدر ان «الحكومة العراقية أطلقت سراح اثنين من كبار مساعدي السيد مقتدى الصدر، وهما الشيخ مصطفى اليعقوبي والشيخ رياض النوري». وكان النوري واليعقوبي اعتقلا في ربيع 2004. وقد اعتقل اليعقوبي بتهمة التورط في قتل رجل الدين الشيعي عبد المجيد الخوئي الذي قتله مسلحون في النجف في العاشر من ابريل (نيسان) 2003 بعد ايام قليلة من عودته من لندن حيث كان يعيش في المنفى. وقال هذا المسؤول ان الافراج عن الشيخ اليعقوبي جاء بعد ان قررت محكمة في بغداد وقف الملاحقات ضده نظرا لعدم كفاية الأدلة على تورطه في قتل الخوئي. كما قررت وقف الملاحقات ضد الشيخ النوري للسبب نفسه.

صحيفة "الشرق الاوسط" الاثنين 18 جمادى الثاني 1426 هـ 25
يوليو 2005

القاضي جوشي: قرار القبض على مقتدى الصدر بجريمة مقتل **عبد
المجيد الخوئي** ما يزال ساري المفعول
بغداد "الشرق الاوسط"

أكد القاضي رائد جوشي سريان قراره بالقبض على مقتدى الصدر،
باعتباره متهما بجريمة اغتيال **عبد المجيد الخوئي** في العاشر من أبريل،
في صحن الامام علي بمدينة النجف.

وقال جوشي، الذي كان قد حقق في جريمة قتل **الخوئي** «كنت قد
أصدرت قرارا بالقبض على مقتدى الصدر مع مجموعة من اتباعه
المتهمين بهذه الجريمة، والقرار ما يزال ساري المفعول، وان ملف القضية
أحيل الى محكمة الجنايات المركزية.

واشار جوشي الى انه انتهى من هذه القضية منذ فترة طويلة، وقال «لا أدري ما هي اجراءات المحكمة، ولماذا لم ينفذ قرار القبض ولكم ان تسألوا محكمة الجنايات المركزية».

صحيفة"الشرق الاوسط" الجمعة 22 جمادى الثانى 1426 هـ 29 يوليو 2005

طالباني يثني على أداء المحكمة المكلفة محاكمة صدام ومساعديه والجلبي يجدد مساعيه لإقصاء القاضي جوشي كسبا لموقف مقتدى الصدر

بغداد: جون بيرنز وأ.ف.ب

أثنى الرئيس العراقي جلال طالباني أمس، على أداء المحكمة الجنائية العراقية المختصة بمحاكمة الرئيس المخلوع صدام حسين، وكبار مساعديه.

وقال بيان لديوان الرئاسة العراقية، ان طالباني قال خلال استقباله القاضي رائد جوشي، رئيس هيئة التحقيق، إن «الإجراءات المتبعة في

التحقيق، حضارية وانسانية، ولا تعتمد على الابتزاز والضغط والإكراه في أخذ الاعترافات، كما كانت تفعل سلطات التحقيق في النظام البائد».

ووعد طالباني بدعم عمل هيئة التحقيق في المحكمة الجنائية المختصة، وقال «سأبذل جهدي لكي ينالوا الاحترام لدى الجهات الحكومية الأخرى، وخاصة لجنة اجتثاث البعث، وأمل أن يحظى أعضاء المحكمة، بالتقدير والاحترام، لجهودهم التي بذلوها في سبيل تحقيق العدالة».

من جهته، أوضح جوشي أن «المحكمة تحقق وفقا للأدلة والوقائع المتوفرة لديها، وهي تتعامل مع المتهمين بشكل يراعي حقوق الانسان، وتكفل للمتهم حق الدفاع عن نفسه، وأن كافة الضمانات القانونية المنصوص عليها في قانون المحكمة، وقانون المحاماة، متوفرة للمتهمين، من ضمنها حق توكيل محام».

ونفى جوشي الشائعات، التي تتحدث عن إقصائه من منصبه في المحكمة، وقال «اننا مستمرين في عملنا».

وكان عدد من النواب الشيعة في الجمعية الوطنية العراقية (البرلمان)، وجهوا انتقادات لجوشي، معتبرين أنه أحد أعضاء حزب البعث المنحل. كما انتقد رئيس الحكومة ابراهيم الجعفري علنا، قضاة المحكمة، وقال إنهم تأخروا في القيام بمهمتهم، خصوصا فيما يتعلق بمحاكمة صدام، الذي قبض عليه الجيش الأميركي في منتصف ديسمبر (كانون الأول) 2003.

وأكد مساعدون لنائب رئيس الوزراء أحمد الجلبي (شيوعي) الثلاثاء الماضي، أنهم يخططون للتقدم أكثر في مساعيهم الهادفة إلى عزل القاضي جوشي من منصبه. وقال علي فيصل، إن القاضي جوشي، هو الأبرز الذي يطالبون بإقصائه بين قائمة تضم 19 قاضيا ووكيل نيابة

ومسؤولاً قانونياً. وأضاف فيصل أن هؤلاء هم أعضاء سابقون في حزب البعث، وبالتالي فليس مسموحاً لهم قانونياً أن يعملوا في المحكمة. وقد نجح جوشي، 34 سنة، في ظهوره الأول في التحقيق الابتدائي، الذي جرى مع صدام في يوليو (تموز) من العام الماضي، ولفت إليه الانتباه، وتمكن من مواجهة تحدي صدام بقدر من اللامبالاة، أثارت إعجاب العراقيين.

ويوم الاثنين الماضي، قام الأميركيون العاملون مع المحكمة، بمساعيهم لقطع الطريق على الجليبي، من تحقيق ما يصبو إليه في هذا المجال، من خلال طرح طلبهم هذا عبر زلماي خليلزاد، السفير الأميركي الجديد، الذي قال للصحافيين إنه حث المسؤولين العراقيين الكبار، خلال أول محادثات رسمية له معهم، على منع وقوع هذا التطهير الإداري لقضاة المحكمة، لما سيتركه من أضرار كبيرة، وأضاف «إنهم وافقوا على عدم القيام بأي شيء، يمكن أن يقوض استقلالية المحكمة».

ويقول مسؤولون قانونيون في المحكمة الخاصة، إنهم مقتنعون بأن الجليبي، الذي كان البنتاغون يفضل، كي يكون خليفة صدام في حكم العراق، يستخدم قضية انتماء جوشي سابقاً الى حزب البعث، للتغطية على مناورة سياسية يقوم بها، تهدف إلى حماية رجل الدين الشيعي المتشدد، مقتدى الصدر، الذي أصبح الآن الشريك السياسي الجديد للجليبي. وهؤلاء المسؤولون القانونيون، الذين رفضوا الكشف عن هوياتهم، خوفاً على وظائفهم وانفسهم، قالوا إنهم على قناعة بأن الجليبي أراد أن يعاقب القاضي جوشي على دوره في إصدار مذكرة اعتقال، بحق مقتدى الصدر عام 2003 بتهمة إصدار الأوامر، بقتل رجل الدين الشيعي المعتدل عبد المجيد الخوئي، وهي مذكرة أوقف تنفيذها من قبل المسؤولين العراقيين، كجزء من اتفاق أنهى تمرد الصدر المسلح العام

الماضي. وتحالف الجلبي، الذي يفتقد إلى الدعم الشعبي في العراق، مع الصدر في الانتخابات العامة التي جرت في يناير (كانون الثاني) الماضي، مما جعله يصبح أحد أقطاب الحكومة الانتقالية الحالية. ويقول سياسيون عراقيون إنهم مقتنعون من أن الجلبي، الذي حاول أن يكون رئيس الحكومة الحالية، يسعى لأن يصبح رئيسا للحكومة بعد الانتخابات القادمة، التي ستجري في نهاية العام. وللوصول إلى هذا الهدف، فإنه بحاجة ماسة إلى علاقته مع مقتدى الصدر.

* خدمة «نيويورك تايمز»

صحيفة "الشرق الاوسط" الاثنين 01 شعبان 1426 هـ 5 سبتمبر
2005

مؤسسة الخوئي تكلف هيئة قضاة دوليين لمتابعة قضية مقتل عبد المجيد
الخوائي المتهم فيها مقتدى الصدر

لندن: "الشرق الاوسط"

كشف جواد الخوئي، الأمين العام المساعد لمؤسسة الخوئي الخيرية في لندن، ان المؤسسة كلفت هيئة قضاة دوليين لمتابعة قضية مقتل عبد المجيد الخوئي، الامين العام السابق للمؤسسة في النجف في العاشر من ابريل (نيسان) عام 2003 والتي اتهم فيها رجل الدين الشيعي المتشدد مقتدى الصدر وانصار له، مؤكدا عدم احقية أي جهة في اغلاق ملف القضية، بمن فيها الحكومة العراقية الحالية، التي انتقد اداءها فيما يتعلق بموضوعي الخدمات والأمن، محملا اياها والارهابيين مسؤولية فاجعة جسر الأئمة. وأخذ على بعض الاحزاب الاسلامية استغلالها اسم المرجعية الدينية في العراق.

وقال الخوئي لـ«الشرق الأوسط» أمس في أول حديث له لمطبوعة عربية منذ تعيينه امينا عاما مساعدا لمؤسسة الخوئي «كلفت المؤسسة لجنة قضاة دوليين لمتابعة قضية مقتل الشهيد عبد المجيد الخوئي ورفيقيه الشهيدان حيدر الرفيعي وماهر الياسري في النجف»، مشددا على «ايماننا الكامل بعدالة ونزاهة القضاء العراقي الذي كان قد حقق في القضية واصدر أوامره الواضحة بالقبض على الجناة وهم مقتدى الصدر وبعض من اتباعه، ونحن نعرف حسب تأكيدات المحكمة الجنائية المركزية ان القضية في ادراج المحكمة ولم تغلق ملفاتها». وأضاف الخوئي قائلاً

«ان هيئة القضاة الدولية المكلفة على اتصال بالجهات القضائية العراقية لمتابعة القضية، وتكليفنا لها لا يعني اننا نشك في نزاهة قضائنا، بل لتلافي الظروف السياسية المؤقتة التي تعطل البت في هذه القضية».

وأنتقد الامين العام المساعد لمؤسسة الخوئي الخيرية خطوة اطلاق سراح بعض المتهمين رسميا في الجريمة من قبل الحكومة العراقية المؤقتة، وقال «ان اطلاق سراح بعض الذين وجهت اليهم التهمة رسميا من قبل هيئة قضاء عراقية نزيهة لا يعني إنهاء القضية او نهاية المطاف، فالكل يعترف بأن عبد المجيد الخوئي هو أول شهيد عراقي بعد سقوط نظام صدام حسين قدم حياته تضحية للعراق وللشعب العراقي بينما كان في مهمة انسانية لمساعدة أهله وأبناء شعبه، وهذا موضوع لا يمكن تجاهله، ولكن ان يتم غض النظر او التسامح مع الجناة في ظل ظروف سياسية طارئة لا يعني إغلاق الملف، ونحن مصررون ومعنا قيادات وحركات سياسية داخل العراق، على الاستمرار بمتابعة هذه القضية حتى يأخذ الجناة قصاصهم العادل حسب القوانين الجنائية العراقية».

وحذر الخوئي الحكومة العراقية او اية جهة اخرى من اغلاق هذا الملف، وقال «لا اعتقد ان الحكومة العراقية تجرأ على اتخاذ خطوة مثل غلق ملف هذه القضية، وهي مسألة دم واتخاذ مثل هذا القرار يعني انها(الحكومة) تتجاهل القضاء وتعارض طروحاتها في ان العراق دولة مؤسسات وقوانين لدولة تحترم حرية ونزاهة القضاء، بل تبرهن على انها تمارس ذات الاساليب التي كان يتبعها النظام السابق عندما ألغى دور المؤسسات القضائية وراح يتصرف بصورة فردية بعيدة عن القوانين».

وأعتبر الخوئي «عدم القبض حتى الآن على مقتدى الصدر جاء لظرف سياسي طارئ، وهذا الظرف سيزول بالتأكيد»، وقال «أي شخص يدعي عدم مسؤوليته بالاشتراك في جريمة قتل الخوئي عليه الذهاب الى

المحكمة ويبرهن براءته، ولكن الخوف من هذه الخطوة وعدم اتخاذها واللجوء الى الوساطات لغلق القضية يؤكد تورطه في هذه الجريمة، ونحن نقول ان التهرب والتوسط والتهديد لا يعني أي شيء بالنسبة لنا والموضوع يتعلق بدم انسان بريء وكلنا ثقة بان نزاهة القضاء العراقي هي التي ستنتصر في النهاية ما دام العراق سيحكمه نظام ديمقراطي دستوري، وحتى نبرهن ان للقضاء العراقي استقلاليته وللقوانين قوتها الفاعلة ونطمئن الجميع ان هذه القضية لن تغلق وليس بإمكان احد اغلاقها والوقوف بوجه القضاء».

صحيفة"الشرق الاوسط" الاربعاء 28 شوال 1426 هـ 30 نوفمبر
2005

العراق.. ماذا عن إرهاب ذوي الثياب السود
رشيد الخيون

ظهر على شاشة إحدى الفضائيات (أبريل 2003) رجل معمم يهتف ضد الاحتلال، ويحرض على حجاب النساء، معلناً أنه وكيل الصدر ببغداد. ولما اعتقله الجيش الأمريكي طالب باسترجاع كرامة عمامته التي سقطت على الأرض. وثأراً لعمامته استبدل مطلب تحرير العراق بما يثير حفيظة العوام، وهو دحرجة عمامته من قبل الجندي الأمريكي. لكن بعد تحريره من الاعتقال غاب الشيخ محمد الفرطوسي غياباً تاماً،

ولم يعد يذكر اسمه لا في الصحافة ولا بالطرقات التي شغلها مهدياً ومعربداً. قيل يومها: أُخرج له ملف من دوائر الأمن السابق أسكته وغيبه حتى هذه الساعة. هناك المئات مثل هذا الشيخ دخلوا الحوزات الدينية بترشيح من النظام السابق، وشقوا طريقهم إلى الوجاهة الدينية، وأخذوا يمارسون سلطة البعث السابقة بغطاء ديني، والأمر لا يحتاج سوى عمامة وجبة، وقليل من الغوغاء.

أول عمل قامت به تلك الجماعات، المتسترة بالعمائم والجبب الحوزوية، قتل السيد عبد المجيد الخوئي والسيد حيدر كليدار الحضرة العلوية. والقصة كما يرويها المطلعون من النجفيين، أن الكليدار ضمن مهامه الرسمية كعضو في المجلس (الوطني) كان يسلم هؤلاء هدايا الدولة الشهرية سراً، فكان قتله، ومحو الأثر من أول المهام. أما قتل عبد المجيد الخوئي فيرتبط في المنافسة على الوجاهة، فالرجل كان واعداً، سبقتة منزلته الدولية وفكره النير وعفة لسانه وهيبته والده إلى النجف. ورغم الإرهاب والعنف، الذي سببته تلك الجماعات للنجف ومدينة الثورة والبصرة وغيرها من مدن العراق، إلا أن أحزاباً دينية حرصت على الاستفادة منهم في الانتخابات، وفرض الشعائر الدينية على الشارع العراقي، لذا سكتت عن قتل عبد المجيد الخوئي، وعن احتلال الحضرة العلوية، وضحايا المحكمة الشرعية، وقتل النجفيين، وتغيير اسم مدينة الثورة إلى الصدر خارج القرار الرسمي، لتصبح عاصمة الأتباع جيش المهدي من ذوي الثياب السود، يسIRONها كيفما شاءوا، دولة قائمة بذاتها. ومعلوم أن الهيمنة على أكثر من مليوني عراقي، هم سكان المدينة، وعزلهم عن بغداد لا ينتظر منها غير تجييش العصابات، وتأصيل عبادة الأفراد.

في لقاء بلندن سألت إحدى الحاضرات الرئيس جلال طالباني حول

مصير دم مجيد الخوئي، مع علمها أن التحقيق قد اكتمل، لكن المتورطين مازالوا يصلون ويجولون أمام أنظار آل الخوئي وذوي ضحايا إرهاب جيش المهدي. أجاب الطالباني: لا تسألوني عن هذا الأمر بل اسألوا الائتلاف الشيعي، ويعني المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة. هنا تأتي إشكالية غياب الدولة، وحضور الطوائف، من أن رئيسها لم يتمكن من تطيب قلوب المنكوبين بدماء أعزتهم. وأن الأحزاب الأخرى لا تتأخر من استبدال جريمة القتل بتأييد أو اتقاء شر. وإذا كان التعامل كما نراه مع دم ابن إمام الطائفة الكبير فمن دماء من لا عشيرة ونسب عال لهم، مثل اللذين قتلوا في مقر الحزب الشيعي العراقي مؤخراً بمدينة الثورة بسبب الدعاية الانتخابية؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل سيلازم أحد أزمات النظام السابق على رفض المحاكمة على قتل أو سلب، وأن هناك من المطلوبين بالدماء يتصدرون ائتلافات الانتخابات ويدخلون الحكومة؟ العدالة واحدة لا تتجزأ، والقتل هو القتل أمام سيادة القانون، مهما تباينت المسببات والدواعي. نعم، ممارسة تلك الجماعات ضرب آخر من ضروب الإرهاب التي تمارس على العراقيين في حياتهم اليومية، سقط بفعله المئات، وسجلت مقاتلتهم حوادث ضد مجهول، مع أن القاتل مرصود ومشخص، وكان من ذوي الثياب السود. قتلوا عراقيين بسبب سماع أغنية، أو لرحلة طلابية مختلطة، أو لعدم ارتداء الحجاب (الشرعي)، ولتهمة بتناول الخمر أو التجارة بها.

أخذت تلك الجماعات تقيم الحدود على أهوائها، دولة داخل دولة، ورغم تلك الجرائم فمنهم نُصب الوزراء والمديرون العامون، والمتسيدون في دوائر الأمن. باتت تلك الجماعات مدللة من قبل السياسيين، وأخذوا يصنفون الأتباع بإتباع الصدر الأول والصدر الثاني والصدر الثالث.

لكن مَنْ يعرف محمد باقر الصدر حق المعرفة، وهو الإنسان الزاهد المتواضع، يرى أن هناك متاجرة باسمه، ولا أظن الرجل يهبط إلى مستوى الفخر بتعليق صورته محل صور صدام حسين، أو السعي إلى فرض اسمه على مدينة سلب صدام اسمها الحقيقي ليضع اسمه عليها، وهي مدينة الثورة. لم يكتف ذوي الثياب السود بهذا بل أخذوا يفرضون اسم المهدي على اسم شارع أبي نواس التاريخي. وأخذت صور محمد صادق الصدر وولده مقتدى تسد بوابات المدن والأحياء، وما يجري تحت هيمنة الصور من مصادرة لآراء الناس.

يجري بمدينة الثورة إرهاب حقيقي، يأخذ بالرقاب، وإذلال بهيمنة الغوغاء، يتزامن مع دوي التفجيرات، والأجساد المفخخة ببغداد والحلة وكركوك. جماعات تختطف وتحرر ضحاياها لتسجل بطولة كاذبة لها، وتتشرك تارة مع الشرطة في عمليات المداهمات، وتارة ضدها، ليس لها من صفة رسمية غير أنها من أتباع الصدر. استقبلت مدينة الثورة الدعاية الانتخابية باقتحام ذوي الثياب السود الملثمين مقر الحزب الشيوعي العراقي، فقتلت عبد العزيز جاسم وياس خضير، وهما يجلسان إلى طاولة الاستعلامات، وحصل الحادث أمام أنظار المارة. لكن مَنْ يجراً على الاعتراض أو المدافعة، فهناك كتائب من الملثمين، بعد أن سحبت الدولة يدها عن مدينة كاملة وسلمتها لهم اسماً وإدارة. وبطبيعة الحال يتوهم المنتظرون من تلك الجماعات خيراً، فهؤلاء يعيشون عقدة الجريمة، كلما تورطوا بدماء حاولوا التطهر منها بدماء أُخر، هذا والحكومة لا كلمة لها ولا موقف؟ عاد أصحاب الثياب السود تسليحهم، بعد أن سلموا أسلحتهم بتصميم من الحكومة السابقة أمام أنظار العالم. عموماً، هناك منافسة ليست بالخفية لكسب هذه الجماعات، والغرض استخدامهم في التهديد والإقلاق، والتأثير على سير

الانتخابات، فهم جماعات متهورة لا تتأخر من تمزيق لافتة دعائية، أو عرقلة تقدم منافس في صناديق الاقتراع. وإذا كانت فاتحة الدعائية الانتخابية قتل وتمزيق لافتات، من قبل أتباع المرشحين، فكيف سيكون الحال يوم الانتخاب، وفي مناطق يجوبها ذوي الثياب السود المثلثين؟ هذا إلى جانب الإرهاب المبرر بالمقاومة.

ابراهيم الجعفري: اعرف ان هناك ملفا في قضية اغتيال الخوئي وهو من اختصاص السلطة القضائية

من حديث لابراهيم الجعفري عندما كان رئيسا للحكومة العراقية ل"الشرق الاوسط" الاربعاء 10 شعبان 1426 هـ 14 سبتمبر 2005 * هل اغلق ملف جريمة مقتل عبد المجيد الخوئي بعد ان تم اطلاق سراح اثنين من المتورطين في الجريمة؟

- لم يرفع الملف الينا بشكل رسمي. ولو عرض علينا لا نستطيع البت فيه كون القضية مرتبطة بالسلطة القضائية وأنا اعتر اننا نعمل على تجسيد الفصل بين السلطات، ونحن نحمي هذه السلطات من التدخل او التأثير عليها. ويجب احقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذه الدولة فيها القانون فوق كل شيء وبالنسبة لي كرئيس وزراء لا استثنى احدا في العراق وأي شخص تطاله الشبهات من حق القضاء ان يسأله ويحقق معه، ولكن بصورة متحضرة وصحيحة حتى تجمع القرائن وفق قاعدة المتهم بريء حتى تثبت إدانته. أنا اعرف ان هناك ملفا في هذه القضية (اغتيال الخوئي)، وهو من اختصاص السلطة القضائية وأنا أحمي القضاء العادل، والقرارات التي يصل لها القضاء يجب ان تطبق بتفاصيلها، ولن اسمح بأن يتدخل كائن من كان في شؤون القضاء وليس من حقي او من حق أي شخص التدخل في شؤون القضاء.

صحيفة "الشرق الاوسط" الاثنين 25 ذو القعدة 1426 هـ 26 ديسمبر
2005

مصدر قضائي عراقي لـ«الشرق الأوسط»: ملف «مقتل الخوئي»
اختفى

قال إن الجعفري استخدم القضية لكسب تأييد الصدر

لندن: "الشرق الاوسط"

كشف مصدر قضائي عراقي بارز لـ«الشرق الأوسط»، اختفاء الملف

الاصلي للتحقيق في جريمة اغتيال رجل الدين الشيعي عبد المجيد الخوئي، في مدينة النجف في العاشر من ابريل (نيسان) 2003، المتهم فيها الزعيم الشيعي الشاب مقتدى الصدر وبعض انصاره، مع مذكرة الاعتقال بحقهم التي اصدرها قاضي التحقيق في النجف آنذاك رائد جوشي، القاضي حاليا في المحكمة الخاصة بالرئيس المخلوع صدام حسين واركاز نظامه.

وقال المصدر لـ«الشرق الأوسط» في لندن امس، ان «حكومة ابراهيم الجعفري وراء اختفاء الملف الاصلي، الذي يدين الصدر حسب شهود عيان، ووثائق مهمة بينها تسجيل (فيديو) وصور ووثائقية وتقارير طبية»، وحسب المصدر فقد «تم استبدال الملف بآخر يحمل شهادات اشخاص لا علاقة لهم بالحادث يبرئون فيه موقف الصدر من الجريمة، التي اشرف بنفسه على تنفيذها، في صحن الامام علي في مدينة النجف الاشرف، والتي راح ضحيتها اضافة الى الخوئي رجل الدين حيدر الكليدار وماهر الياسري».

وقال المصدر، «هذا الملف كان بمثابة ثمن وقوف الصدر الى جانب ابراهيم الجعفري في الانتخابات، وسبب دعمه الحالي له لان يحتفظ برئاسة الحكومة المقبلة». وكان الصدر قد ظهر قبل حوالي اسبوع في تسجيل تلفزيوني الى جانب الجعفري خلال القاء الاخير كلمة له في النجف. و اشار المصدر الى ان الجعفري كان قد وعد الصدر باغلاق ملف الخوئي، في الوقت الذي كان فيه رئيس الوزراء العراقي قد صرح في مناسبة سابقة لـ«الشرق الأوسط» ان «ملف الخوئي لم يرفع الينا بشكل رسمي.. ولو عرض علينا لا نستطيع البت فيه كون القضية مرتبطة بالسلطة القضائية».

واكد المصدر ان «احمد الجلبي رئيس المؤتمر الوطني، كان هو الاخر قد

لعب على ورقة ملف اغتيال الخوئي، فبعد ان كان وعد عائلة الخوئي، خلال زيارته لمؤسسة الامام الخوئي في لندن، بالقبض على الصدر، وعد بعد ايام خلال لقائه الصدر باغلاق ملف القضية». وكان الجليبي قبيل الانتخابات الاخيرة يأمل بدعم قوي من الصدر له، فبالاضافة الى وعده باغلاق ملف جريمة مقتل الخوئي قام باهدائه سيارة مارسيدس محصنة ضد الرصاص حسب مواصفات حلف شمال الاطلسي (الناتو)، يبلغ سعرها نصف مليون دولار. يذكر ان عائلة الخوئي كانت قد اعلنت، ولاكثر من مرة، عدم تنازلها عن القضية مطالبة بملاحقة الجناة قضائيا.

اياد علاوي: قضية اغتيال الخوئي يجب ان تحل اما قانونيا او عشائريا

من حديث للدكتور ايام علاوي ل"الشرق الاوسط"- الاثنين 04 ربيع
الاول 1427 هـ 3 ابريل 2006

*اليوم يكرس لمقتدى الصدر باعتباره زعيما سياساي وفي ذات الوقت هو
مطلوب قضائيا باعتباره متهما بقتل رجل الدين **عبد المجيد الخوئي**
(وحيدر الرفيعي وماهر الياسري في النجف عام 2003)، كيف يستقيم
ذلك في دولة تحرص على سيادة القانون والقضاء؟

- لا شك انه(مقتدى الصدر) موجود في الساحة السياسية وله الوجود
الايوسع في قائمة الائتلاف وتم التعامل معه بايجابية من قبل المرجعية
ومن قبل القوى المشكلة للائتلاف، فأصبح جزءا من العملية السياسية،
في اعتقادي يجب حل القضية القانونية ولا يجب ان تبقى معلقة ويجب
ان تحل بأسرع وقت وضمن الأعراف الموجودة، أما قانونيا او عشائريا.

صحيفة "الشرق الأوسط" الاثنين 11 ربيع الأول 1427 هـ 10 أبريل
2006

مصدر قضائي عراقي: مذكرة القبض على مقتدى الصدر ما زالت نافذة
جواد الخوئي لـ«الشرق الأوسط»: لن نتنازل عن حقنا في متابعة قتلة
عمي

لندن: «الشرق الأوسط»

أكد جواد الخوئي، الأمين العام المساعد لمؤسسة الامام الخوئي الخيرية
في لندن، أن عائلته لن تتنازل عن حقوقها في قضية مقتل عمه عبد
المجيد الخوئي في مدينة النجف في العاشر من ابريل (نيسان) 2003،
من قبل انصار مقتدى الصدر. في حين أكد القاضي رائد جوشي، الذي
كان قاضي تحقيق محكمة النجف ويتراًس حالياً الهيئة التحقيقية لمحكمة

الجنايات العليا الخاصة بمحاكمة الرئيس المخلوع صدام حسين وأركان نظامه، أن مذكرة قضائية صريحة كانت قد صدرت عن محكمة النجف تقضي بالقبض على مقتدى الصدر وبعض من أنصاره لتورطهم بجريمة قتل الخوئي. فيما أشار مصدر قضائي الى ان هذه المذكرة ما زالت نافذة المفعول. ونفى جواد الخوئي أن تكون عائلته قد تنازلت عن قضية مقتل عمه، مشيراً الى انه كان قد كلف هيئة قضائية دولية للتحقيق في قضية مقتل الأمين العام لمؤسسة الخوئي في النجف عام 2003 وتفعيل القضية أمام القضاء العراقي «الذي لا نشك في نزاهته».

وقال الخوئي لـ«الشرق الاوسط» أمس بمناسبة الذكرى الثالثة لمقتل عمه عبد المجيد الخوئي، إن «شائعات كانت قد تحدثت عن قيام بعض الجهات في الحكومة العراقية بسحب ملف قضية مقتل الخوئي من المحكمة او تغيير الافادات ومجرى التحقيق، لكن ثقتنا بالقضاء العراقي الذي لا نشك في نزاهته كبيرة بأن ينال الجناة عقابهم، فالمسألة بالتالي مسألة دم لن يذهب هدرا». وأضاف الخوئي، الذي كان نظام صدام حسين قد اغتال والده محمد تقي نجل المرجع الشيعي الأعلى آية الله ابو القاسم الخوئي عام 1994 كما أعدم عمه ابراهيم عام 1991 واغتال الكثير من أبناء عائلته، قائلاً «لقد كان عمي عبد المجيد الخوئي رجل دين لا علاقة له بالعمل السياسي، ويعمل على تقديم الإغاثة والمساعدات للعراقيين بغض النظر عن طوائفهم ومذاهبهم، كما عمل على قضية التقريب بين المذاهب الاسلامية والحوار بين الأديان والحضارات، وهو أول شخصية عراقية معروفة دخل الاراضي العراقية مع مجموعة من العراقيين مع بداية الحرب قبل ثلاثة اعوام لتقديم المساعدات للعراقيين وحثهم على عدم الاقتتال فيما بينهم بعد سقوط نظام صدام حسين، لكن أياد آثمة اغتالته لأنها لا تريد للعراق والعراقيين ان يعيشوا بسلام

واستقرار».

من جهته، أكد القاضي رائد جوشي، الذي كان قد حقق في قضية مقتل عبد المجيد الخوئي عندما كان قاضي تحقيق محكمة النجف، أن هناك أمرا قضائيا صريحا كان قد صدر عن المحكمة للقبض على مقتدى الصدر ومجموعة من انصاره على رأسهم رياض النوري لتورطهم في جريمة مقتل عبد المجيد الخوئي، مشيرا الى انه أدى واجبه «كما يملي علي ضميري وواجبي كقاض من دون الخوف من هذه الجهة او تلك». وحول الشائعات التي تحدثت عن اختفاء ملف التحقيق في هذه الجريمة أو تغيير مجرى التحقيق، قال القاضي جوشي «أنا لا اعتقد ان القضاء العراقي المشهود له بنزاهته قد تعرض لضغوط أدت الى اختفاء ملف القضية أو تم تغيير مجرى التحقيق. وعلى العموم فأنا قاضي التحقيق وما زال شهود الاثبات أحياء وليس من المعقول ان يتم اخفاء الملف».

وفي اتصال هاتفي لـ«الشرق الأوسط» مع مسؤول في محكمة الجنايات في بغداد، أكد المسؤول أن قرار الاتهام الموجه الى مقتدى الصدر و24 من أتباعه في قضية مقتل الخوئي في مدينة النجف في العاشر من ابريل (نيسان) 2003، ما زال «نافذا وفاعلا» وأن أمر القبض على الصدر وأتباعه «نافذ المفعول قضائيا، وليس هناك أي تأجيل او سحب للقضية»، مشيرا الى ان «أوراق التحقيق انتهت منذ عامين، وقد أصدرت المحكمة الجنائية قراراتها القطعية». وكانت أنباء قد تحدثت عن اختفاء ملف القضية في عهد حكومة ابراهيم الجعفري لكسب ود مقتدى الصدر وأتباعه ليقفوا الى جانب الجعفري في الانتخابات وفي عملية ترشيحه لمنصب رئيس الحكومة الجديدة، وهذا ما حدث بالفعل، لكن الجعفري كان قد أكد في حديث سابق لـ«الشرق الأوسط» أنه لم ولن يتدخل في القضاء.

لكن أنباء كانت قد نشرتها وكالة الصحافة الفرنسية في 14 اغسطس (آب) العام الماضي قالت ان «مسؤولا من مكتب رجل الدين الشيعي المتشدد، مقتدى الصدر، أعلن أمس (13 اغسطس 2005) ان الحكومة العراقية أطلقت سراح اثنين من كبار مساعدي الصدر». وقال صاحب العامري، الأمين العام لمؤسسة شهيد الله التابعة لمكتب الصدر، ان «الحكومة العراقية أطلقت سراح اثنين من كبار مساعدي السيد مقتدى الصدر، وهما الشيخ مصطفى اليعقوبي والشيخ رياض النوري». وكان النوري واليعقوبي قد اعتقلا في ربيع 2004. وقد اعتقل اليعقوبي بتهمة التورط في قتل رجل الدين الشيعي عبد المجيد الخوئي الذي قتله مسلحون في النجف في العاشر من ابريل (نيسان) 2003 بعد ايام قليلة من عودته من لندن، حيث كان يعيش في المنفى. وقال هذا المسؤول إن الافراج عن الشيخ اليعقوبي جاء بعد ان قررت محكمة في بغداد وقف الملاحقات ضده نظرا لعدم كفاية الأدلة على تورطه في قتل الخوئي. كما قررت وقف الملاحقات ضد الشيخ النوري للسبب نفسه.



السيد عبد المجيد الخوني مع السيد حيدر الرقيعي (ساكن حضرة الامام علي عليه السلام)
في منزل الرقيعي يوم 4 - 4 - 2003



السيد عبد المجيد الخوني في كليدارية حضرة الامام علي (عليه السلام) يوم 4 - 4 -
2003 يُلاحظ أنه كانت هناك صورة صدام حسين حيث تم رفعها بأمر من السيد الخوني
واستبدلت بصورة الامام علي (عليه السلام)



السيد عبد المجيد الخوني (رحمه الله) عند بوابة ضريح الامام علي (عليه السلام)



السيد عبد المجيد الخوني مع مجموعة من أهالي النجف وهو يغادر حضرة الامام علي (عليه السلام)



صحافي بريطاني في لقاء مع السيد الخوني في معمل إسمنت الكوفة يوم 2 - 4 - 2003



مجموعة من اهالي النجف يجتمعون حول السيد الخوني في أول يوم وصولنا الى هناك



الشهيد ماهر الياسري في النجف الأشرف



الشهيد ماهر الياسري وحازم الشعلان وعبد الحسن الخفاجي في طائرة الهليكوبتر متوجهين الى النجف



بناية محافظة النجف بعد أن تم قصفها من قبل القوات الامريكية



الشهيد ماهر الياصري (رحمه الله) مع مجموعة من أهالي النجف في أول يوم وصولنا الى هناك

معدنياض

ظهيرية

ساخنة

جدا

القصة الحقيقية لقتل السيد عبد المجيد الخوني

